



رواية

النظام
THE ORDER

الأصول ORIGINS

تأليف





التنظيم

رواية

محمود علام

الكتـــــــاب: **التنظيم**

المــؤلـــــف: **محمود علام**

تصميم الغـــلاف: **كريم آدم**

المراجعة اللغوية: **عبدالحليم جمال - مؤسسة إبداع**

رقــم الإيــداع: 2017 / 14180

الترقيــم الدولــي: 4 - 172 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنــي: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله



العنوان: 10 ش هدى شعراوي، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - **موبايل:** 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

التنظيم

رواية

محمود علام


رواياتي
Rwaiaty.com

”هذه الرواية مبنية على أحداث تاريخية ودينية وشخصيات حقيقية“

تنويه

جميع أحداث هذه الرواية السياسية والتاريخية والدينية؛ وكلُّ حرفٍ تحويه بما تضُم من حوارات بين شخوصها، وبحوثات مُبينة بين سطورها، هو حقيقة مثبتة وموثقة في الكتب والمراجع المذكورة ها هنا، وغير المذكورة.. يُمكِن لأي قارئ البحث عن المعلومات الواردة، والاستزادة منها كما يُحِب على مواقع شبكات البحث والإنترنت الأكاديمية، حتى يتمَكن من فهم عالم الرواية، وتمهيد خيوطه المتشابكة بشكلٍ أكثر دِقة..

إهداء

لهؤلاء الذين وثقوا فيّ.. وأولئك الذين لم يتخلو عني يومًا، ولم ييأسوا.. لأولئك الذين ظلوا بجواري في وقت حاجتي، وفي غيره كانوا حضورًا.. أولئك الذين ما كانت الرواية لتخرج بدونهم، وما كانت حياتي لتضِحى على ما هي عليه بِلاهُم..

إلى كل من تابعني أو لم يتابع، وكل من انتقدني أو جاملني وأثنى عليّ.. إليكم أنتم..

فلتسِرْ الحياة ما دُمتم معي، ولتضِق ما دمتم بجواري.. فلتزْأر العاصفة في وجودكم أنتم، ولن أُهزم يومًا..

شكر خاص

للمميزيْن د. أحمد خالد مصطفى، وأ. محمد عصمت.. لم تكُن الرواية لتخرج بشكلها هذا لولا مساعدتكما والنقد الرائع الذي قدمتماه، ولولا تبنيكما لها دعائيًا.. قد تسببت ثقتي برأيكما في إزعاجي وإرهاقي المستمر لكما.. فلولا ما تتمتعان به من رأي صائب وحسٍّ أدبي متميز، لتركتكما في سلام، ولتاهت عنّي الأقدار وما استطعت أن أُراجِع حرفًا..

تمهيد

- 1 -

الضباب..

أمطارٌ تسيل كالجمرات، لترتطم بكتفه وهو يقف هناك، على قمة ذاك الجبل.. يحدق في المشهد الذي يتمثّل أمامه..

جدار الماء ذاك.. جدارٌ لا يمكن استيعاب حجمه، يشعرك بأنه يحجب رؤية الفضاء ذاته..

كأن الأفق أمسى مياهًا.. موجة عملاقة لا تبقي ولا تذر..

يقف هناك..

يحدق في الأفق بعيون تعسة تحوي نظرة لا تعبير عليها.. لا شعور..

يبتسم ابتسامه خفيفة، وهو يتلقي قطرات المطر الثقيلة على وجهه وعباءته التي تتطاير بقوة بفعل الرياح العاتية، فاتحًا ذراعيه على امتدادهما..

والموجة تقترب جدارًا يقتلع كل شيء يعترضه.. يقترب من تلك السفينة هائلة الحجم التي تقبع هناك على مرمى الأبصار..

السفينة التي يكمن فوقها أزواج الحيوانات، وهؤلاء الأناس القليلون.. يمكن

عدهم على أصابع اليد الواحدة..

سفينة لها سقف !.. لا تفقه من بناها، وكيف، ولِمَ..

ترى الكل يدلفون إلى الداخل اتقاء الأمطار والرياح العاتية.. والجدار الرطِب يرتطم بكل شيء ويقتلعه من مكانه، ساحبًا إياه في طريقه صوبهم..

الأشجار والصخور.. لا شيء يقوى على صد غضبه..

وهو ما زال يقف هناك.. يبتسم.. تلك النظرة التعسة في عينه لا تتغير..

من هو بالضبط؟..

لا نملك إجابة في الوقت الحالي..

* * *

تخرج من السفينة.. تسري قشعريرة من البرد القارص تحت ملابسها، فتنظر حولها على سفح الجبل الذى تستقر عليه، وتتلفّت.. وحْل.. أجسادٌ طافية.. أشجارٌ مقتلعة.. أرضٌ قفر.. خرابٌ كامل.. خرابٌ لا يستوعبه عقل.. ثم ذلك الصمت..

صمت الموت الذى يطغى على كل ما حوله.. كأن ذاك هو العدم ذاته وقد تشكل في صورة أرضٍ خربة.. شعور العزلة هذا..

تنظر إلى والد زوجها الذي يقف جوارها.. تلك النظرة التي تحويها عيناه.. نظرة لم ترَ لها مثيلاً في حياتها..

نظرة من رأى النهاية بعينيه.. وعاش بعدها ليحكي..

يخرج الآخرون من السفينة، وتغوص أقدامهم في الوحل وأخشاب الأشجار المقتلعة وشظاياها.. هؤلاء هم الناجون.. الأخيرون من نوعهم، في عالمٍ لم يعُد يحوي سواهم.. وسواه..

يقف هناك كما كان، أعلى ذاك الجبل، ويتطلع إليهم بنفس العيون التعسة.. نظراته تثير شعورًا مقبضًا في نفس من يراها.. تطير الريح عباءته، ويركز هو بصره على ذاك الشيخ الذي يمشي في تؤدة.. شديد البياض هو حتى تكاد الموجودات تشع نورًا من حوله.. تبدو قدسيته واضحة على كل من يحيطونه.. تتطاير عباءته بعنف مع الريح، بينما يرفع هو عينيه إلى الأعلى..

– تظُن أن الأمر انتهى؟.. بل تلك بداية..

يخاطب السماء.. الرياح تشتد أكثر، وتغدو قوتها جديرة باقتلاع الصخور ذاتها، ولكنها لا تقتلعه، ولا يتأثر..

– وعزتك لأغوينهم جمعًا.. فأنظر ماذا صنعت..

تبدو غيوم السماء أشبه بغضب الكون، وسخطه على ما يحويه..

– أغويتُ جيلاً كاملاً منهم.. ولن أيأس حتى يتكرر صنيعي مع كل جيل، وكل واحد فيهم أجمعين..

ترتفع بناظرك إلى الأعلى.. إلى منظور عين الطائر، لتلقي نظرة على الموقف..

مياه.. مياه في كل مكان.. أجسادٌ طافية.. أجسادٌ غارقة.. أشجار.. وحل.. غيوم.. ثم وسط كل هذا، بدأت السماء تشع، ويتبدّى بهاؤها للأنظار.. الأمواج تتباطأ تدريجيًا، وتنحسر المياه تاركة الخراب خلفها.. الغيوم تنقشع، وتتسرب من بين فرجاتها بضع شعيعات ذهبية تأتي من هناك.. في الأفق.. من شمسٍ تشرق معلنة بدء حقبة جديدة..

وعصر جديد..

* * *

- 2 -

قال له اللّه: تَمَنّ..

قال سوميا: أتمنى أن نَرَى ولا نُرَى.. نغيب في الثرى، وأن يصير كهلُنا شابًا..

* * *

قبل خلق آدم بفترة، كان خلق الجن.. أول من خُلق منهم كان يُدعى سوميا.. كان ملكًا للجن جميعًا، وأسكنهم اللّه هم وذريتهم الأرض؛ ليعبدوه ويعمروا فيها.. ولكن لم يكن ذاك هو ما حدث..

أكثروا فيها الفساد، وسفّك الدماء والكفر، وكادوا أن يدمروا ذلك العالم بما فيه، حتى أرسل اللّه الملائكة لغزو الأرض وتطهيرها.. وكان الغزو قويًا.. ماحقًا.. لا يبقي ولا يذر.. غزت الملائكة الأرض وقتلت من الجن من قتلت، وشردت من شردت، وأسرت البعض، وفر من الجن عندها نفرٌ قليل واختبئوا بالجزر والجبال.. ومن بين أولئك الأسرى كان هو.. عزازيل الحارث.. كان جنيًا صغيرًا في ذاك الوقت.. وكان من الجن المؤمنين باللّه، ولذلك أخذته الملائكة معها إلى الملأ الأعلى..

مر الزمن، وكبر "عزازيل" بين الملائكة، واقتدى بهم في طاعه اللّه سبحانه وتعالى.. وأعطاه اللّه أعظم منزلة أعطيت لجنٍ أو ملاك.. أعطاه سلطان السماء الدنيا.. وصارت له مكانة الملائكة..

وبعدها بفترة.. أخبر اللّه الملائكة بأنه سيخلق بشرًا خليفة له في الأرض..

قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك.. قال: إني أعلم ما لا تعلمون..

لم يكونوا عاصين، وانما كانوا يستكشفون حكمته، وينهلون من بحر علمه ورحمته الواسع، كانوا يتفكرون ويتذكرون فساد الجِن، وذريتهم، وخراب الأرض على أيديهم، ولم يستوعبوا رغبة ربهم في خلق كائنات أخرى تفعل مثيل ما صنعه من قبلهم، ولكنهم أسلموا الأمر وأدركوا أن اللّه حسم الموقف، وأصدر هو أمره إليهم تفصيلاً، فقال إنه سيخلق البشر من الطين، وينفخ فيه من روحه بعد أن يسويه، وبعدها يجب عليهم جميعًا السجود له تكريمًا..

جمع اللّه بعدها قبضته من تراب الأرض.. جعل فيها الأسود والأبيض والأصفر والأحمر، ومزجها بالماء.. فأصبح التراب صلصالاً.. وكان "عزازيل" دومًا ما يمُر عليه ويتساءل إلى أي شيء سيصير ذاك الطين..

بعدها سوى اللّه الصلصال بيديه، ونفخ فيه من روحه، فتحرك جسد آدم ودبت فيه الحياة..

* * *

يفتح عينيه.. تهتز الموجودات أمامه قليلاً، فيغمضها ثم يفتحها من جديد..

ذلك الشعور الذى يعتريه ويستولي على كيانه..

يريد أن.. يعطس..

- قلْ الحمد للّه..

ذاك الصوت الهادر الذى يدوي في أذنه..

- الحمد للّه..

ينظر حوله.. لا يفهم ما يراه أمامه، ولا يمكن لعقله الاستيعاب.. تلك المخلوقات المضيئة الساجدة أمامه.. كلهم ساجدون إلا واحدًا.. ينظر له مليًا ويتفرّس في ملامحه.. لا يشعر بالراحة وهو يرقب تلك النظرة التي ترتسم على قسماتها.. ثم يدوي ذاك الصوت في أذنه.. صوت لا يستوعب..

- يا إبليس.. ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي.. استكبرتَ أم كنتَ من الكافرين..

يتلفّت حوله محاولاً الفهم، ولكنه لا يقدر، ولا يقوى عقله على الاستيعاب أو التفقه.. من أين يأتي الصوت؟.. صوتٌ قوي شديد الجمال، لا يمكن وصف نبراته.. لا يستطيع الاستيعاب، ولا يقوى..

- أنا خيرٌ منه.. خلقتَني من نار وخلقتَه من طين..

يُدير عينيه إلى ذاك الواقف الذى لا يبعث على الارتياح، والذي بدوره يصوب له نظرة لا يستوعب المعاني الغزيرة التي تختبئ بين لمحاتها، بينما يدوي الصوت الرهيب مجددًا:

- فاخرج منها فإنك رجيم.. وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين..

لا يمكنه أن يستوعب من أين يأتي الصوت.. كأن الموجودات حوله جميعًا

تتكلم، ويغطي صوتها على نبرات أفكاره، فلا يدرك وجود سواها، ولا يمكنه الفهم..

– رب فأنظرني إلى يوم يبعثون..

– فإنك من المنظرين.. إلى يوم الوقت المعلوم..

يتطلع إلى الواقف ذي الحضور المقبض..

– فبعزتك لأغوينهم أجمعين.. إلا عبادك منهم المخلصين..

– فالحق والحق أقول.. لأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين..

يرقب تلك النظرة التي على وجه ذلك الواقف، بينما ينظر هو إليه.. نظرة لا يمكنه سبر أغوارها.. لا يفهم معنى المشاعر، ولا يمكنه أن يفهم ماهية الشعور الذي يختفي خلف عيناه الواسعتين.. ربما هو الحقد.. ربما هو الغل أو الحسد، فلا يمكنه التمييز، ولا يفقه معانيهم أو يدرك، بينما يتراجع الواقف إلى الخلف، ويستدير مبتعدًا في خطى حثيثة..

يبتعد حتى يخرج من مجال بصره تمامًا..

* * *

"اسْكُنْ أنتَ وزوجُك الجنة وكُلا مِنْهَا رغدًا حَيْثُ شِئْتُما ولا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ" آية 35.. سوره البقرة..

* * *

لا يرقى لسان بشر على وصف موطئ قدميه، ولا المكان الذي تتطلع عيناه

إليه.. هو مكانٌ وكفى.. مكانٌ تقف على حدوده هـالاتٌ من الضوء، هي ملائكته الحارسة.. يمكنه أن يراهم بوضوح، لو أنه فقط تطلع.. لا يمكن أن يعبر خلالهم، فسيروْنه.. يكتفي بالمراقبة، ويجتذب بصرَه شيءٌ معين..

ذاك المخلوق الزاحف إلى الداخل..

ثعبان.. حية طويلة، يتراقص لسانها المشقوق في الهواء وهي تخوض طريقها للداخل، ويتركونها هُم تمُر بلا مسائلة..

تلك هي وسيلته إذًا..

هكذا سيدخل..

* * *

"صوت المتمرد"

- لست هنا لإيذائك.. إنما أنا أريد دخول الجنة.. أفلا تساعدينني؟

"صوت فحيح يمكن تمييز الكلمات فيه"

- ومن أنت؟..

- أنا من جئت أنتقم لعزتي وكرامتي ومكانتي، وإن ساعدتني لتكونين من الفائزين..

- أنا أعرفك.. أنت "إبليس".. أنت المتمرد المطرود..

- "عزازيل".. لست إبليسًا.. قد طُرِدت ظلمًا وافتراءً.. ليس الذنب ذنبي..

- سأساعدك.. ولتوهبنني مُلْكًا عظيمًا..

- لك ما تشائين.. ما سأفعله هو أن أختبئَ في جوفك حتى تعبرين باب الجنة من بين الملائكة.. ذاك هو كل ما أطلبه..

- لك ما شئت..

* * *

"صوت المتمرد"

- لم أكن أظن أن الحيلة ستنطلي عليهم.. ولكنها نجحت..

"صوت فحيح"

"صوت المتمرد من جديد"

- إنني أتساءل.. هل كان يريدنني أن أعبر إلى داخل الجنة؟.. إن ذاك لغريب..

"صوت فحيح"

- المهم أننا في الداخل.. فما صنيعك؟..

- لا أعرف، لا يمكنني الظهور له بشكلي؛ لأنه يعرف وجهي.. ويعرف أنني طُرِدت دنسًا بسببه.. يجب أن أفكر في حيلة أخرى..

- يجب أن نراقبهم..

* * *

يرقبهما من على بُعدٍ، وهما يتكلمان ويستمتعان بما يحيطهما، وبِكُلِ ما تطاله أيديهما، ولا ينشغل بالهما بشيء.. على وجهه يتبدّى المقت والكراهية، وتتمثل في ملامحه التعسة مشاعر الحسد واضحةً جلية.. مطرودٌ هو وملعونٌ إلى الأبد، لا لسببٍ سوى رفضه السجود والتذلّل، لمخلوقٍ يرى ويعرف أنه أقل منه ولا تتوافر له ربع قدراته.. وهو.. ذاك المدلّل.. نال كل شيء منذ لحظة خلقه.. لم يتعب ولم يجتهد، لم يستحق ما هو فيه..

خُلِق مدللاً.. خُلِق مؤمنًا، وخُلِق له كُل شيء طمح إليه، وخُلِقَت هي له من ضلعه؛ لتؤنس وحدته وتملأها عليه حبورًا..

خُلِق ملكًا.. يرقبهم من بعيد، ويتبدّى حقدُه في ملامحه جليًا.. يقتربان من كل شيء، وتتذوق ألسنتهم كُل ما تطاله كفوفهم، سواها.. تلك الشجرة..

شجرة رائعة المنظر، على أغصانها ثمارٌ تبدو كاللآليء، تُغريك حتى تجعل لعابك يسيل اشتهاءها.. ولكنهما لا يقتربان منها مطلقًا.. لسبب ما يتعاملان كأن تلك الشجرة ليست هناك، كأنما لا تقع أعينهم على غصونها البهية..

فلِمَ؟..

- لماذا لا يقربا تلك الشجرة؟

يخاطب الحية القابعة بجواره، فيتراقص اللسان المشقوق في الهواء..

- لأن الله نهاهما عنها.. تلك هي الشجرة المُحرّمة..

- مُحرّمة؟

ينظر إلى الحية، ثم يدير وجهه صوبهما من جديد، ويتطلع إليهما، وهما يضحكان، وعلى قسماتهما لمحات السعادة..

- أعتقد أن لدي صنيعًا..

* * *

يتكلم معها.. ليس على باله ما يشغله.. براءةٌ مطلقة.. براءة من لم يجرب أن يعيش على الأرض يومًا واحدًا، بل خُلِق وسكن الجنة مباشرةً..

يأكل من ثمار الأشجار، ويستمتع بما فيها من خيرات.. إلا تلك.. لا يدري لماذا حُرّمَت، ولا يفقه السبب الفلسفي وراءَ ذاك.. ولكنه لا يعصى.. لا يُدرِك حتى معنى العصيان..

- ولِمَ؟..

يدوى ذلك الصوت الهامس في عقله، فيفكر..

لأنها محرمة..

لأن اللّه حرّمها علينا، وحرّم على شفاهنا تذوقها أو اشتهاءها..

- ولماذا تلك بالذات؟.. هناك الكثير غيرها جميلة الشكل طيبة الثمار.. فلِمَ تلك بعينها؟

فضول.. فضولٌ جارفٌ يسيطر عليه..

- غَضٌّ ذاك الذي ترتديانه، جميلٌ يستركما ويُبرِز هيئتكما البهية، ولكن هل تساءلتما يومًا عن نفع أعضاء أجسادكما المختبئة تحت طياته؟.. ما هي؟..

الفضول يتزايد، ويستولي على نفسه..

- ألا تسمو لأن تعرف؟.. ما نفع أعضاء جسدك تلك؟، وما فائدة أعضاء جسدها؟..

يتزايد الفضول، يتشكل معه شعورٌ جديد، غريب لم يجربه من قبل..

هل هي شهوة؟.. بل هو حياءٌ وخجل.. هو لا يفقه الفرق..

- ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكيْن، أو تكونا من الخالدين..

ملكين خالدين؟..

لا.. بل هو يكذب.. ليس ذاك صحيحًا..

- أقسم لكما.. إني لكما لمن الناصحين..

إنه يقسم.. شعور التردد هذا.. شعور الحيرة.. القلق.. عدم الارتياح..

- أقسم لكما بالله بأن ما أقوله حق.. لا مصلحة لي في أن تأكلا أو لا تأكلا.. بل ذاك هو صالحكما أولاً وآخرًا..

هل يمكن أن يقسم أي مخلوق بالله كذبًا؟

بالتأكيد هو صادق..

ينظر إلى الشجرة وفضوله يتصاعد، ولا يرتوي.. يقترب، وتقترب هي معه..

يريد الخلود.. يريد السلطان ويريد المُلْك.. قد أقسم له ذلك الصوت بأنه سينال كل ذاك لو أكل من ثمار تلك الشجرة.. أقسم له بالله.. فكيف به أن يكذب..

الله..

"وَلَا تَقْرَبا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَالِمِينَ.."

يتذكر كلام الله.. لكنه يطمح للخلود، ويريد السلطان والمُلْك.. لا يعرف معنى الخلود أو السلطان أو المُلْك، ولكنه الفضول.. الفضول الذى لا يرتوي.. قد أقسم له الصوت، فكيف يكذب؟! يقترب من الشجرة، وتمتد يده إلى الثمار.. إنه يقطفها..

* * *

يتطلع صوبهما، ويبتسم.. قد أنزل الفضول في نفسيهما، وزرعه فيهما كالبذرة، ولم يتبقّ إلا أن يشهده ينمو ويتشعّب.. يستحوذ على أفكارهما..

تدريجيًا، أصبح كل ما يفكرا فيه هو تلك الشجرة.. هناك الكثير غيرها، وأعدادها لا تُعد ولا تُحصى..و لكن هذه الشجرة.. هذه الشجرة مختلفة، لا يرى أحدهما غيرها..

يبتسم في تشفٍ وهو يرقب اقترابهما منها.. يرقب كفوفهما التي تمتد

نحو الثمار مترددةً وجلاً ورهبة.. يرقبهما، وهما يقضمان من التفاحة، ويتذوقان.. يبدو عليهما الإعجاب بما تلوكه أفواههما.. بينما تتسع ابتسامته هو، لتغدو ضحكة تحمِل في رنينها كل التشفي، كل الغل والمقت الذى يمكن تصوره، وهو يرقب ذاك اللباس الأبيض الجميل الذى كان يغطي جسديهما، ويستر عوراتهما وهو يختفي تمامًا..

يتلاشى كأنما لم يكن.. فجأة.. أصبحا عارييْن تمامًا.. الذعر يعتريهما.. الذعر والذهول.. يدوران حول أنفسهما.. لا يعرفان ماذا يفعلان.. يُمزّقا أوراق الشجر ليغطوا بها جسديهما وأعضاءهما، ويحاولان الاحتماء بما يمكنهما أنه يحتميا به، ولا يُفلحان، بينما تدوي ضحكاته هو ويصطبغ الهواء برنينها الشامت، فتتردد على الأذهان مثيرةً نفس من يسمعها..

ثم يدوي ذلك الصوت الرهيب.. "أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدوٌ مُبِين.."

يرقبهما وفحيح الأفعى الظافر من جواره يدوي.. إنهما يتكلمان..

- رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين..

تتبدّى نظرة السخرية في عينيه ممتزجةً بالمقت والتشفي، فلا ينافسها إلا فحيح الحية من جواره..

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْض عَدُو وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين.. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُون..

يشعر بقوة ما تجذبه إلى الأسفل.. قوة لا يفهمها..

يحاول أن يقـاوم، ولكنه لا يقوى، كنملة تحاول الـهـروب من عاصفة.. لا يقدر.. يشعر بكيانه ذاته ينسحب إلـى الأسفل بسرعة لا تصدق، ولا يستوعبها ذهنه، وتعبر النجوم والأقمار والكواكب جواره كلمحات أبصاره، فتبدو في مريقها قُربه كشهُبٍ سابحة، أو كرعدٍ يرتسم مُتشكّلاً، ثم يتلاشى تاركًا هزيمَهُ يستولي على قلبه في أثره ليملأه وجلاً ورهبة.. وهناك، على مرمى الأبصار، ترى مشهدًا مألوفًا.. ذاك الكوكب الأزرق الجميل الذي يتبدّى بداخله مشهد السماء والصباح، لا يُعكّره سوى ذاك الضوء المتلألئ الذي يقترب في السماء البهية، ويغلف ثوبها ضياء ..

أنيزكٌ هو؟.. لربما كان شهابًا.. ربما هو كوكب الزُهرة المُجاور الذى يصير أكثر لمعانًا في الصباح.. ولكن كوكب الزُهرة لا يقترب.. لا يسقط..

لكنه هو يفعل.. له أسماء كثيرة..

عزازيل كان اسمه قبل أن يصبح ملاكًا، ولكنه صار إبليسًا بعد أن أخطأ وتمرد.. ولكن أكثر أسمائه شهرة هو ذاك الذى يُعبّر عن ذلك المشهد الذى يتمثل في سماء الصباح البهيّ..

نجمة الصباح الساقطة..

حامل الضياء..

ذاك الاسم هو لوسيفر..

* * *

الجزء الأول

"مؤامرات واغتيالات"

Plots and Assassinations



لم أسأل نفسي وقتذاك عن سبب وجود تلك المواد في بيوت "عبد الناصر" وزملائه، فقد حرصنا منذ بداية تعاوننا في القتال أن نجنبهم الشبهات، وأن نتسلّم أولاً بأول من محطة القاهرة أو طريق السويس ما يصل من ذخيرة، لنُخرِجه فورًا من العاصمة إلى مواقع استعماله..

لم أسأل نفسي ولم أسأل "عبد الناصر" عن سبب وجود تلك الأشياء عندهم؛ فقد كان كل ما يعنيني أن أنقذ رقابهم في ذلك الوقت العصيب..

"كيف تصل القنابل النووية إلى إسرائيل بدون علمنا؟"

"دستور بلادنا علّمَنا أن نرفض وجود تلك الجماعات السرية بيننا"

"السرية أو الجماعات التي تصف نفسها بالسرية، ليس لها مغزى إيجابي أو مفيد للمجتمعات التي تعيش بها، لأن السرية تعنى أنك تغطي على الأمور الخاطئة التي تحدث من تحت الطاولة"

"والدى كان دومًا يقول إن كل رجال الأعمال هم أولاد عاهرة.. لكنني لم أصدقه إلا الآن.."

"ونقول عن أنفسنا أننا الجنس البشرى !."

"جون فيتزجيرالد كينيدي"

الرئيس الخامس والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية..

"منظمتنا العسكرية اليوم لها علاقة بسيطة جدًا لا تكاد تُذكر بتلك التي كان يعرفها أيٌّ ممن سبقوني في أوقات السلام، أو حتى في أوقات الحروب، لا يعرفها حتى من حارب في الحرب العالمية الثانية أو ضد كوريا..

لذلك فمن واجبنا في المجالس الحكومية أن نحمي الدولة من ذلك النفوذ الواسع المكتسَب وغير المشروع الذى تحظى به منظماتنا العسكرية حاليًا،

سواء كان مطلوبًا ويسعى إليه أو لا، بواسطة ذلك "التنظيم العسكري الصناعي"..

يجب ألا ندع ثقل ونفوذ وقوة هذه المجموعة يؤثّر على العمليات الديمقراطية، وجهات صنع القرار في الولايات المتحدة.. يجب ألا نسلم بأي شيء، ولا نصدق أي شيء.."

"دوايت د. أيزنهاور"

الرئيس الرابع والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية..

- 1 -

22 نوفمبر..

..1963

الساعة 12:30 PM

دالاس.. تكساس.. الولايات المتحدة الأمريكية..

ديلي بلازا..

تقترب من المشهد في سرعة، ويتمثّل أمامك.. تقتحم الشوارع والأحياء، تعبر بين الناس، حتى تصل إلى مشهد ذلك الموكب المهيب..

ثلاث سيارات قادمة من بعيد في ذلك الطريق الملتف تتبعها الدراجات البخارية، وتلتف حولها جموع الشعب الهاتفين، ويتوزّع حولها هؤلاء الناس الممسكون بكاميرات التصوير؛ ليلتقطوا ذلك المشهد.. جولة "جون فيتزجيرالد كينيدي" في تكساس.. أكثر الولايات الأمريكية معارضةً له في ذلك الوقت، لدرجة أنه كان يتلقّى تهديدات بالقتل لو تجرأ على الظهور فيها.. لكنه لم يكن يبالي، فبرغم كل شيء، تلك الجموع هي أكبر إثبات على زيف تلك التهديدات بالنسبة له..

الجموع الغفيرة من البشر، الذين يُصورون ذلك الحدث التاريخي.. تعبر الثلاث سيارات من وسط الناس.. تقترب أنت من السيارات لتُلقي نظرة على الجالسين داخلها..

السيارة الأولى هي فورد بيضاء ذات سقف معدني، يجلس بداخلها "جيسي كيري" رئيس شرطة دالاس، وضابط الخدمة السرية "وين لاوسون" والشريف "بيل ديكر" والعميل الميداني "فوريست سوريلس"..

تعبر بناظرك إلى السيارة الثانية.. لينكولن موديل 1961 كونتيننتال ذات سقف متحرك مكشوف.. يجلس بداخلها العميل "بيل جرير" خلف المِقْوَد، بجواره العميل "روى كيلرمان"، وحاكم تكساس "جون كونيللي" وزوجته "نيللي كونيللي"، والرئيس "جون كينيدي" وزوجته "جاكلين كينيدي"..

تعبر لترقب مشهد السيارة الثالثة.. كاديلاك موديل 1955 ذات سقف متحرك مكشوف، يجلس بداخلها السائق العميل "سام كيني" و"إيميرى روبرتس" و"كين أودونيل" و"ديف باورز" من قوات الحرس الرئاسي.. والعملاء "جورج هيكي" و"جلين بينيت".. وعلى السيارة من الخلف، يجلس عملاء الخدمة السرية "كلينت هيل" و"جاك ريدي" و"تيم ماكنتاير" و"باول لانديس".. بالإضافة إلى بندقية الـ "أيه أر 15"..

وخلف كل هؤلاء، يركب رجال الشرطة دراجاتهم البخارية تابعين..

دعونا من كل هذه التفاصيل، ولنعد بالمشهد إلى السيارة الثانية..

تتقدم في تقاطع شارع "إلم" مع "هيوستن" إلى داخل ميدان الـ "ديلي

بلازا".. جموع الشعب الهاتفة، وأصوات الصفير والتصفيق تغطي على كل الأصوات.. تلتفت سيدة تكساس الأولى "نيللي كونيلي" إلى "كينيدي" وتهتف محاولةً التغلب على أصوات الجماهير:

- سيادة الرئيس، لا يمكننا القول بأن دالاس لا تحبك..

ينظر لها "كينيدي" وعلى وجهه ابتسامة واسعة، ويقول بينما شعره الأشقر يتطاير في الهواء:

- لا.. بالتأكيد لا يمكننا قول ذلك..

يرتفع بك المشهد إلى الأعلى، لينقل لك منظر تلك البناية في أول الشارع..

بالتحديد على ناصية تقاطع شارع "إلم" مع شارع "هيوستن".. مستودع الكتب المدرسية بتكساس.. نقترب من ذلك المبنى.. الطابق السادس بالتحديد..

هل ترى معي؟ ترى تلك الالتماعة؟ يعرفها كل من شارك في الحرب العالمية الثانية، أو أي حرب عمومًا.. التماعة الشمس على عدسة بندقية قنص إيطالية من نوع "كاركينو إم 91"..

صوت الراديو بجانب القناص يختلط بالإستاتيكية..

"نفذ.."

وتدوي الرصاصة.. تتابع مسارها وهي تطير في الهواء متجهة نحو الموكب..

حيث يقف "كينيدي" مُلوحًا بيده اليسرى إلى الجماهير على يسار سيارته..

تخترق الرصاصة ظهره العلوي، ثم تخترق رقبته مدمرةً جزءًا من الفقرات الظهرية فوق رئته اليمنى، وتخرج من حلقه، تحت الحنجرة مباشرة لتقطع الجزء الأيسر من ربطة عنقه..

ولا تتوقف..

تتابع طريقها حتى تخترق ظهر الحاكم "كونيللي" من الجهة اليسرى، لتدمر ضلعه الخامس الأيمن، ثم تخرج من صدره وتخترق ساعده الأيمن، لتحطم عظمة نفس الذراع إلى ثماني قطع، وتخرج من كفه، لتستقر الشظية في إبهامه الأيسر..

الجمهور مازال ساكنًا.. لم يستوعب ما يحدث..

- يا إلهي.. سيقتلوننا جميعًا..

نطق بها الحاكم "كونيللي" وهو ينحني، والدماء تتفجر من بين شفتيه..

و دوت الرصاصة الثانية..

"كينيدي" يمسك رقبته ليحاول منع الدماء المتفجرة منها..

"جيمس تاج" واحد من الجمهور الواقف يتلقَى واحدة من الشظايا في خده الأيمن..

هرج.. ومرج.. صراخٌ في كل مكان.. أناسٌ تجري مبتعدة.. الضابط "كلينت هيل" يقفز من مكانه متجهًا إلى سيارة "كينيدي".. السيدة "كونيللي" تجذب الحاكم إلى حجرها لتحميه.. تدوي الرصاصة الثالثة..

تخترق مؤخرة رأس "كينيدي" لتخرج من الناحية الأخرى من جهة اليمين.. تتناثر شظايا جمجمته، ومخه، ودماءه على زجاج وصالون السيارة والناس والضباط الواقفين، ويسقط هو بلا حراك..

هرج ومرج..

"جاكلين كينيدي" تتسلق إلى مؤخرة السيارة لتلتقط شيئًا ما، ثم تعود إلى مقعدها في نفس اللحظة التي يقفز فيها الضابط "كلينت هيل" إلى السيارة متشبثًا بها..

صوت صرير العجلات على الأرض.. صوت الصراخ.. أناسٌ تجري مبتعدة في كل مكان.. صوت "جاكلين كينيدي" تكلم العدم..

- قد قتلوا زوجي..

صوت صفارات سيارات الشرطة..

- أنا أحمل مخه في يدي..

صوت إطلاق نار من بعيد..

"جاكلين" تنحني فوق "جون كينيدي" ملتاعة..

- جون.. جون.. هل تسمعني؟.. أنا أحبك.. جون..

وما من مجيب..

* * *

PM 1:28

"أوك كليف"

تكساس..

على بعد ثلاثة أميال من الـ "ديلي بلازا"

ذاك الشخص المُريب يمشي في الشارع على الرصيف، واضعًا يديه في جيبه.. تقترب سيارة الدورية من بعيد.. يجلس بداخلها الضابط "جـ. د. تيبيت"..

يعبر بسيارة الدورية بجوار ذلك الشخص.. يتوقف.. يتفرس في ملامحه.. يُطلق صافرة السيارة لينبهه..

- تعال إلى هنا من فضلك..

يتوجه الشخص إليه..

- هويتك الشخصية من فضلك..

- لماذا؟.. هل أنا رهن الاعتقال؟..

- سيدي.. إني أسألك بلطف..

- تبًا لك..

يفتح "تيبيت" باب السيارة.. يهبط منها.. تمتد يد ذاك الشخص المُريب إلـى جيبه.. يستل مسدسه.. ينتبه "تيبيت".. ضربات قلبه تتعالى.. الأدرينالين يسري في دمه.. ينقض عليه.. ويدوي صوت الطلقة الأولى..

تتفجر الدماء من بين شفتي "تيبيت"..

يتراجع..

تدوي الطلقة الثانية..

يمسك "تيبيت" بالدماء المتفجرة من صدره..

تدوى الطلقتان الثالثة والرابعة.. تنطبع الدماء على سيارة الدورية..

قدما "تيبيت" تتخاذلان..

يهوي أرضًا..

الدماء تتفجر من جسده لتُغرِق الأسفلت..

صوت صراخ..

صوت خطوات ذلك الشخص المريب تعدو مبتعدة..

* * *

PM 1:33

"أوك كليف"

تكساس..

- مات؟

تمتم "جوني بريوير" بالعبارة السابقة، وقد اغرورقت عيناه بالدموع وهو يتابع الأحداث التي تجري أمامه على التلفاز، ناسيًا - أو متناسيًا - عمله تمامًا..

"يعلن البيت الأبيض رسميًا بقلب يملأه الألم وفاة الرئيس "جون فيتزجيرالد كينيدي" الرئيس الخامس والثلاثين للولايات المتحدة الأمريكية في مستشفى "باركلاند".. نواسي بقلوب يملأها الحزن والأسى الشعب الأمريكي العظيم على تلك الخسارة المُفجعة.."

تلك الكلمات التي نطق بها المتحدث الصحفي الرسمي للبيت الأبيض "مالكولم كيلداف"، لتملأ قلوب الشعب الأمريكي كله بالأسى..

جرت الدموع في عيني "جوني" قليلاً، قبل أن يتمالك أنفاسه ويأخذ نفسًا عميقًا وهو يستدير ليخرج من متجر الأحذية الذى يديره، ليشم بعض الهواء الطلّق تاركًا "كيلداف" يتحدث خلفه عبر التلفاز..

كان على عكس الكثيرين من أبناء "تكساس"، يعشق الرئيس "كينيدي"

ويراه واحدًا من أعظم من تولوا رئاسة الولايات المتحدة، وهو الرأي الذى لم يكن بعيدًا جدًا عن الواقع..

فـ "كينيدي" كان مُعارضًا وبشدة لوجود برنامج نووي إسرائيلي، وكان سببًا في استقالة "بن جوريون" من رئاسة الحكومة الإسرائيلية، بعد اكتشاف المخابرات الأمريكية تعاونًا بين الموساد والمخابرات الفرنسية لإنشاء مفاعل نووي إسرائيلي، وأصر على حل أزمة الصواريخ الكوبية بالسلام، برغم أن أعين العالم كلها وقتها - حتى أجهزه الدولة الأمنية نفسها - كانت تتجه إليه؛ ظنًا أن الحرب النووية على الأبواب.. دعك طبعًا من وقوفه بقوة ضد توسع نفوذ رجال الأعمال و"المافيا" الأمريكية، وأجهزة الدولة العسكرية.. ومناداته لأكثر من مرة بمعارضة وحل التنظيمات السرية، والتي تتوغل وتتشعب في قلب المجتمع السياسي، والعسكري، والصناعي الأمريكي..

صنع العديد من الأعداء في فترة حكمه القصيرة بداخل البيت الأبيض، من 20 يناير 1961 حتى 22 نوفمبر 1963..

سنتان.. سنتان كانتا كافيتيّن جدًا ليتم اغتياله أمام أعين الشعب الأمريكي والعالم كله.. فقط لأنه الرئيس الذى عارض..

الرئيس الذى حاول أن يصنع فارقًا..

زفر "جوني" زفرة حارة وهو يقف أمام المتجر، محاولاً تخيل ردود الأفعال في أمريكا كلها بسبب ما حدث، والعداء الذى ستناله ولاية "تكساس"

لمعارضتها الشهيرة له واغتياله على أرضها..

وعندها التقطت عيناه ذلك المشهد..

ذاك الشخص المريب الذى ينحني مُختبئًا خلف حائط مدخل المتجر.. ظل كذلك للحظة قبل أن يخرج من مكانه ويُكمل طريقه، واضعًا يديه في جيبه، متجهًا إلى آخر الشارع.. تعالت خفقات قلبه، وتدفق الأدرينالين إلى عروقه، وهو ينظر إلى الشخص المريب، وعقله تلقائيًا يربط المشهد بما كان يشاهده على التلفاز منذ لحظات..

هل يمكن حقًا أن يكون له علاقة بالاغتيال؟ لا يعرف، ولكن المواطنين الشرفاء لا يختبئون في مداخل متاجر الأحذية.. قرر أن يتبعه عن قرب بدون أن يشعر؛ ليرى ما الذى سيفعله.. ظل يتبعه بدون أن يلاحظ، حتى التقطت عيناه مشهدًا آخر.. ذلك الطابور الواقف على شباك بيع التذاكر لمسرح تكساس.. ذاك الشخص المُريب ينظر حوله ثم ينسل بين جموع الناس في رفق، ليعبر باب المسرح مُتسللاً دون أن يدفع ثمن التذكرة..

جرى "جوني" إلى موظف التذاكر..

- سيدي.. هناك شخصٌ ما تسلل للداخل بدون أن يبتاع تذكرة..

- ماذا؟!

نطق بها موظف التذاكر وهو ينهض من على مقعده، لينظر إلى داخل رواق مدخل المسرح، ثم هم بالخروج ليرى ذلك الشخص..

- لا لا.. لا تخرج له، شكله يبدو مُريبًا، وربما كان خطيرًا أو مسلحًا..

فلنطلب الشرطة..

نظر له موظف التذاكر مترددًا لحظة، ثم التقط سماعة الهاتف..

يطلب رقم قسم الشرطة.. لم يكن رقم الطوارئ 911 معروفًا وقتها، قبل أن يدخل للخدمة عام 1968..

"قسم شرطه دالاس، كيف يمكنني مساعدتك؟"

– أحتاج إلى نجدة حالاً.. هناك شخصٌ مريب الشكل تسلل إلى داخل المسرح، وأعتقد أنه قد يكون مُسلحًا..

ينظر "جوني" إلى داخل المسرح..

"مسرح ماذا؟"

لا يرى شيئًا..

– مسرح تكساس..

لا بد أنه يختبئ..

"قوة من الشرطة في الطريق إليك حالاً يا سيدي، انتظر مكانك ولا تتحرك، ريثما أحوّل المكالمة إلى القسم الصحيح.."

وضع موظف الشباك السماعة وهو ينظر بدوره إلى داخل المسرح..

– لا تفكر حتى في الدخول.. الشرطة في الطريق..

قالها له "جوني" في توتر، فنظر له الموظف وقال:

- كيف رأيته؟

- قد كان يختبئ في مدخل متجري قبل أن يخرج ويتجه إلى هنا..

- وما الذى جعلك تتبعه؟

- لا أعرف..

نظرا لبعضهما في توتر، قبل أن يقطع أفكارهما صوت أحد الناس..

- هيه.. نحن واقفون منذ فترة يا صاح.. نريد الدخول.. لِمَ لا تؤدي عملك؟

- سيدى.. انتظر لحظة من فضلك..

"تتعالى أصوات سرينة سيارات الشرطة من بعيد"

- أنتظر ماذا بالضبط؟

لم يرد الموظف وهو يتابع سيارات الشرطة التي تتوقف أمام المسرح، ويخرج منها ضابطا شرطة يتجهان إلى الواقفين..

- من الذى أجرى الاتصال بالنجدة؟

رد الموظف:

- أنا..

- ما الموقف بالضبط؟

- شخصٌ مريبٌ تسلل إلى داخل المسرح متخطيًا الطابور..

وأشار بيده نحو "جوني"..

– وقبلها كان مختبئًا في مدخل متجره.. وأعتقد أنه قد يكون مسلحًا..

نظر الشرطي "م. ن. ماكدونالد" إليهما لحظة، ثم استل مسدسه من حزامه، وأشار لرفيقه بإصبعاه السبابة والوسطى نحو عينيه، ثم إلى مدخل المسرح..

– انتظروا هنا..

يتجه إلى المدخل..

"صوت أنفاس الشرطي "ماكدونالد" يتعالى ودقات قلبه تتزايد" يشير لرفيقه ثم يرفع سلاحه ليصوبه إلى الداخل، ويستل بيده الأخرى الكشاف من حزامه.. يدير الكشاف داخل المسرح..

لا يرى شيئًا..

يتقدم إلى الداخل أكثر، يشير إلى رفيقه محذّرًا..

"الشرطي الآخر يرتجف متوترًا"

يسمع حركة بسيطة على يمينه..

يلتفت في سرعة ليراه..

ذلك الشخص المريب واقفٌ وتمتد يده ناحية جيبه..

– تجمدّ.. ارفعْ يديك إلى الأعلى..

يصوب له المسدس، ولكن لا يبدو على ذلك الشخص أنه يُبالى.. وما زالت يده تمتد ناحية جيبه..

تلتقط مسدسًا..

- ارفع يديك إلى الأعلى..

يبدأ في إخراج المسدس من جيبه..

"يصرخ الشرطي الآخر"

"تتصاعد رائحة الأدرينالين لتفعم الجو"

يقفز عليه الشرطي "ماكدونالد" موجهًا له اللكمات..

يقاوم الشخص المريب، يحاول أن يصوب مسدسه..

يثبّته "ماكدونالد" على الأرض..

الشرطي الآخر يصرخ مصوبًا مسدسه إلى الشخص المريب:

- ارمِ السلاح.. ارمِ السلاح..

مازال يقاوم..

يضرب الشرطي "ماكدونالد" يده بالأرض أربع مرات متعاقبة حتى أفلت المسدس..

يكيل له اللكمات..

بوم.. واحدة..

مازال يقاوم..

بوم.. لكمة أخرى..

يطبق هو بيده حول عنق الشرطي "ماكدونالد"..

بوم.. لكمة ثالثة..

يركل الشرطي الآخر المسدس الملقى على الأرض بعيدًا، ثم يمسك يدي ذلك الشخص المريب ويقيده تمامًا..

يوجه له الشرطي "ماكدونالد" لكمة رابعة ثم يقلب جسده على وجهه، ويضع الأغلال في معصمه..

- لك الحق في التزام الصمت.. أي شيء تقوله سيُستخدم ضدك في المحكمة..





22 نوفمبر..

PM 2:30

مقر شرطه "دالاس"..

تكساس..

تقترب ببصرك من ذاك المشهد الذي تراه في غرفه الاستجوابات بمقر الشرطة..

هذان الشخصان يجلسان في مواجهة بعضهما.. أحدهما ضابط شرطة يرتدي ملابس مدنية ويعلق مسدسًا كبيرًا تحت إبطه، والآخر هو ذاك الشخص المريب.. تدور عيناك في المشهد قليلاً لتستوعب التفاصيل.. العرق على وجه ذلك الشخص المريب.. نظرات ذلك الضابط.. نظرات الشخص المريب المرتبكة.. حركات يديه العصبية داخل الأغلال على المائدة التي تفصل بينهما.. نظر له الضابط للحظة، ثم أخرج علبة سجائره، والتقط منها واحدة وهو ينظر إليه.. يبتلع ذلك الشخص لعابه..

"تشيك" "صوت إشعال قداحة السجائر"

يُشعل الضابط السيجارة وينفخ دخانها في وجه المتهم..

- "لي هارفي أوزوالد".. أنا الكابتن "فريتز" من قسم جرائم القتل والسرقة..

ينفخ دخان السجائر من جديد في وجهه..

- أنت مُتهمٌ بقتل الضابط "ج. د. تيبيت" أثناء تأدية واجبه، وباغتيال الرئيس الأمريكي "جون فيتزجيرالد كينيدي".. ما أقوالك؟

ينفخ دخان السجائر من جديد..

العرق على وجه الشخص المُريب الذى عرفنا أن اسمه "لي أوزوالد"..

- لا أعرف أي شيء عن هذا، ولا أعرف عن ماذا تتحدث..

نظر له الكابتن "فريتز" وهو ينفث دخان السجائر.. كان الكابتن "فريتز" من أشد المعجبين بقوة وصلابة الرئيس "كينيدي"، ومواقفه السياسية المسالمة، بغض النظر طبعًا عن احتلال خليج الخنازير الفاشل في "كوبا".. كان يشعر أن يدًا خفية هي من دفعت بهذا، لأنه كان مٌخالفًا لما كان يعتاده من سياسة "كينيدي".. فقد كان يرى بعينيه وقوفه في صف "فيدل كاسترو" أثناء الثورة الكوبية، برغم العلاقة المتفجرة بين الحكومة الأمريكية والكوبية، ومحاولاته - "كينيدى" - السرية لإنهاء التدخل الأمريكي في "فييتنام"..

والآن هو جثة.. وقاتله يجلس الآن أمامه ويقول له بكل وقاحة أنه لا يعرف عن ماذا يتحدث.. ينظر له نظرة عجيبة وهو ينفث دخان السجائر في وجهه، فيبتلع "أوزوالد" ريقه في عصبية..

- أعتقد أنني أريد توكيل محامٍ خاص لي.. أنتم تضطهدونني لأنني سافرت

إلى الاتحاد السوفييتي منذ فترة.. هذا اضطهادٌ واضحٌ لمواطن أمريكي يمتلك حقوقه القانونية، وأكرر أنني لا أعرف عن ماذا تتحدث..

ما زال ينظر له نفس النظرة العجيبة.. وينفث دخان السجائر.. ثم يمُد يده إلى تحت إبطه.. يستل مسدسه..

"أوزوالد" يبتلع ريقه وينظر له في توتر..

ينهض الكابتن "فريتز" من مقعده ومسدسه في يده..

يقترب منه.. يستدير خلف المائدة، يقف خلف "أوزوالد" تمامًا..

ينحني على أذنه..

- اسمعني جيدًا يا قطعة الروث.. أنا وأنت نعرف أنك من أطلق عليه النار.. وأعدك أنني لن أدعك تخرج من هنا إلا باعتراف تفصيلي أو في كيس بلاستيكي أسود..

يستدير حول المائدة.. يعود لمقعده بهدوء..

يضع مسدسه بعنف على المائدة أمام "أوزوالد" مصوبًا فوهته إليه..

يشعل سيجارة أخرى.. ينفث دخانها..

- والآن.. لنتحدث كالرجال..

يميل نحوه على المائدة..

- ما أقوالك؟

وهناك، خارج غرفه الاستجوابات وخلف المرآة العاكسة، يقف هؤلاء الضباط يتابعون الاستجواب..

أحدهما يقول للآخر:

- إنه مرعب.. لا أتمنى أن أكون مكان ذلك الوغد..

الآخر يتابع الاستجواب في اهتمام، ويغمغم:

- ولا أنا..

وفي الداخل، يضرب الكابتن "فريتز" بقبضته على المنضدة وهو يقول شيئًا ما لـ "أوزوالد"..

"أوزوالد" ينظر له في توتر، وتتحرك شفتاه مُرددة عبارةً ما.. نقترب نحن حتى نسمعه بوضوح..

- أريد أن أتحدث إلى مسئول من الـ "إف بي أي" والـ "سي آي إيه"..

نظر له الكابتن "فريتز" في دهشة وهو يكرر:

- "سي أي إيه"؟ وما علاقتهم بالموضوع؟

- لن أتكلم إلا في وجود الـ "سي آي إيه" والـ "إف بي أي"..

مازال الكابتن "فريتز" يرمقه في دهشة ويقول شيئًا ما..

وهناك، خارج الحجرة حيث يتابع هؤلاء الضباط المشهد، يقول أحدهما للآخر:

- مهلاً.. هل قال الـ "سي آي إيه"؟

الآخر يقول:

- أعتقد ذلك..

يدوى صوت ذلك الصفير الكهربي من خارج الحجرة، وينفتح قفل الباب ليدخل منه هذان الشخصان..

ينظر لهما الضباط في حيرة وعدم فهم..

- من أنتما؟

يخرج كل واحد منهما شارته ليريها للضباط..

- "وارين دى برويز".. "إف بي أي"..

- "جون كويجلى".. "إف بي أي"..

ينظر لهما الضباط غير فاهمين..

- هذا الاستجواب سيُعقد بوجود الـ "إف بي أي"، وضباط الـ "سي أي أيه" والخدمة السرية في طريقهم..

- ولماذا كل هذا؟..

قالها أحد الضباط في حيرة، فنظر له "وارين" نظرة غريبة وهو يقول:

- هل تعتقد حقًا أن قضية تحوى مُتهمًا بقتل الرئيس الأمريكي يمكن أن يُترك الاستجواب فيها للشرطة المحلية؟

نظر له الضابط ولم يرد، فأكمل "وارين":

- لم أعتقد هذا أيضًا..

وفتح الباب، الذى يفصله عن حجرة الاستجوابات ليدخل إلى الحجرة..

- "وارين دي برويز".. "إف بي أي"..

نظر له الكابتن "فريتز" في دهشة قائلاً:

- ماذا تفعلون هنا؟

رد عليه "جون":

- هذا الاستجواب سيُعقد بواسطة الـ "إف بي أي" والـ "سي آي إيه" والخدمة السرية..

- ولماذا؟

أشعل "وارين" سيجارة وهو يجذب مقعدًا ليجلس، ثم قال:

- لضمان جودة التحقيقات ليس أكثر..

نظر له "فريتز" ثم نظر إلى "جون" ليرى ابتسامته الصفراء، فأدار وجهه إلى "أوزوالد"..

ولم تفُتْه ملاحظة تلك النظرة التي يوجهها إلى "وارين دي برويز"..

هذان الرجلان يعرفان بعضهما.. حتمًا..

* * *

"نتيجة تحليل البرافين للمتهم "لي هارفي أوزوالد" مساء 22 نوفمبر 1963"

"هذا التحليل يهدف من خلال وسائل كيميائية إلى معرفة ما إذا كان المتهم قد أطلق الرصاص من سلاح ناري قريبًا أم لا"

النتيجة:

اليدان: إيجابي

الخد الأيمن: سلبي

"بناءً على تلك النتائج، لا تستطيع لجنة "وارين" اعتماد نتيجة التحليل؛ لعدم كفاية دقتها، ويجب استكمال التحقيقات بطرق أخرى"

* * *

23 نوفمبر..

دالاس.. تكساس..

سجن المدينة..

PM 7:28

ألقِ معي نظرة بداخل زنزانة "أوزوالد"، ولنرقب معًا ما يدور بالداخل..

لا شيء في الواقع.. يرقد "أوزوالد" على السرير واضعًا ساعده على عينيه، يهز قدمه في عصبية كأنه ينتظر شيئًا.. ظل الحال على ماهو عليه قرابه العشر دقائق، حتى سمع صوت تلك الخطوات التي تقترب من الزنزانة..

نهض من مكانه في عصبية ليجلس على طرف السرير المتسخ وهو ينظر إلى نافذة باب الزنزانة منتظرًا..

"كليك كلانج"

"صوت قفل باب الزنزانة ينفتح"

- استيقظ واشرق يا بن العاهرة، لديك زائر..

"ينفتح الباب بصرير مميز"

يدلف ذلك الشخص إلى داخل الزنزانة.. العميل "جون كويجلي" من ال "إف بي أي"..

"ينغلق باب الزنزانة بقوة"

نظر إليه "أوزوالد" للحظة ثم قال:

- ما الذى أخرّك هكذا؟

- أُنظفُ قذارتك أيها الأحمق.. لا تتكلم..

صمت "أوزوالد" وهو ينظر له متسائلاً، بينما أخرج "جون" من جيبه ذلك الجهاز الصغير.. ضغط جزءًا فيه وأخذ يديره حوله، حتى دوى صوت صفير خافت متقطع.. ابتسم وهو ينحني خلف مرحاض الزنزانة، ويمد يده باحثًا عن شيء ما..

- ماذا تفعل؟

قالها "أوزوالد" متسائلاً، ولكن "جون" لم يرد.. استغرق فيما يفعله لثوانٍ، قبل أن ينهض ويده تحمل ذلك الجهاز الأسود شديد الصغر في ظفر..

- ما هذا؟

- هذه بقه "Bug"

ألقى الجهاز أرضًا ثم سحقه بحذائه بقوة..

- جهاز تصنت؟

- نعم..

- ومن وضعه؟

نظر له "جون" وهو يجلس على طرف السرير جواره ..

- لا أدرى.. لا يمكنك أن تكون شديد الحذر هذه الأيام..

أخرج "جون" علبة سجائره من جيب معطفه ليشعل سيجارة، ثم ناول أخرى لـ "أوزوالد"..

"تشيك"

"صوت اشتعال قداحة السجائر"

نفث "جون" الدخان في رفق ثم قال:

- ماذا قلتَ قبل أن نأتي أنا و"دي برويز"؟

نظر له "أوزوالد" شذرًا ثم قال في عصبية:

- لم أقلْ شيئًا بالطبع.. من تظنني؟

رمقه "جون" بنظرة طويلة ولم يتكلم، فأردف "أوزوالد":

- اسمعْ.. أنتم وعدتموني بأنني لن أقضي وقتًا في السجن، كان هذا اتفاقنا.. فما الذي حدث لذاك؟

نهض "جون" من على السرير قائلاً:

- نعم.. ولكن ذلك كان في حالة ما لو تم القبض عليك بجريمة عادية.. لقد تم القبض عليك بتهمة قتل "كينيدي" نفسه.. من المستحيل أن تبتعد

عنك الأنظار الآن..

- والعمل؟

نفث "جون" دخان السيجارة:

- يجب أن يتم تدبير مقتلك..

نظر له "أوزوالد" لحظة، ثم قال بصوت خانته نبراته؛ فبدا مرتجفًا:

- ماذا؟

- كُف عن الارتعاد هكذا، لو أردنا قتلك، لكنتَ ميتًا منذ تم القبض عليك.. أنا أتحدث عن تزييف مصرعك أمام الكاميرات والإعلام لإبعادك تمامًا عن الصورة؛ حتى يتم تسهيل نقلك..

- كيف؟

نظر له "جون" لحظة، ثم ألقى السيجارة على الأرض وسحقها بحذائه، وزفر زفرة قصيرة قائلاً:

- اسمع.. لا توجد طريقة سهلة لقول هذا، لذلك سأقوله وحسب..

وصمت لحظة تعلقت أنظار "أوزوالد" فيها بوجهه..

- يجب أن نطلق عليك النار..

ساد الصمت بعدها لوهلة..

- أنت تمزح.. أعنى أن هذه بالتأكيد مزحة.. أنت تعبث معي، أليس كذلك؟

ظل "جون" ينظر إليه ولم يرد..

- يا إلهي..

- ماذا قلت؟

تدارك "أوزوالد" نفسه بسرعة..

- أقصد بحق ملك النور والظلام.. ما الذى تفكر فيه؟

نظر له "جون" نظرة جمدت الدم في عروقه، ثم انحنى نحوه ليهمس في أذنه:

- غلطة أخرى مثل هذه وستعرف أن هناك أشياء أسوأ من مُجرد رصاصة في الصدر..

- لم أقصد هذا، إنه مجرد تعبير..

نظر له "جون" في سخرية..

- تعبير؟!.. يبدو على كلامك أنك لم تتعلم شيئًا من قبل.. وتُريد أن تكون من فرسان "التنظيم".. أليس هذا مضحكًا..

- دعنا من هذا وأخبرني ما صنيعنا..

- عندما يتم نقلك من هنا إلى سجن المقاطعة، واحد من رجالنا المتخفيين سيطلق عليك النار فجأة أمام الكاميرات والمصورين والصحفيين.. بعدها ستدخل في حاله صدمة ويتم نقلك إلى المستشفى بين الحياة والموت،

وعندها سنتسلم نحن الأمور..

- وماذا لو متّ؟

نظر له "جون" لحظة ثم مد يده في جيبه ليخرج قنينة صغيرة كريستالية مزخرفة، تحوى سائلاً أسود غريب الشكل..

- المياه السوداء؟.. ولكن هذا يعنى..

قاطعه "جون"..

- بالضبط..

نزع غطاء القنينة وفتحها، ثم أدناها من شفتي "أوزوالد" ليتجرع منها رشفة، مرددًا:

- أهلاً بك واحدًا منّا، ومرحبًا بك بيننا.. تتغنى بأفكارنا وتتحدث بلساننا.. أنت لنا، ونحن لك..

وصمت لحظة، ثم أردف:

- مرحبًا بك في "التنظيم"..

* * *

24 نوفمبر..

أمام مقر شرطة دالاس..

تكساس..

AM 11:21

يخطف ذاك الحشدُ الواقف من رجال الشرطة والمحققين، الذين يرتدون البذلات السوداء والقبعات بصرَك، وتحاول التركيز أكثر، لكنهم يغطون على المشهد؛ فلا ترى جيدًا، كأنهم يتحدثون إلى شخصٍ ما..

تسطع عدسات التصوير في كل ثانية..

أصوات الصحفيين وآلات التصوير تغطي على كل الأصوات..

رجال الشرطة يفسحون الطريق ويدفعون الصحفيين إلى الخلف ليفتحوا ممرًا..

ومن وسط كل هؤلاء يعبر هؤلاء الثلاثة..

ضابطان يمسكان متهمًا من ذراعيه ويقتادونه نحو سيارة الشرطة..

طبعا هذان الضابطان اللذان يرتديان ملابس مدنية هم المحققان "جيم ليفيل" و"ل. س. جريفز"..

تقترب أكثر لترى المتهم بوضوح.. "لي هارفي أوزوالد"..

تلحظ نظرة الترقب على عينيه، ممتزجة بالخوف..

أم هو الإستسلام؟

لا تدرى.. كل ما تعرفه هو أنها نظرة فأر واقع في مصيدة، ويعرف أن موته مسألة وقت لا أكثر..

وفجأة، وسط كل هذا الحشد، تتباطأ سرعة استيعابك لما يحدث أمامك لينتقل لك بوضوح مشهد ذلك الرجل الممتلئ قليلاً الذى يرتدي بذلة سوداء وقبعة فاتحة اللون..

ترقبه يتقدم بسرعة نحو المحققين والمتهم..

يقترب.. يدخل إلى مجال إبصارهم..

أعينهم تتجه إليه في تساؤل.. أحد الضباط الواقفين يلتفت إليه، ولكنه لا يتوقف..

يقترب أكثر.. يقترب من "أوزوالد"..

ثم ينفجر الجحيم في المكان مع دوي صوت الرصاصة..

رصاصة واحدة، موجهة نحو صدر "أوزوالد" بالضبط..

تهاوى "أوزوالد" كالبالون المثقوب بين أذرع رجال الشرطة والمحققين بينما انقض حوالي خمسة على ذاك الرجل الممتلئ ليقيدوه..

أصوات صرخات..

أناس تجرى..

عدسات التصوير تسطع على المشهد..

أصوات المحررون والمذيعون تتكلم في الخلفية..

رجال الشرطة يقيدون ذلك الممتلئ الذى لا يبدي أثار مقاومة.. ينتزعون منه السلاح.. يثبتونه أرضًا..

أصوات سرينة سيارة الإسعاف..

هرج ومرج..

ووسط كل هذا، تبتعد أنت بمنظورك إلى الخلف تدريجيًا..

تبتعد حتى تدرك أنك في الواقع كنت ترقب كل ذاك المشهد عبر شاشة جهاز تليفزيون قديم، يقف أمامه شخص ما..

لا ترى منه إلا ظهره غير واضح المعالم، ولكن ما تراه لا يبعث على الارتياح..

يمد ذلك الشخص يده..

يطفئ التلفاز..

يستدير ليخرج من كادر أنظارك..

ثم يسود المشهد أمامك ليسود الظلام..

* * *

"بث الإذاعة والتليفزيون الأمريكي"

"صوت رئيس الشرطة "جيسي كيري" يتكلم"

"تُعلن الشرطة ومصلحة الطب الشرعي رسميًا عن وفاة "لي هارفي أوزوالد" برصاصة في الصدر أُطلقَت عليه من قبل المتهم "جاك روبي" أدت إلى وفاته.."

* * *

"جزء من تقرير الطبيب الشرعي لمقاطعه دالاس عن تشريح جثة "لي هارفي أوزوالد"، الذى أُجرِي الساعة الثالثة إلا الربع بعد الظهر صباح الأحد 24 نوفمبر"

"حدثت الوفاه في تمام الساعة الواحدة وسبع دقائق نتيجة لنزيف ثانوي ناتج عن جرح طلقة رصاص في الصدر.."

* * *

"كلام المتهم "جاك روبي" للصحافة الأمريكية عن إطلاقه النار على "أوزوالد" المتهم الرئيسي في قتل الرئيس".

"قد كنتُ مذهولاً بعد عملية الاغتيال الحقيرة التي أودت بحياة الرئيس "كينيدي"، وكنت أعتقد أن قتل "أوزوالد" سيوفر على السيدة "كينيدي" مشقة وعذاب الذهاب إلى المحاكمة.."

* * *

"جزء من تقرير لجنه "وارين" الرسمي عن اغتيال الرئيس "كينيدي" والمتهم الأول "لي هارفي أوزوالد" الذى نُشِر للعامة أول مرة يوم 24 سبتمبر 1964"

"لجنة "وارين" هي لجنة أنشأها الرئيس الأمريكي "ليندون. ب. جونسون" يوم 29 نوفمبر سنة 1963، للتحقيق في قضية الاغتيال"

"المتهم "لي هارفي أوزوالد" تحرك وحده بدوافعه الشخصية لاغتيال الرئيس "كينيدي" وجرح الحاكم "كونيللي"، والمتهم "جاك روبي" أيضًا تحرك بدوافع شخصية لقتل "أوزوالد"، ولم يكُن هناك أي تواصل بين الإثنين، ولا توجد علاقة بين الحدثين.."

* * *



- 2 -

الثلاثاء 25 يناير

2011

التحرير - القاهرة

PM 3:07

تستيقظ.. تفتح عينيك.. ترقب السقف قليلاً.. ظلامٌ يحدق إليك.. لا شيء.. وظلام لا يبدده إلا خصيلات الضوء الخافت القادمة من بين فرجات النافذة.. تنظر إلى الساعة المضيئة بجوار فراشك.. الثالثة عصرًا.. لديك عملٌ فاتك ميعاده منذ زمنٍ، وأنت مستغرقٌ في النوم كصخرة.. غضب.. غضب عارم يستولي عليك..

لماذا لم توقظني.. تلك الحقيرة..

تنهض من فراشك.. تُزيح الأغطية.. تشغّل النور.. تفتح باب الغرفة.. تخرج إلى الصالة.. أين هي؟.. أين هي؟..

تنظر حولك.. في كل مكان.. الشرفة.. إنها واقفة هنالك.. بالداخل..

- ألم أطلب منك أن توقظيني؟

لا تلتفت إليك.. لا يبدو عليها حتى أنها تسمعك.. منهمكة تمامًا في النظر

عبر السور إلى ما يدور في الشارع..

تتقدم إليها.. تدخل الشرفة.. شيءٌ ما غير طبيعي.. تهم بالكلام عندما تنظر فجأة إلى ميدان التحرير بالأسفل، فتصمت تمامًا.. ما الذى يحدث؟.. أناسٌ واقفون في تجمع ضيق ويبدو منظرهم أشبه بمظاهرة صغيرة.. ليسوا كثيرين وليسوا أقلاء، ولكن المشهد لا يبعث على الراحة.. شيءٌ ما جلل ينتظر أن يحدث..

- ما هذا؟

تنظر إليك.. تتطلع قلقة، ولكنك لا تبالى..

- لم أوقظك بسبب ما تراه أمامك.. لا أعرف ماذا يحدث.. التليفزيون لا ينقل أي أخبار عن هذا..

تنظر لها في صمت، ثم تُدير عينيك إلى الأسفل.. لا تهتم.. كففت عن الاهتمام منذ زمن بعيد..

- لا يهم.. سأذهب إلى العمل..

تمد يدها لتمسكك من ملابسك في قوة..

- لا يا ولدى.. أرجوك.. لا يبدو الوضع مُطمئنًا..

تزيح يدها في عنف..

- وما شأنكِ أنتِ؟.. طلبت منكِ أن توقظيني.. قلتُ لك شيئًا واحدًا لتفعليه و..

تقطع كلامك من منتصفه.. وما الفائدة؟.. لا تبالي.. لا تهتم..

كففت عن الاهتمام منذ زمن بعيد..

تنهمر دموعها وأنت تخرج من الشرفة.. تخرج خلفك.. تحاول أن تُثنيك عن الخروج..

- "عمر".. "عمر".. أرجوك يا بني، اسمعني.. نحن لا ندري ما سيحدث.. لو نزلت إلى الشارع الآن، سأموت قلقًا عليك..

تبتسم في سخرية.. ولمَ لا تموتين إذا؟.. سيريحني هذا بالتأكيد..

لا ترد، وتبدأ في تغيير ملابسك، بينما تنظر هي إليك باكية.. تعرف أنها لن تستطيع إثناءك عن قرارك.. لا تدرى لماذا تكرهها.. وكأنك تعاقبها على شيء ما.. شيء لا تدري ما هو، ولا تدري متى فعلته ولماذا..

ربما أنت تكرهها لأنها جاءت بك للحياة وحسب.. تكرهها؛ لأنها ظنت أنه من حقها أن تحظى بطفل تعلم جيدًا أنها لن تستطيع رعايته..

ووالدك؟.. أين والدك؟..

لا تدري.. ولماذا تهتم؟.. ألم يتركك أنت وهي ككلبين لقيطين ويذهب بلا تفسير؟.. لماذا قرر أن يحظى بطفل إذًا؟.. هل كان يظن أنك لعبة؟.. هدية من ذلك الرب الذين يتحدثون عنه يتسلى بها قليلاً، ثم يلقيها في أقرب سلة قمامة بعد أن يفرغ منها؟.. ربما هو في حفرةٍ ما أو قبرٍ نتن.. لماذا تبالي؟.. قد كففت عن الاهتمام منذ زمن بعيد...

تلك اللامبالاة هي وسيلتك الدفاعية.. لو كنت تهتم لجُنِنتَ منذ فترة.. أنت مجنون حقًا، لو ظننت أنه بإمكانك الحياة حرًا عزيزًا وذا كرامة في ذلك الوطن ومع ذاك الشعب.. إذًا فلماذا تهتم؟..

ترتدي ملابسك في صمت، وهي تراقبك والدموع تنهمر من عينيها لوعةً وقهرًا.. تلك الحمقاء.. ماذا ستطعمك لو لم تذهب أنت للعمل، وطُرِدت وفقدت مصدر الدخل الوحيد الذى تعيش أنت وهي منه؟.. حبها وحنانها؟.. ربما دموعها، فالأمهات شديدات البراعة في هذه الأشياء..

تخرج من الغرفة، تُزيحها عن طريقك برفق.. برغم كل شيء، وكل ما تحاول أن تقنع نفسك به، أنت لا تكرهها فعلاً.. فقط هي جاءت بالابن الخطأ في الظروف الخطأ والزمن الخطأ.. والآن واجبٌ على ذاك الابن أن يتحملها ويتحمل مسئولية نفسه؛ لأن والده الوغد هجرهما منذ الصِغر..

ترتدي الحذاء.. لم تكُن دوما كذا، بل - صدقْ أو لا تصدقْ - كنت يومًا ما متفائلاً.. مبتسمًا، وكان من يُجالسك يشعر باستمتاع لا حدود له.. حتى مضى بك الزمن.. وتفتحت عيناك على الحقيقة شيئًا فشيئًا.. تفتحت عيناك على البلد الذى تسكنه والشعب الذي تشاركه العيش.. ولماذا لا تهاجر؟.. الهجرة حل مقنع دومًا..

صدقني.. الشاب الذى يعيش في هذا البلد ويرضى: هو شابٌ لم يجد فرصة للهجرة، أو وجدها وينتظر، أو هو ببساطة أحمق.. فأيهم أنت؟.. لا تدري.. لا تهتم.. فقد كففت عن الاهتمام منذ زمن بعيد..

تنهض من مكانك، تنظر إلى أمك الباكية، للحظة يراودك شعور بالحنان، كأنك تريد أن تضمها إلى صدرك.. ينمحي الشعور بسرعة.. لا تهتم..

- على الأقل اتصلْ بي، دعني أطمأن عليك..

تقولها إليك راجية، فتومئ برأسك إيجابًا بلا اكتراث، ثم تلتقط المفتاح وتتجه إلى الباب..

تفتحه.. تخرج.. تغلقه خلفك..

تهبط على الدرج.. أربعة طوابق تفصلك عن الشارع، تهبطهم وأنت لا تفكر في أي شيء..

سواد.. سواد عارم يحتل عقلك.. لا طموح.. لا هدف.. لا أحد تريد مشاركته الحياة.. لا أحد تحبه.. لا أحد يحبك.. لا أحد يهتم.. لا أحد يكترث.. لا أحد يعبأ بك.. لا تذكر كم من الوقت مضى عليك وأنت هكذا، فقد كففت عن التذكر.. الذكريات لا قيمة لها..

تخرج إلى الشارع.. كيف ستذهب إلى عملك؟.. الساعة الثالثة عصرًا ولا مواصلات هنالك.. دعك من هؤلاء الحمقى الذين يفترشون الأرصفة ويضعون أرجلهم في كل متر مربع من الميدان..

لماذا كل هذا؟.. ما الذى يفعلونه بالضبط؟

تتجه إلى أحدهم.. تسأله..

- ما الذى يحدث هنا بالضبط؟

ينظر لك كما لو أنك نسيت ارتداء سروالك.. دهشة لا حدود لها، ثم يرد:

- هل كنت تعيش تحت حجر؟.. نحن هنا من أجل الاعتصام..

تبتلع الإهانة وتسأله:

- أي اعتصام؟

- اعتصام المطالبة بعزل وزير الداخلية وتغيير الحكومة.. عيش وحرية وعدالة اجتماعية، ذاك هو الشعار.. ألم تسمع عن "خالد سعيد" وكنيسة القديسين؟

تنظر له في دهشة.. لا تدرى عمّا يتحدث بالضبط.. ربما كنت تعيش تحت حجر أو في بالوعة فعلاً، ليست لديك أية فكرة عمّا يتكلم عنه.. كنتَ تتابع السياسة منذ فترة، ولكنك لم تعتد تهتم بها، كما لم تعد تهتم بأي شيء آخر.. حتى يمكنك أن تهتم بالسياسة، يجب أولاً أن يكون لديك وطن.. بلدٌ يهتم بك ويقدرك، بلدٌ يوفر لك أبسط حقوقك في الحياة كأي بلدٍ في العالم..

يلحظ هو الحيرة على وجهك، فيواصل الكلام هاتفًا، حتى يغطي صوته على صوت الضوضاء والهتافات القادمة من كل مكان حوله:

- حتى لو كنتَ لا تدرى عمّا أتحدث، لا أعتقد أنك واقعٌ في حب النظام.. أليس كذلك؟.. أليس هؤلاء هم من أوصلونا لما نحن فيه الآن؟.. أليس هؤلاء هم من خطفوا، وعذّبوا، وفجروا، وكذبوا، وضلّلوا، وسرقوا؟.. أليس

هؤلاء هم سبب دمار ذلك البلد الذى تعتقد أنك تكرهه الآن وتكره شعبه؟..

غريبٌ هذا.. كأنه يصف ما تشعر به بالضبط..

– صدقني.. أنا أفهم ما تحس به.. كلنا كنا مثلك.. حتى بلغ الأمر منتهاه، ولم نعد نستطع السكوت.. بعد كل شيء، ما الذى يمكن أن يحدث أسوأ مما يحدث الآن؟.. نحن نُسرَق، ونُعذَب، ونُخطَف، ونُخدَع منذ ثلاثين عامًا، فما الذي تغير؟.. ربما نقدر في هذه المرة على إحداث فارقٍ ما..

يمد يده إلى كتفك.. يربت عليه..

– ربما أنت تستطيع إحداث فرق.. صدقني.. ليست المشكلة في هذا البلد.. المشكلة في من يحكمونه.. هؤلاء الذين ما أن يحظوا بمنصب ما، حتى يُصابوا بسعار الثروة والسلطة، ويظنون أنهم في مصاف الآلهة.. لا يُمكِن أن يخطِئوا، ولو أخطئوا، فلا يُمكن أن يُحاسَبوا.. فقط لأنهم السادة.. يكلمونك دائمًا عن مصر وحب مصر، والانتماء لشمسها ونيلها وأرضها، وهم يسرقونها وينهبونها، ويرهبون ويعذبون شعبها بلا هوادة، ولا يظهر عليهم شيء إلا ضخامة كروشهم التي تزداد يومًا بعد يوم.. من الطبيعي جدًا أن يتغنوا بحبها، فشمسها في سمارهم، ونيلها وأرضها في ملامحهم، وكروشهم فعلاً، ولست أنت ومن شابهك، إلا بعض الدجاج الذى يتصارع على فتات القمح المُدَعَم الذي يلقونه لك كل فترة.. ليست هذه حياة آدمية، ولم تكُن كذلك منذ زمن..

كلامه يلمس شيئًا ما في داخلك.. يدغدغ في أعماقك شعورًا ما، شعورٌ لا

تقدر على وصفه، ولكنك تشعر به لأول مرة.. لا.. ليست الرهبة، بل هو على النقيض تمامًا..

تفتَح فمك أخيرًا.. تتكلم..

- وكيف نظمتم كل هذا؟.. ما الذى يجعلك تعتقد أن أحدًا سيأتي؟..

- مواقع التواصل الاجتماعي يا صديقي.. بدأ كل شيء عليها.. تلك الصفحة، كلنا "خالد سعيد"، وحركة 6 إبريل، وكفاية، والجمعية الوطنية للتغيير.. الدعوة بدأت من هناك.. جميعهم قادمون.. ثِقّ بي..

تصمت.. تدير بصرك في الشباب المتزايد المتوافد من كل مكان، ليملأ الميدان ويضع أقدامه في كل ركن..

- كل شيء سيبدأ اليوم.. ولن يكون سهلاً.. سيموت الكثيرون، أعرف هذا وأوقن منه.. ربما هو أنا أو أنت لو قررت البقاء.. لا أدرى قطعًا.. فقط لو كُتِب لي أن أموت وأنا أطالِب بحُريتي وحرية أطفالي وأبسط حقوقهم في الحياة، فذاك شرف.. ولو سألتني، فهو أكثر واقعية وتأثيرًا من أي شيء في هذه المسرحية القذرة التي نعيشها كل يوم..

يقولها ويستدير ذاهبًا إلى ما كان يفعله.. وأنت تقف مكانك، تحركك أمواج الناس الآتين من كل صوب.. لا تدري ماذا تصنع..

تفكر في كلامه.. هل هذا هو الحل فعلاً؟.. بعض المظاهرات والطلبات؟.. وهل حقًا يعتقدون أن هذه الحكومة، أو ذاك النظام أو الرئيس سيتنازل

وينفذ لهم ما يريدون؟.. لابد أنهم مخابيل.. لو أنك كُنتَ رئيسًا، أو وزيرًا، أو حاكمًا، أو أي شخص لديه سلطة، ونفوذ، ومال، وقصور، وممتلكات تملَّكَها بالفساد والرشوة والنفاق، وجاهدت وكافحت بعرق نفاقك وتذللك؛ حتى تصل أنت وأولادك إلى ما أنت فيه، وفي يوم جاءك بعض الشباب الأحمق يلوّح لك بعلم، ويطالبك بالتخلي عن كل هذا، والتخلي عن المستقبل الذي اغتصبته لهم باسم الحرية والعدل والمساواة، فمن الطبيعي أن يكون أول شيء تفعله هو تحطيم هذا العلم على رؤوس هؤلاء الشباب، ووضْع ما تبقى منه في مؤخراتِهِم.. ولن يُحاسِبَك أحد، لأنك فوق القانون.. لأنك إله.. لأن أحدًا لم يحاسبك من قبل، ولا تعتقد أن أحدًا سيحاسبك بعد أن تموت.. هذه حقيقة واقعة لا يُمكن إنكارها، ومن الحمق أن تنكر أنك تعرفها..

إذًا ما الذى تغير هذه المرة؟.. لماذا يعتقدون أن هذه المرة ستُغير كل شيء؟

تنظر إلى وجوههم الكالحة، إلى شعورهم الشائبة منذ صغرهم..

ما تغير هو ذاك الإحساس.. ذلك الشعور الذى تشعر أنت به منذ فترة الآن.. شعور اللامبالاة.. شعور أنك كففت عن الاهتمام منذ زمن بعيد.. ذاك الشعور تحديدًا هو ما يجعل شخصًا ما يواجه رصاصة أو قنبلة بلا خوف، فما الذى يمكن أن يسلبوه منه؟.. حياته؟.. لكى يسلب منك أحدٌ حياتك لابد أن تكون لديك حياة من الأصل..

تنظر إلى وجوههم الكالحة.. إلى النظرة التي تطل من أعينهم.. نظرة من رأى في سنواته القليلة ما لم يرَهُ من عاش عمرًا كاملاً..

وحدك؟.. أنت حقير.. منبوذ.. لا صوت ولا أهمية لك إلا فوق واحدة أخرى بائسة مثلك، تمارس فطرتك الطبيعية التي يمارسها أي قط في زقاق، لتأتي للعالم بالمزيد من الكالحين الواجمين الذين يملؤون كل مكان حولك، ولربما تخليت عنهم وذهبت إلى غير رجعة كما فعل أبوك.. وحتى هذا الحق الفطري حرموك منه..

ولكن معًا؟.. أنتم قوة.. موجة من الغضب تدهس أي شيء في طريقها.. ماردٌ تحرر من سجن طويل، ولم يعُد يقدِر شيء على إيقافه..

يتجه إليك مجددًا.. يعلو بصوته فوق صوت الهتاف ويسألك..

- هل ستبقى؟

تنظر إليه في صمت.. تومئ برأسك إيجابًا بدون أن تشعر..

لربما كان هذا هو الحل..

* * *

الثلاثاء 25 يناير

2011

التحرير - القاهرة

PM 9:25

"صوت المذيع على جهاز الراديو يدوي مغلفًا بالضوضاء الإستاتيكية"

أنباءٌ وردتنا عن سقوط أول مصاب في ميدان الأربعين بالسويس، ويتم نقله الآن في حالة حرجة إلى المستشفى..

يرتفع بِكَ المشهد إلى الأعلى لينقل لنظرك ذاك الذى يحدث على الأرض هناك.. وسط الميدان..

"هتافات صارخة تدوي"

"الشعب.. يريد.. رحيل الحكومة.."

مشهد الشارع يغلي أمامك..

مشهد مهيب..

هتافات تتعالى حتى السماء..

جموع الناس المتجمهرة تغطي على مشهد ميدان التحرير تمامًا، فكأنما هو بحرٌ من البشر يرغي ويزبد.. قوات الشرطة تحاول فض المظاهرة بلا

جدوى..

اشتباكات تحدث بينهم وبين الشباب، ولكن الموقف مازال قيد الاحتواء..

يمُر الوقت..

تقترب ببصرك وسط جموع الناس نحو "عمر" وصديقه الجديد..

- سنعتصم هنا.. لن نرحل.. هل أنت باقٍ؟..

مشهد "عمر" وهو يومئ برأسه إيجابًا..

رنين الهاتف المحمول في جيبه..

يدس يده ليخرجه من جيبه بصعوبة، وينظر إلى الشاشة..

إنها والدته..

يضغط على زر رفض الاتصال..

* * *

الأربعاء 26 يناير

2011

ميدان التحرير - القاهرة

PM 1:09

"صوت المذيع على قناة الجزيرة"

وفاه أول شهيد بالسويس بعد نقله إلى المستشفى، والشيخ "حافظ سلامة" القائد التاريخي لقوات المقاومة الشعبية في حرب أكتوبر 1973 ينضم للثوار..

"هتافات تتعالى في الأفق كالرعد"

"الشعب.. يريد.. إسقاط النظام.."

"صوت اللواء "حبيب العادلي" وزير الداخلية فجر يوم الأربعاء 26 يناير"

"ابدأ فض المظاهرات والاعتصامات بكل صورها في كل أنحاء الجمهورية.."

تدور نظراتك حول تلك البناية الشاهقة لتدخل إلى ميدان التحرير، وتنقل لعينيك ما يدور في وسط الميدان..

هتافات.. هتافات تتعالى من الحناجر كالرعد، تُشعرك من قوتها بأنها تزلزل الأرض تحت الأقدام..

"الشعب.. يريد.. إسقاط النظام.."

قوات الشرطة تشتبك مع الثوار بمنتهى العنف.. العصى وقنابل الغاز والقنابل المسيلة للدموع تُقذف من كل صوب.. مدرعات الأمن المركزي..

خراطيم الماء البارد.. الموقف يفلت ببطء ويتحول إلى حرب شوارع..

بعض الشباب الذى لثم وجهه بقطع القماش ليتحاشى الغاز، ينحني ليمسك بالقنابل ويقذفها على الشرطة.. حجارة تُقذَف عليهم من كل صوب..

صوت طلقات يدوي من بعيد..

"الشعب.. يريد.. إسقاط النظام.."

* * *

"صوت المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية الإسرائيلية"

"نحن نراقب الأحداث بدقة شديدة.."

* * *

الخميس 27 يناير

2011

"الشاشة تنقل مشهد مريح للنيل المسالم، وتحت المشهد تمر بسرعة عناوين الأخبار المختصرة لما يحدث في جميع أنحاء الجمهورية"

"نلاحظ هنا مسميات الإعلام المُضلّل للثورة بالاحتجاجات، ونقل الأخبار من وجهة نظر مُعادية"

"استمرار الاحتجاجات في القاهرة وبعض مدن الجمهورية.."

"الدكتور "محمد البرادعي" يؤكد على انضمامه للاحتجاجات بعد عودته من النمسا، ويكرر أن الوقت قد حان لتقاعد الرئيس "مبارك".. "

"أعمال شغبٍ من المتظاهرين أمام قسم شرطة الأربعين بالسويس، أدت إلى اقتحام القسم وإشعال النار فيه وفي سيارات الأمن، وسط اشتباكات مع قوات الشرطة.."

"اعتقال الناشط "وائل غنيم" من قبل قوات الأمن.."

"البورصة المصرية تخسر 41 مليار جنيه، وهبوط المؤشر الرئيسي بنسبه 10.5 في المائة.."

* * *

تنقل لك عيناك ذاك المشهد الذى يحدث في مكتب وزير الداخلية..

اتصالات في كل ثانية.. أوراق على كل ركن في المكتب..

اتصال معين يأتي له على هاتفه المحمول، فيلمس بإصبعه رمز القبول، ثم يضع الهاتف على أذنه منصتًا..

- قد حان الوقت..

- هل تعني..

- نعم.. اعتمد القرار ونفذ..

يضغط رمز إنهاء المكالمة، ثم يلتقط سماعة الهاتف ليطلب نائبه..

- حان الوقت.. ابدأ تفعيل الخطة رقم 100.. واتصل لي بالرئيس..





28 **يناير "جمعه الغضب"** 2011

ميدان التحرير

القاهرة

PM 1:18

الكاميرا تنقل لك مشهد ميدان التحرير، بينما الأخبار تمر بسرعة في ذلك الشريط الأحمر بالأسفل..

"استمرار الاحتجاجات المُناهضة للنظام في القاهرة وبعض المدن.."

قوات الشرطة أمامك تشتبك مع الثوار..

صوت الرصاص المطاطي وطلقات الصوت يدوى في كل مكان، بينما قنابل الغاز المسيل للدموع تنهال فوق رؤوس الشباب، الذى يقذف قوات الشرطة والأمن المركزي بالحجارة والزجاجات الفارغة..

حرب شوارع حقيقية تدور، والقتلى والمصابون يتساقطون على الطرفين..

ويمر الوقت..

قوات الشرطة تعجز عن التعامل مع الموقف.. لم يروا مشهدًا كهذا من قبل.. كأن من يقف أمامهم هو مارد.. ماردٌ لا يُمكن إيقافه..

تتراجع المدرعات منسحبة من جسر قصر النيل ومن الميدان، بينما تنقل

لك بعض الكاميرات الفرعية المشاهد التي تدور في مناطق أخرى..

مقار الحزب الوطني في كل مكان تُقذَف بالحِجارة وقنابل المولوتوف.. والمَقر الرئيسي للحزب بكورنيش النيل يشتَعِل أمامك، ويملأ الدخان السَماء ممتزجًا بدخان قنابل الغاز..

صوت الهتافات يدوي في الخلفية ليزلزل أعماقك..

"فَرْض حظر التجوال في جميع أنحاء الجمهورية اعتبارًا من الساعة السادسة مساءً حتى السابعة صباحًا.."

مشهد اقتحام بوابات المتحف المصري يمتزج بصوت الهتافات في الخلفية، ليعطيك شعورًا لا يوصف..

هل هو الرهبة؟.. ربما هو الخوف..

تشعر أن الأمر قد بدأ يتحول إلى فوضى.. هؤلاء لا يُمكن أن يكونوا ثوارًا.. ولكن لو أنهم ليسوا الثوار، إذاً فمن هؤلاء الذين يدافعون عن المتحف ويحاولون إبعادهم عنه؟..

من هؤلاء الذين يتصدون لقوات الشرطة والأمن المركزي في الميدان؟..

لا يُمكن أن يكون هؤلاء هم نفس المُلثّمون الذين يشعلون النار أمامك في مدرعات قوات الدفاع المدني..

صوت الهتافات يمتزج بصوت تكسير البوابات الزجاجية لبازارات المتحف المصري..

"السلطات المصرية تفرض الإقامة الجبرية على الدكتور "محمد البرادعي" المدير العام الأسبق لوكالة الطاقة الذرية بالأمم المتحدة.."

الشهداء يسقطون، ويمتزجون بالمُخرّبين الغامضين والجرحى من قوات الأمن المركزي..

دماء..

دماء ودخان، طلقات وقنابل غاز في كل مكان..

شبح الفوضى يُخيم على المشهد..

"البورصة المصرية تخسر 68 مليار جنيه من قيمتها السوقية خلال أسبوع.."

الشرطة تتراجع.. تتراجع وتنسحب من الشوارع ويخلع بعض أفرادها الزي الرسمي؛ خوفًا من مطاردات الثوار والأهالي..

الخطة رقم 100 تبدأ..

* * *

- 3 -

إنه العام 1305 م..

لا تعرف أين يحدث هذا الذى تراه أمامك، ولا متى بالضبط، ولكنك تميزه هو.. صورة شديدة الشهرة بالطبع، وإن كان شكله في الحقيقة مختلفًا إلى حد ما.. لحية طويلة رمادية.. رأس أصلع.. قوة بدنية واضحة..

إنه "جاك دو مولاى".. قائد تنظيم "فرسان الهيكل" الشهير.. آخر قائد معروف له على وجه الخصوص.. القائد الذهبي كما يقولون.. القائد الذي رفع تنظيم "فرسان الهيكل" إلى أقوى عصر مر عليهم منذ نشأتهم، بعد انتخابه لقيادة التنظيم في العشرين من إبريل سنه 1292..

تنظر له مُدققًا وسط ضوء الشموع الذى يلقى الظلال المتراقصة على كل ركن في المكان..

ما هذا الذى يمسكه في يده؟.. إنه خطاب..

يبدو من الطريقة التى يحمله بها، ومن فخامته الواضحة أنه خطاب ملكي.. وإذا ما اقتربت بناظرك قليلاً، سيُمكنك أن ترى ذلك الختم الفخم عليه بوضوح.. ختم الفاتيكان..

اسم المُرسِل يتضح أمام عيناك.. البابا "كلمينت الخامس"..

ترى ما الذى يحويه الخطاب بالضبط؟.. لابد أنه شىء مهم بالتأكيد؛ نظراً

إلى التركيز الذى يقرأه به "دو مولاى"..

تقترب من عينيه وهو يقرأ، حتى لتوشك على سماع أفكاره تدوى بداخل جدران عقله في وضوح..

البابا يسأله المشورة والرأى بخصوص دمّج التنظيمات العسكرية الموجودة كلها تحت لواءٍ واحد.. وبخصوص حملة صليبية جديدة.. فماذا يظن؟..

دمّج التنظيمات تحت لواء واحد !.. يالها من مزحة.. هل يظن حقًا أنه بهذه السذاجة، وأن الأمر سيتم بهذه السهولة؟.. فرسان الهيكل لا يندمجون مع أحد.. فرسان الهيكل هم أقوى تنظيم عسكري وديني في أوروبا كلها.. بغض النظر عن الهزائم المُخجِلة التى تلقوها على أيدي الجيوش العربية..

التنظيمات العسكرية أقوى متفردةً.. إذا جمعتَها ضعفت، وإذا فرّقتَها تشعبت، وأصبحت القوة ذاتها.. هذا هو رأيه الذى لن يغيره قط..

ولكن حملة صليبية جديدة؟.. هذا مُغرٍ بالتأكيد.. إلا أنه يعرف في قرارة نفسه أنها ستفشل حتمًا كسابقاتها، لو لم تكن مجهزة..

حملة تتألف من جيوش وإمدادات ودول.. حملة غاشمة.. إذا لم تكن كذلك، فستفشل من جديد ويضحي الصليبيون والفاتيكان أضحوكة أكثر مما أصبحوا بالفعل.. كل ذاك ليس مهمًا على كل حال، فهناك ما هو أهم..

ينهي قراءة الخطاب ويضعه جانبًا، ثم يرفع ساقيه على ذاك المقعد أمامه، وهو يتراجع برأسه إلى الخلف..

يجب أن يرد على كل هذا.. كما أتفق معه بالضبط..

من هو؟.. هذا ليس موضوعنا..

مهمة شاقة حقًا هى مهمة الرد على الخطابات.. لم يكُف يومًا عن اعتبارها نوعًا من أساليب التعذيب الإغريقي.. صياغة الحروف، ووضعها في مواضعها والكتابة والإمضاء..

يزفر في حرارة..

يجب أن يبدأ الآن..

* * *

مالم يكن يعرفه وقتها "دو مولاى" ونعرفه نحن الآن جميعًا: هو أن البابا "كليمينت الخامس" كان أداةً في يد شخص أكثر نفوذًا..

الملك "فيليب الرابع".. ملك فرنسا بالطبع.. ولهذا قصة عجيبة للغاية..

بدأ الأمر منذ فترة طويلة، مع أطماح الملك "فيليب" الطاغية، والتي كانت تستحوذ على كل إنش من تفكيره..

كان يريد أن يجعل رجال الدين يدفعون الضرائب.. كوسيلة مبدئية لإخضاعهم جميعًا..

كان يريد أن يجعل سلطته أعلى سلطة في أوروبا.. أعلى حتى من سلطة "بونيفاس السابع" بابا الفاتيكان وقتها.. وهو ما لم يكن الأخير ليسمح به بالطبع، فهو البابا برغم كل شىء.. لم يكن ليتخلى عن سلطة دينية

وعسكرية أقوى من الأساطير بمثل هذه السهولة.. لذلك فقد حاول أن يفعل شيئًا ما.. حاول أن يفضح الملك "فيليب" ويطرده من حكم فرنسا، أو يدفع الشعب للانقلاب عليه..

كاد ينجح في هذا بالفعل، لولا أن تحرك "فيليب" أولاً.. أمر بعض رجاله بخطفه وإحضاره إليه، ثم وجه إليه تهمة الهرطقة التى كانوا يوجهونها إلى أي قط يعارض سياسة الملك وقتها.. ولكنه لم ينجح.. تم إنقاذ البابا "بونيفاس" على يد مجهولين لم يذكر التاريخ أسماءهم، ولكن القدر لم يمهله ومات بعدها بفترة وجيزة، ليخلفه البابا "بينيديكت الحادى عشر"..

لم يكن الأخير مُعمّرًا جدًا، فتوفى بعدها بحوالى سنة تقريبًا، في ظروف مجهوله.. تقول التقارير والأبحاث التاريخية بأنه سُمِم على يد "جيليم دو نوجاربيه" مستشار "فيليب".. ولكن الأمر لم يؤكد أبدًا..

المهم، جاء بعد ذلك "كليمينت الخامس" ليتولى منصب البابا.. لم يعرف التاريخ قط ما الذى كان الملك "فيليب" يضغط عليه به، ولكنه كان تابعًا.. كان رجله الأول..

نحن نعرف بالطبع.. كان الإثنان من رجال "التنظيم" الوليد.. وكان "فيليب" أعلى رتبة بحكم كونه ملكًا بالطبع..

ما هو "التنظيم"؟.. سنعرف فيما بعد.. ليس الآن..

أقول، كان "كليمينت" هو رجل "فيليب".. وكان الأخير بحكم توليه منصبًا قياديًا في "التنظيم" غريمًا لدودًا لتنظيم "فرسان الهيكل" الديني في

صورته القديمة بدون أن يفقه ذاك أحد.. كان يبدو طبيعيًا جدًا من السطح، وكانت تعاملاته ملكية راقية دومًا.. لم يكن أحد ليتخيل..

لم يكن هو نفسه ليتخيل..

كان يريد أن يساعد "التنظيم" الوليد على أن ينمو ويتشعب، وبالطبع لم يكن هذا ليتم بدون تمويل.. بدون نقود..

ومن يملك النقود إن لم يملكها "جاك دو مولاى"؟.. من أغنى من تنظيم "فرسان الهيكل"؟.. كان القدر يكتب بوضوح كملحمة إغريقية.. بدأ في الاستدانة من "فرسان الهيكل" حتى بلغت ديونه أرقامًا فلكية..

قرر بعدها "كليمينت" أن ينقل البابوية إلى "بواتييه" في فرنسا، بناءً على أوامر "فيليب".. ثم بدآ في تنفيذ خطتهما..

كان الأمر مبدئيًا يقتضي أن يضم الملك "فيليب" التنظيمات العسكرية – ومن ضمنها تنظيم "فرسان الهيكل" – بكل أموالها وغناها، وقواتها الحربية والعسكرية إلى بعضها في لواءٍ واحد يكون هو حاكمه.. كان يريد أن يطلق على نفسه لقب Rex Bellator اللاتينى..

لقب "الملك المحارب"..

مراده كان أن يصبح بهذا قائدًا لجيشٍ كامل من التنظيمات السرية، يضمهم بعدها جميعًا لـ "التنظيم" تحت امرته ويطلقهم ليتشعبوا في العالم أجمع، ويجعلوه المُسيطر الأوحد.. لم يكن مصدقًا حقيقيًا لفكر "التنظيم"، بل كان الأمر بالنسبة له أشبه بصفقة.. صفقة ستجعله حاكم العالم بأكمله..

أرسل البابا "كليمينت" بخطاب بعدها إلى "جاك دو مولاى" الذى رفض بالطبع كما نعرف جميعًا.. ليس الأمر بهذه السهولة، ولم يكن يتوقع "فيليب" أن يكون كذلك، ولكن كان واجبًا عليه المحاولة على أي حال.. أصبح "دو مولاى" بذلك شوكة في حلق خطة الملك "فيليب"..

وقتها كانت بعض الإشاعات – التى لم تكن عارية من الصحة – تتصاعد كالهمسات في الأفق عن كفر وإلحاد تنظيم "فرسان الهيكل"، فبدا الأمر كأنه مكتوب سلفًا.. كأن القدر ذاته يلعب في مصلحة "فيليب".. أو هكذا كان يظن..

وفي فجر يوم الثالث عشر من أكتوبر سنة 1307، بدأت حملة الاعتقالات..

كثيرون يعتقدون استنادًا إلى أبحاث تاريخية أن هذه الواقعة، وهذا التاريخ بالذات هو أصل أسطورة الجمعة الثالث عشر Friday The 13th ولكن دعونا من ذاك الآن..

ما حدث هو حملة اعتقالات واسعة لكل ضباط وجنود تنظيم "فرسان الهيكل" في فرنسا كلها.. بناءً على أوامر سرية أرسلها الملك "فيليب" إلى ضباطه، تم اعتقال "دو مولاى" وستون آخرون من رجاله..

كان "دو مولاى" هناك في باريس لأسباب ظاهرة وسبب خفي.. كان يتظاهر بأنه هناك من أجل جنازة الإمبراطورة "كاثرين" زوجه الكونت "تشارلز" أخو الملك "فيليب".. وكان بالفعل واحدًا من حَمَلة نعْشِها، والسبب الآخر هو أن البابا "كليمينت" قام في السادس من يونيو باستدعاء قادة تنظيم

"فرسان الهيكل" وفرسان "الأسبتاريه" للنقاش والاستشارة.. فوصل "دو مولاى" إلى فرنسا في نهاية سنة 1306.. وتم تأجيل الاجتماع بعدها لشهر مايو من 1307.. السبب الحقيقى لوجوده في باريس، هو أنه هو الآخر من رجال "التنظيم"!.. بدون أن يعرف "فيليب"!..

كيف؟.. هذا ما سنعرفه حالاً.. دعونا لا نستبق الأحداث..

بعد الاعتقال.. وجه الملك "فيليب" للفرسان تهمة الهرطقة.. نفس التهم التى وجهها للبابا "بونيفاس السابع" عندما قام بخطفه من قبل..

ثم بدأ التعذيب..

* * *



25 أكتوبر

1307

جامعة باريس

تتطلع أبصارك من خلال تلك النافذة إلى المشهد الدائر بداخل تلك الغرفة الضيقة.. حيث يقف "دو مولاى"..

يداه مقيدتان للسقف.. لا شبر في جسده يخلو من الجروح.. يبدو أن التعذيب على مدار يومين قد بدأ يؤدي عمله فعلاً.. لم يكن ليحتمل ساعة أخرى.. ثم ينفتح الباب.. ببطء ينفتح ويدوى صوت الصرير المعدني، فتشعر أنه يخترق عقلك..

- هل حظيتَ بما يكفيك؟..

صوت الفارس الملكي في ثيابه المميزة يبعث على القشعريرة..

ينظر له "دو مولاي" بضعف.. هل حان الوقت؟.. فليذهب الوقت إلى الجحيم، لم يعد قادرًا على الاحتمال.. جاءت الصفعة التالية، لتقضي على أى محاولة له للصمود..

"طاخ"..

يمسكه الفارس من شعر لحيته ويرفع رأسه في مواجهته..

- تظنون أنكم أقوياء يا أولاد العاهرة؟.. سنرى..

"صوت غمغمات خافتة"

ينظر الفارس لـ "دو مولاي" بدهشة..

- ماذا قلت؟..

يقترب بأذنه من فم الأخير مصغيًا..

- أنا.. مستعد للاعتراف..

يُبعد الفارس رأسه وينظر إليه لحظة في ظفر، ثم يستدير خارجًا من الغرفة.. يتهالك "دو مولاي" على نفسه.. لا يقدر حتى على الوقوف، فيُريح قدماه ويحمل وزن جسده كله على ذراعيه.. يعود الفارس أخيرًا ومعه بعض الورق، وفارسان آخران، ثم يقول أحدهما:

- قلت إنك مستعد للاعتراف؟..

يومىء "دو مولاي" برأسه في ضعف، فيبتسم الفارس بينما يقول الأول:

- إذن فلنسمع.. ما قولك في التهمة الرئيسية الموجهة لكم؟.. ما هي شعائر انضمام الفرسان الجدد لـ "فرسان الهيكل"؟..

يتذكر "دو مولاي" المشاهد الجنسية المثلية الفاحشة للحظة.. الكاهن الأكبر الواقف أمامه، ورفاقه العراة.. ينكفئون جميعًا على بعض ليفرغوا شهواتهم على أجساد من يُقبِل، وينتشون.. النساء والخمور.. الجنس.. القبلات على الشفاه، وعلى صدورهم ونهودهم العارية، التي يعتصرونها

لتنتصب أعضاؤهم أكثر..

يلعقون بعضهم.. يرقدون فوق بعض.. كُلٌّ على كُلٍ، فلا فارق بين رجلٍ على رجل، أو امرأة على أخرى، أو العكس.. يفرغون رغباتهم شهوةً في بعضٍ، ويغرقون في منيهم الدافيء، الذي يغطي أجسادهم وأعضاءهم ممتزجًا بالخمر..

- ينكر الراهب في البداية وجود المسيح صراحة.. ويقسم بدمه على هذا، ثم يدوس على الصليب ويبصق عليه..

عيونهم جميعًا تتعلق به، وأحدهم يدوّن ما يقول على الورق..

- ثم بعد ذلك يتعرون من ملابسهم تمامًا.. يُقَبِلون بعضهم على السرة أولا، ثم بعد ذلك على المؤخرة، وبعدها على الفم والصدور، ثم يتضاجعون.. رجالاً على رجالٍ، أو نساء..

ما زال الفرسان ينظرون إليه وهو يتكلم.. يبدو الاشمئزاز واضحًا على كل خلجة من خلجاتهم..

- لو كان ذاك اعترافك وحدك، فلن يكفي..

ينظر له "دو مولاي" متسائلاً..

- يجب أن يعترف الآخرون، ويؤَمِّنوا..

يومىء "دو مولاي" برأسه إيجابًا، ثم يقول:

- يمكننى أن أكتب لهم خطابًا رسميًا يشجعهم على الحديث..

ينظرون لبعضهم، ثم يقترب أحدهم منه، ويحُل قيود أحد ذراعيه؛ حتى يتمكن من الكتابة، ثم يناوله الورقة والقلم.. ينتهي من كتابة الخطاب في صعوبة، ثم يناولهم القلم والورقة في تهالك.. فيأخذهم واحدٌ، ويقيد الآخر يده كما كانت.. ثم يستديرون جميعًا خارجين، ويغلقون الباب خلفهم في قوة.. يسعل "دو مولاي" فيخرج الدم من بين أسنانه.. يعرف أن ذاك الاعتراف هو بمثابه نهايته وقد كتبها بيده.. كما أراد هو بالضبط.. كل شيء يسير كما خطط له.. قد وعده.. وعده "بافوميت"..

تتراجع أنت بنظرك إلى الخلف، ولوهلة يخيل لك أن شخصًا ما يقف في الركن هناك مراقبًا ما يدور..

تدقق النظر أكثر.. لا شيء هنالك..

* * *

"يأمر البابا "كليمينت الخامس" باعتقال جميع "فرسان الهيكل" في أوروبا المسيحية كلها، وبمصادرة ممتلكاتهم وضمها رسميًا إلى حيازة تنظيم فرسان "الأسبتارية".."

جزء من وثيقة البابا "كليمينت الخامس" الصادرة تحت اسم Vox in Excelso، التى حل فيها رسميًا تنظيم "فرسان الهيكل" عام 1312..

* * *

- إنهم مذنبون.. "دو مولاي" و"دو تشارني" وبقيتهم سحرة مهرطقين، عبدة شيطان، يجب أن يُحرَقوا.. ذاك قراري وليس فيه رُجعة..

"كلمه ألقاها الملك "فيليب" أثناء اجتماعه بمستشاريه، بعد قرار الكرادلة والبابا "كليمينت" بسجن قادة "فرسان الهيكل" مدى الحياة.."

"الكرادلة هم جمع كاردينال، وهم مستشارو البابا وصحابته، الذين لهم الحق في انتخابه من بينهم.. قاموس المعجم.."

* * *



18 **مارس..**

..1314

PM 1:39

السماء المُغلفة باللون الرمادى.. الجو الكئيب.. السحب ذاتها منطفئة.. توشك على أن تُمطر وتطهّر الموجودات.. ووسط كل هذا، وأمام كاتدرائية "النوتردام" الشهيرة.. يتقدم هؤلاء السجناء وسط جموع الناس الغفيرة، ويقودهم أمامه ذاك الفارس..

"جاك دو مولاي" و"جيفيري دو تشارني" و"هيو دو بيراد" و"جادفري دو جونيفيل".. إنهم قادة "فرسان الهيكل"..

يرتقون الدرجات لأعلى تلك السقالة الخشبية ليواجهوا الجموع.. تلاحظ على أعينهم الانبهار بضوء الشمس الخافت، بعد سجن دام سبع سنوات، لم يروه فيه إلا من خلف قضبان نوافذ زنازينهم..

جموع الناس تحبس أنفاسها، يبدأ الفارس في قراءة التهم والعقوبة..

- بناءً على قرار الكرادلة، ورئيس الأساقفة والبابا "كليمنت الخامس" باركه الرب.. يتم معاقبة ضباط وفرسان الهيكل بالسجن مدى الحياة..

شهقات الناس تتعالى، والكلام والصياح والصفير يغطي على الآذان، ووسط كل هذا، يخترق الجموعَ ذاك الفارس، ويبدأ في صعود السقالة..

يقترب من الفارس الأول ليهمس في أذنه ببعض العبارات.. ثم يناوله شيئًا ما في يده..

يعتدل الفارس في مكانه، ثم يبدأ في الكلام..

- تعديل.. بناءً على أوامر عاجلة من الملك "فيليب"، تم تعديل العقوبة إلى الإعدام حرقًا لكل من "جاك دو مولاي" و"جيفيرى دو تشارني" و"هيو دو بيراد" و"جادفرى دو جونيفيل" وباقي رجالهم..

الصياح وأصوات الناس تتعالى..

- ولكن هذا ليس قرار البابا..

- ذاك أمرٌ ملكي يدفع بالعقوبة على مهرطقين.. لا يحتاج إلى انتظار موافقة البابا..

يدوي فجأه صوت "جاك دو مولاى" القوي، فتشعر أنه يزلزل الجموع..

- صمتًا..

يخرس الجميع، وتتعلق أعينهم به وهو يتابع:

- إنه لفي هذا اليوم المُريع، وفى تلك اللحظات الأخيرة من حياتي، أكتشف مدى إثم الباطل الذى فعلته.. يجب على أن أجعل الحقيقة تنتصر، ولذاك فأنا أعلن الآن، في مواجهة السماوات والأرض، وبعاري البالغ؛ أنني ارتكبت أبشع الجرائم.. وهي أنني وافقت واعترفت كذبًا بالجرائم التي وُجِهَت زورًا وبُطلانًا إلى التنظيم.. أنا أشهد، والحقيقة تجبرني على أن

أشهد أن التنظيم بريء مما وُجِهَ إليه.. قد اعترفت بالعكس فقط؛ لتفادي ألم التعذيب المروع الذى حل بى وبرفاقي، ولأهديء عصبية أولئك الذين أخضعونى له..

الصمت يغلف الجماهير الواقفة، بينما يتابع "دو مولاي":

- أنا أعرف العقوبات التي وقعت بكل الفرسان، الذين كانت لديهم الشجاعة الكافية ليسحبوا اعترافاتهم، ولكن ذاك المشهد المريع الذى ينتظرني ليس كافيًا لجعلي أؤكد كذبة بأخرى.. الحياة التى قُدِمَت لي بذاك الثمن المُخجِل، وتحت تلك الشروط المذلة المخلة، أتخلى عنها أنا بلا ندم..

ينسحب منظورك أنت إلى الخلف، خلف الجماهير الواقفة ناحية كاتدرائية "النوتردام" التي في الخلفية، مبتعدًا عن المشهد..

لوهله يخيل لك أن شخصًا ما يقف على أحد الأبراج ذات الطابع القوطى للكاتدرائية، ويتابع المشهد في الأسفل، بينما تتطاير عباءته في الهواء.. لا تستطيع تمييز ملامحه..

ثم يخرج من مجال بصرك، ويظلم المنظر أمامك تدريجيًا..

* * *

18 مارس..

1314..

PM 8:47

تتبدّى لعينيك تلك الجزيرة الصغيرة في وسط نهر السين، يحوم فوقها دخان ضبابي يحجب الرؤية نسبيًا، فتقترب أكثر منها حتى تبدأ في تمييز الموجودات.. تلك الأعمدة الطويلة في المنتصف، تحيط بكلٍ منها دائرة واسعة من القش والفحم المشتعل.. وأولئك المقيدون إلى الأعمدة في قوة، يتصاعد من أمامهم الدخان ليغطي عليهم ويحرق عينك، ليمنعك من النظر بوضوح..

إنهم هم..

"دو مولاي" وباقي قادة "فرسان الهيكل"..

على الركن في طرف المشهد، يجلس الملك "فيليب" والبابا "كليمينت" يرقبون مشهد الاحتراق في صمت.. تنظر إلى وجوههم.. مشاعر متضاربة.. ذاك المتبدي على وجه "فيليب" هو التشفي بكل تأكيد.. وجه البابا "كليمينت" لا يمكنك تمييزه بوضوح.. تشعر أنه متردد بصدد ما فعله.. لا يؤمن بضرورة ما يتم، ويتمنى لو كان تفاديه ممكنًا.. تنقشع الأدخنة نسبيًا عن وجوه "دو مولاي" ورفاقه.. لا ترى في ملامحهم التى

تلتقطها من بين الدخان ذرة خوف.. واقفين في شموخ من لا يبالي.. لا مبالاة من يرَ نارًا من قبل.. يعرفون أنها النهاية، ولكنهم لا يبالون.. لا يأبه أحدهم.. ومن وسط ألسنة اللهب، يتصاعد صوت "دو مولاي" قويًا مرعبًا، يزلزل كيانك من الداخل..

- من حكمكم الشنيع الذى توقعوه علينا، إلى الأعظم الواحد الأحد.. فليحل الشر على هؤلاء الذين أدانونا زورًا.. فالأعظم سينتقم لنا.. وفي خلال سنة يا "فيليب" ويا "كليمينت".. في خلال سنة ويوم ستدفعان ثمن جرائمكما في حضور الأعظم..

يختلج وجه الملك والبابا.. يبدو اهتزازهم واضحًا في الرهبة المتبدية على ملامحهما، إلا أنهما يتمالكان نفسهما.. تتعالى ألسنة اللهب أكثر، وتهب الرياح لتُطير الشرر في كل مكان، بينما تتراجع أنت بنظرك إلى الخلف ببطء نحو الظلال، ليدخل جسد ذلك الواقف الذى يراقب المشهد بطريقه "السيلويت" المميزة إلى المشهد.. لا تستطيع تمييز ملامحه.. بينما تتطاير العباءة الأبدية التى يرتديها في الهواء، وتداعبها نسمات الرياح..

يستدير في بطء ليخرج من مجال بصرك، ويجتذبك مشهد الاحتراق لوهلة.. ويغطي الدخان بصبغته الضبابية على كل شيء..

* * *

"مات البابا "كليمينت الخامس" في يوم العشرين من إبريل من سنة 1314 بسبب مرض gastro-enteritis أو التهاب المعدة

والأمعاء، وتقول بعض الإشاعات بأنه قد سُمم.."

"نلحظ هنا أن يوم وفاة البابا "كليمينت" هو نفس اليوم من الشهر الذى تولى فيه "دو مولاي" قيادة تنظيم "فرسان الهيكل".. العشرون من إبريل.. هل هي صدفة حقًا؟.."

* * *

"مات الملك "فيليب الرابع" يوم التاسع والعشرين من نوفمبر سنة 1314 بسبب أزمة دماغية أصابته أثناء ممارسته الصيد، وأودت بحياته بعدها بأسابيع قليلة في بلدة "فونتينبلو" التى وُلد فيها.."

* * *

"في سنه 2001 اكتشف بعض الباحثين في أرشيفات مكتبة الفاتيكان السرية وثيقة تعود إلى سنة 1308، قام فيها البابا "كليمينت الخامس" بتبرئة "دو مولاي" وتنظيم "فرسان الهيكل" من جميع التهم المنسوبة إليهم.. يظل سبب عدم نشر تلك الوثيقة وقتها لغزًا حتى يومنا هذا.."

- 4 -

السبت 29 يناير

2011

ميدان التحرير - القاهرة

لا تفقه وقتًا محددًا لما يدور على مرمى أبصارك، فالزمن يمر سريعًا ليعطيك نظرة على كل ما تم خلال اليوم منذ بدايته.. ترى المظاهرات تتطور، والأعداد تتزايد.. لا تجد موضعًا لقدم في الميدان بأكمله، ووسط الضوضاء يدوي صوت الرئيس "محمد حسني مبارك" في خطابه الأول الشهير:

- لقد تابعت أولاً بأول التظاهرات، وما نادت به ودعت إليه.. كانت تعليماتي للحكومة تشدد على إتاحة الفرصة أمامها للتعبير عن آراء المواطنين ومطالبهم.. ثم تابعت محاولات البعض لاعتلاء موجة هذه التظاهرات والمتاجرة بشعاراتها، وأسفت كل الأسف لما أسفرت عنه من ضحايا أبرياء من المتظاهرين وقوات الشرطة..

صوت الضوضاء بداخل الميدان يغطي على كل الأصوات الأخرى.. يبدو الامتعاض واضحًا على وجوه السامعين للخطاب.. بينما في أسفل المشهد

يمر شريط الأخبار السريعة ليعطي تغطية كاملة على الأحداث..

"قرار جمهوري بتعيين السيد "عمر سليمان" نائبًا لرئيس الجمهورية، وتكليف السيد "أحمد شفيق" برئاسة مجلس الوزراء"

تختفي صورة ميدان التحرير، ويحل موضعها صور متنوعة لمختلف أنحاء القاهرة.. القاهرة التي لم تعد كما كانت.. مشاهد الدخان والنيران المشتعلة في كل مكان، والزجاج المحطم والسيارات المحترقة تضفي على المشهد لمسة من الكآبة تجعله كميدان حرب.. ولا شرطة على مرمى البصر.. انسحاب قوات الشرطة يبدو واضحًا لكل ناظر، والبلطجية وقطاع الطرق ينهضون من تحت الرماد كالعنقاء ليسيطروا على الأحياء والشوارع..

لا أمن هناك..

"أعمال سلب ونهب واسعة لعدة بنوك وشركات ومحال، وتخريب فنادق ومولات، منها مول أركاديا"

قطاع الطرق يفرضون على المارة الإتاوات؛ حتى يسمحوا لهم بالمرور في سلام.. الأهالي يطاردون رجال الشرطة الذين واتتهم الجرأة لأن يظلوا في الشوارع..

إنها الفوضى..

"يعلن "صفوت الشريف" أمين عام الحزب الوطني استقالة "أحمد عز" أمين تنظيم الحزب من منصبه"

على الناحية الأخرى، ترى المظاهرات في شوارع بني سويف بعد الخروج من صلاة الجمعة.. جموع المتظاهرين تتجه إلى الحزب الوطني، ويبدؤون في تحطيم واجهات المقر وإلقاء الزجاجات الحارقة عليه.. إحدى الزجاجات تصيب شقة مجاورة للحزب وتشعل بها النيران..

"مقتل شخص وجرح إثني عشر آخرين في تفجير مقر جهاز مباحث أمن الدولة في سيناء"

شباب الثوار يعلنون عن حملة "احمِ بيتك الكبير" الشهيرة، فترى الشباب واقفين أمام منازلهم وشوارعهم، لحمايتها بأنفسهم من البلطجية المنتشرين في كل مكان، انتظارًا لعودة الأمن العام الذي لا يبدو أنه ينتوي العودة.. هذه هي لحظة مولد اللجان الشعبية..

"تجميد التداول بالبورصة بسبب مظاهرات الغضب في مصر"

"تعطيل العمل بمصرف البنك المركزي بالكامل في جميع أنحاء الجمهورية"

* * *

الأحد 30 يناير
2011
وسط القاهرة

الدخان المتصاعد من الميدان يغطي على المشهد، فلا ينقشع سوى القليل.. ويختلط كل ذاك بصوت الطلقات..

المتظاهرون يشتبكون مع قوات الشرطة أمام مبني وزارة الداخلية.. تلك هي بداية استخدام الرصاص الحي في الدفاع عن الوزارة..

صوت الطلقات يدوي، وقوالب الطوب التي يلقيها الثوار علي رجال الشرطة، وهم يكممون أنوفهم من الغاز المسيل للدموع، تُذكّرك بمشاهد الثورة التونسية والانتفاضة الفلسطينية، مع الفارق الرهيب في دموية الأحداث..

ثلاثة قتلي يسقطون، ويتساقط المصابون بالعشرات، بينما تبدأ مدرعات الجيش المصري في التدخل للسيطرة على الموقف..

شبح الخراب يخيم على المكان.. وهناك، على الطرف الآخر من كل هذا، تري عملية الهروب المُنظّمة من سجن وادي النطرون..

السيارات والشاحنات المحملة بالرجال المُلثمّين المسلحين تتوقف أمام السجون، وتبدأ في الاشتباك مع الضباط..

شعور الذعر يتنامى بداخلك.. لا يمكن أن يكون هؤلاء هم الثوار..

صوت إطلاق النيران يتعالى كأنك في ساحة حرب، ومشهد السجناء الفارين في الشاحنات يحتل المشهد أمام عيناك..

جميع قيادات الإخوان المسلمين قد فروا تقريبًا..

الدكتور "محمد مرسي" والدكتور "عصام العريان" و"سعد الكتاتني" هم أشهر شخصيات يمكنها أن تجذب انتباهك..

صوت محركات الشاحنات المبتعدة يخفت رويدًا، ليحل الصمت على ساحة معركة طويلة..

الدخان المتصاعد من السجون يمتزج برائحة الدماء.. ويبدو في تصاعده الحثيث إلى الأعلى أشبه بأرواح الشهداء الساقطين في كل ركن..

ويخيم الصمت علي المشهد..

* * *

الإثنين 31 يناير

"القوات المسلحة لن تستخدم القوة ضد المحتجين.. حرية التعبير مكفولة لكل المواطنين الذين يستخدمون الوسائل السلمية.."

"اللواء "إسماعيل عتمان" المتحدث الرسمي باسم القوات المسلحة"

* * *

الثلاثاء 1 فبراير

وأنا أعتز بما قضيته من سنين طويلة في خدمة مصر وشعبها.. إن هذا الوطن العزيز هو وطني، مثلما هو وطن كل مصري ومصرية.. فيه عشت وحاربت من أجله، ودافعت عن أرضه وسيادته ومصالحه، وعلي أرضه أمـوت، وسيحكم التاريخ علي وعلى غيري بما لنا أو علينا.. إن الوطن باقٍ والأشخاص زائلون، ومصر العريقة هي الخالدة أبدًا.. تنتقل رايتها وأمانتها بين سواعد أبنائها، وعلينا أن نضمن تحقيق ذلك بعزة ورفعة وكرامة.. جيلاً بعد جيل..

"جزء من خطاب الرئيس "مبارك" الثاني الذي وجهه للثوار، والملقب بالخطاب العاطفي"

"آسفين يا ريس.."

"بالروح.. بالدم.. نفديك يا مبارك.."

"هتافات بعض من مؤيدي الرئيس "مبارك" بعد نزولهم إلي الميادين والشوارع الجانبية المحيطة بميدان التحرير لاستفزاز الثوار"

"يسقط يسقط حسني مبارك.."

"صوت الهتافات في ميدان التحرير"

* * *

الأربعاء 2 فبراير

2011

ميدان التحرير

القاهرة

PM 12:52

تتبدي لعينيك عظمة المشهد عن قرب لأول مرة، فترى جموع المتظاهرين الجالسين متكئين..

رجال ونساء وشباب وفتيات.. شيوخ وقساوسة.. جميعهم يفترشون الأرصفة معًا، فلا فارق..

أصوات أحاديثهم تترامى إلي مسامعك من كل ركن، تقودك مسامعك صوب تلك الخيمة البعيدة..

- ربما هم محقون بالفعل.. ربما يجب علينا العودة..

- لست مطمئنًا.. ذاك البيان الإخباري الذي أذاعوه عن العصابات المتوجهة إلي هنا بكرات من النار يثير ذعري..

- ما الذي نفعله هنا.. الوغد لن يرحل..

تقترب أكثر..

– لن أعود بعد كل هذا، وبعد كل هؤلاء المصابين.. بالإضافة إلى أننا لو عدنا، لأخذونا من بيوتنا جميعًا..

– لا تراجع الآن.. تلك هي الذروة.. التراجع الآن يعني الفشل الحتمي..

تصل إلـي تلك الخيمة أخيـرًا، وتقع أبصارك على "عمر" وصديقيه الجالسين بجواره..

– لم أكن أتوقع أن توافق بتلك السهولة عندما حاولت إقناعك بالمشاركة..

ينظر إليه "عمر" في صمت..

–ما الذي دفعك إلى البقاء؟..

هل هو اليأس؟.. هل هو مشهد الشباب النضر الواقف يلوح بالأعلام في سلمية واضحة؟.. هل هو إيمان بالتغيير فعلاً؟..

ما الذي يمكن أن يدفع شخصًا لا يبالي بما يحدث للعالم من حوله، ولا يتابع السياسة حتى، لأن يشارك في شيء كهذا؟..

لا يعرف.. لم يعرف يومًا ماهية نفسه، وهو ليس على وشك البِدء الآن..

– لا أعرف.. بدا لي ذاك الشيء الصحيح الذي يجب عليَّ فعله..

– كيف؟..

لا يجد وسيلة لتقريب المشهد..

– لا أعرف يا "نبيل".. أحيانًا تجد في حياتك أشياءً لا تفقهها أو تدركها..

لم تتأكد منها يومًا، ولم تتخذ بشأنها قرارًا، بل أنت تفعلها وحسب.. لا تدري ما الغرض منها ولا نفعها.. لا تدري شيئًا على الإطلاق..

يعتدل الأول الذي عرفنا أن اسمه "نبيل" في جلسته، ثم يقول في اهتمام:

- أنت تعني شيئًا أشبه بالعادات والتقاليد التي ننشأ عليها، ولا نعرف غيرها منذ الصغر.. الدين وصلاة الجمعة مثلاً، والصوم.. تجدها في كل المجتمعات بدرجات متفاوتة، وعلى حسب خلفيات كل مجتمع الثقافية والدينية..

يهز "عمر" رأسه وهو يقول:

- شيء مثل ذاك..

- ولكن الأمر هنا مختلف.. ما أتحدث عنه هو قرارٌ مصيري.. المشاركة في مظاهرات واعتصامات ضد نظام عملاق طاغٍ لا يرحم، ويرى كل من عاداه خائنًا كافرًا متآمرًا.. نظام يذكرك في قوته بالآلهة.. لا أعتقد أن هذا قرار طبيعي يصدر من شخص لا يتابع السياسة، وليس اتخاذه سهلاً، لو لم تكن تخفي في داخلك شخصية قوية متمردة يا صاحبي..

ينظر له صامتًا..

لا يعرف.. من ذا المدعي الذي يجسر على القول بأنه يعرف حقيقة نفسه؟..

ليس هو بالتأكيد..

"صوت صراخ يتعالى"

"صوت أقدام خيول راكضة"

خيول؟..

ما الذي يحدث بالضبط؟..

منظر عيني "نبيل" وهو ينظر في ارتياع إلي المشهد الذي يحدث فوق كتف "عمر" يرهبه، فيستدير في سرعة لترصد عيناه كابوسه متجسدًا..

أعداد هائلة من الناس يهجمون علي الميدان فجأة، يتقدمهم بعض البلطجية علي صهوة الخيول والجمال، وهم يلوحون بالسيوف والأسلحة البيضاء، فيبتعد الكل عن طريقهم في ذعر..

يتسمر الموقف لحظة، ثم تهوي السيوف..

"صوت صرخات وبكاء"

"صوت العصي والسيوف وهي ترتطم بالأجساد"

تري بعينيك مشهد انهيار الكرامة والعزة.. المحاولة الأخيرة لكسر الإرادة المصرية..

ينهض "نبيل" من مكانه في سرعة ويندفع نحو قلب الصدام، فينهض خلفه "عمر"..

الحجارة تطير في كل مكان، فتصيب من هم علي صهوة الخيول والجمال، فيسقط بعضهم ويُدهس تحت الأقدام، وينقض الشباب علي من لم يدهس ليمسكوه..

حجارة يلقيها مؤيدو الرئيس على الشباب، فتصيب من تصيب وتطير في كل مكان لتكسر واجهات المحال التجارية..

الفزع يبدو واضحًا على المشهد الذي يُعيد إلى ذهنك مشاهد الحروب في القرون الوسطى.. ويتساقط الضحايا..

يقذف "نبيل" ومن خلفه "عمر" بالحجارة على البلطجية، ويتحاشان أكوام المقذوفات وزجاجات المياه الغازية التي يقذفهم بها المؤيدون..

صوت الجماهير في الخلفية يمتزج بصوت الصراخ وصوت تلاحم الأجساد، وينقل لذهنك مشهد المذبحة الجارية..

ثم تسمع صوت طلقات رصاص القناصة من بعيد..

"بوم" طلقة..

يتهاوى شاب أمام أعين "نبيل" المرتاعة، فيحدق فيه غير مصدق، بينما يتراجع "عمر" إلي الخلف في ذعر ويحاول أن يحتمي بأي شيء بلا جدوى..

"بوم" طلقة أخرى..

جسد آخر يتهاوى كالبالون المثقوب..

أحد البلطجية يتجه إلى "نبيل" على صهوة حصانه، وهو يلوح بهراوته الحديدية، فيتسمر "نبيل" مكانه كمن يعرف بأن نهايته جاءت.. لا جدوى من الفرار..

الحصان يقترب، و"عمر" يصرخ في ذعر محذرًا "نبيل" الذي لا يبدو

عليه أنه يسمع شيئًا.. يحدق في المشهد بعينين زائغتين..

يحاول أن يقترب.. أن يدفعه بعيدًا، ولكن سرعته لا تسعفه، ولا تفوق خطوات الجواد وسرعة من يمتطيه رافعًا ذراعه على امتدادها حاملةً الموت..

يقترب ملتهمًا المساحة، ويهوي بالهراوة على رأس "نبيل"، الذي تنفجر منه نافورة من الدماء وتتطاير في كل صوب، لتسقط على ملابس "عمر" الذي يتلقف الجسد الساقط في لوعة..

تتساقط دموعه في حرارة ويضيع صوت صراخه بين أصوات المعركة، ثم يدير عينيه في قهر إلي جواد البلطجي الذي يجري به بعيدًا، ثم يتلقى حجرًا في رأسه ليسقط من عليه..

"بوم"

طلقة أخري، وواحد آخر يعض التراب..

يحاول أن ينهض حاملاً الجسد الهامد إلى المستشفى الميداني، ليشعر فجأة بجبل من الصخر يرتطم بجانب وجهه الأيمن..

يسقط أرضًا فوق جسد صديقه وهو يحدق فيما يدور بعينين تملؤهما الدماء.. عينان لا تريان..

ثم تظلم الدنيا أمامه تمامًا..

* * *

- 5 -

"تعلن حكومة المملكة المصرية إلغاء معاهدة 1936 وملحقاتها.. بدايةً من الآن وجود القوات البريطانية في مصر أصبح غير شرعي، والحكومة المصرية غير مسئولة عن حمايتهم.. الحكومة تدعم وبكل قوة الفدائيين والعمليات الفدائية في منطقة القناة.."

- فمن أجل مصر وقعتُها، ومن أجل مصر ألغيها..

"صوت تصفيق وتأييد حافل من نواب الحكومة والمعارضة"

"تفريغ نص من كلمة "مصطفى النحاس" باشا رئيس الوزراء المصري بحكومة الوفد، الذي أعلن فيه إلغاء معاهدة 1936 بين مصر وبريطانيا يوم الثامن من أكتوبر سنة 1951"

* * *

في العام 1936، وقع "مصطفى النحاس" باشا رئيس الوزراء في حكومة الوفد معاهدة بين مصر وبريطانيا، تقضي بخروج القوات البريطانية من القاهرة، وبقائها وتمركزها في منطقة قناة السويس..

كان الرأي العام آنذاك يجمع علي ضرورة إلغائها؛ لأنها لا تعتبر استقلالاً فعليًا لمصر، بل على العكس تمامًا، يمكن اعتبارها بمثابة اعتراف من الحكومة المصرية، وقبول منها بوجود الاحتلال البريطاني علي أراضيها..

سبّبَ ذاك الأمر غضبًا عنيفًا في الشارع المصري، وكانت بداية العمليات الفدائية القليلة التي قام بها بعض المواطنين ضد القوات البريطانية في السويس..

ظل الوضع على ما هو عليه لفترة طويلة، حتى جاء إلغاء المعاهدة علي يد "مصطفى النحاس" باشا، ليطلق فرحة عارمة في الشارع المصري، فبدأت المظاهرات الشعبية في النزول والتوافد على الميادين؛ تأييدًا للحكومة ولقرارها بإلغاء المعاهدة، فقد كان ذلك يعني اعتبار مصر رسميًا دولة ذات استقلال وسيادة، وأن وجود القوات البريطانية على أرضها هو وجود استعماري غير شرعي..

حاولت الحكومة البريطانية أن تستبدل المعاهدة الملغاة من الطرف المصري بمعاهدة أخري دولية تُدعى معاهدة الدفاع المشترك مع حلفاء بريطانيا، وهم فرنسا وتركيا، والولايات المتحدة الأمريكية.. ولكن حكومة الوفد برئاسة "مصطفى النحاس" رفضت الأمر رفضًا باتًا؛ لأنه كان من الواضح أنها نوع آخر من الاحتلال المُقنّع الذي يضع المملكة المصرية تحت رحمة حلف شمال الأطلنطي.. بدأت بعدها الأمور تزداد سوءً بالنسبة للبريطانيين، لأن وجود القوات البريطانية على أرض مصر أصبح وجودًا غير شرعي كما قلنا، وعادت له صفة الاحتلال، فبدأت عجلة الكفاح تدور بين صفوف الشعب والشارع المصري..

بدأ الأمر برفض عمال السكك الحديدية نقل الجنود البريطانيين ومعداتهم، وبعدها امتنع عمال الشحن والتفريغ عن تفريغ حمولة البواخر

البريطانية في موانئ القناة الثلاثة، مما أدي إلي خسارة بريطانيا لأكثر من مليوني جنيه إسترليني في أسبوع واحد، وكان ذاك وقتها مبلغًا فادحًا بكل المقاييس.. ولم يتوقف الأمر عند هذا.. أضرب العمال الذين يعملون في المعسكرات البريطانية في منطقة القناة بعدها، وانسحبوا منها وضحوا بأجورهم في سبيل ما يؤمنون به، ولم تتركهم الحكومة عاطلين، بل ألحقتهم بالوزارات الحكومية، وصرفت لهم أجورهم دعمًا لهم..

ما لم يكن يعرفه أحد وقتها، هو أن فوز حزب المحافظين المتشدد في الانتخابات البريطانية حينذاك، كان بداية حقبة جديدة شديدة الخطورة في تاريخ بريطانيا؛ وذلك لأن تولي ذلك الحزب بالذات هو ما أدي إلي إحكام سيطرة التنظيم على السياسة البريطانية كلها.. لم يعد هناك مجال للمزيد من التسلل.. صارت له السيطرة الكاملة على أقوي دولة أوروبية في ذاك الوقت، وكان إحكام السيطرة المطلقة على الدولة المصرية والشعب المصري من أكثر أهدافه أهمية.. سلسلة طويلة ومترابطة من الأحداث لا مجال لها هنا..

إذًا ما هو التنظيم بالضبط؟.. هذا أمر يطول شرحه، وليس هو موضوعنا الآن..

انعكس هذا بعدها في تصدي قوات الاحتلال البريطاني للمظاهرات المؤيدة لحكومة الوفد بإطلاق النار عليها، مما أدي إلى مقتل العديد من المواطنين وإصابة أعداد هائلة منهم.. وكما جرت العادة، لا يوجد فعل إلا وله رد فعل..

يوم الرابع عشر من نوفمبر سنة 1951، خرجت مظاهرة كبيرة نظم لها حزب الوفد، وامتلأت الشوارع والميادين عن آخرها بالمتظاهرين، رافعين لافتات سقوط الاستعمار البريطاني ورفض الدفاع المشترك.. وفوق كل هذا، نشطت عمليات الفدائيين في منطقة القناة، ووصلت إلى ذروتها بمتطوعين من العمال والطلبة.. بدأت حركات الكفاح المسلح في الظهور، مثل كتيبة خالد بن الوليد وكتيبة صلاح الدين..

وبدأت القوات البريطانية في الرد على العمليات الفدائية التي يقوم بها الأهالي بالعنف وبطلقات الرصاص، فبدأ البوليس المصري في حمايتهم والتصدي للمحتل..

وببطء، تحول الموقف إلي حرب شوارع..

عمليات فدائية من الأهالي، تتبعها عمليات انتقامية من القوات البريطانية يتصدى لها البوليس المصري..

حرب شوارع تدور كل يوم..

بدأ الموقف يفلت من بين أيدي القوات البريطانية، فوضعت خطة للاستيلاء على كل المرافق الحيوية في مدن القناة كلها، ووضع المنطقة بأكملها تحت السيطرة البريطانية الكاملة لحماية مصالحها في قناة السويس..

وجاء ذلك اليوم..

* * *

25 **يناير** 1952

مبنى المحافظة وثكنات النظام..

الإسماعيلية..

إنها الساعة السادسة صباحًا.. الشمس تسطع على استحياء.. الشارع خالٍ تمامًا، وهو شيء غير معتاد في ذلك الوقت من الصباح.. ولذلك سببٌ مهم يمكنك أن تراه فيما حولك..

تلك الدبابات البريطانية وفرق المدفعية، التي تحيط بمبنى المحافظة والشرطة وثكنات النظام من كل اتجاه.. لا ينذر منظرهم بالخير كثيرًا..

هدير جنازير الدبابات يهدر، لا ينافسه إلا أصوات الاتصالات اللاسلكية على أجهزة الراديو، وأصوات خطوات أحذية الجنود الثقيلة حولك..

وهناك.. وسط كل تلك الجلبة، تجده واقفًا وفي يده جهاز الإرسال يتكلم فيه بصرامة وغطرسة واضحتَيْن:

- هنا البريجادير "إكسهام" قائد القوات البريطانية.. المبنى محاصر تمامًا، ولا مخرج هناك سوى الاستسلام الكامل غير المشروط.. ما لم تسلم القوات أسلحتها وتستسلم وترحل عن منطقة القناة كلها قبيل مغرب هذا اليوم، فلن نتوانى عن استخدام القوة المميتة..

الاتصال تغلفه الإستاتيكية فلا تفهم معظمه، إلا أن ذاك الواقف هناك

بداخل المبنى، يبدو عليه الفهم التام.. إنه "شريف العبد" ضابط الاتصال المصري.. يهرع إلى اللواء "أحمد رائف" قائد بلوكات النظام، و"علي حلمي" وكيل المحافظة.. الخوف يبدو على العيون، ولكنك ترى معه الحزم أيضًا.. ليست تلك ملامح ضباط يوشكون على الاستسلام..

يلتقط الأول سماعة الهاتف..

- حولني على فؤاد باشا سراج الدين على التليفون..

- مين يا فندم؟..

- أنا اللواء أحمد رائف قائد بلوكات النظام في الإسماعيلية..

- حاضر يا فندم..

"صوت نقرات على مفاتيح الهاتف يمتزج بصوت إستاتيكي خافت، تتبعه رنات هاتف"

- ألو..

- معالي الوزير.. صباح الخير..

- صباح النور..

- يا فندم قوات الاحتلال البريطاني وجهت لنا إنذار برحيل قوات البوليس عن مدينة الإسماعيلية، وإحنا يا فندم رافضين وقررنا المقاومة..

صمت يسود لهنيهة، ثم يعود صوت الوزير خافتًا..

- هتقدروا يا أحمد؟..

"غمغمة خافتة من على الطرف الآخر من الخط"

- يا فندم مش هنسيب الإسماعيلية حتى لو ضحينا بأخر نفس فينا..

"زفرة حارة"

يسود الصمت لبرهة.. ثم يأتي صوت الوزير بنبرة مختلفة قليلاً.. يبدو الحزن والتأثر واضحًا في كل حرف يخرج من بين شفتيه..

- ربنا معاكم.. إستمروا في المقاومة..

ينظر اللواء "رائف" إلى الوكيل والضابط نظرة ذات معني، ثم يقول بنبرات ثابتة:

- تمام يا فندم..

يضع سماعة الهاتف مكانها ويحدق فيها للحظات..

لحظات شردت فيها أفكارهم جميعًا نحو عائلاتهم التي تنتظر عودتهم إلى البيت.. أطفالهم الذين لا يفقهون شيئًا عمّا يوشك على أن يحدث، ولا يتصورون..

نهض اللواء "رائف" من مكانه ليتناول جهاز الإرسال اللاسلكي وهو ينظر إلي رجاله، ثم قال:

- هل أنتم معي؟..

تعلقت عيونهم به في صمت، بينما تتابع باقي الضباط علي دخول الحجرة، وهم ينظرون إليه في تساؤل..

- لا يمكننا أن نستسلم بهذه البساطة.. لو فعلنا، فلن أقدر على النظر في المرآة ما تبقى من عمري..

قالها وتعلقت عيناه بالنقيب - أو اليوزباشي كما كان يقال وقتها - "مصطفى رفعت" الذي تقدم إليه قائلاً:

- لن ينالوه إلا فوق جثثنا يا فندم..

و تعالت الأصوات المؤيدة من خلفه، بينما قال أحدهم:

- بالإضافة إلى أنني لا أتلقى أوامري من أولاد عاهرة..

أثارت عبارته قوة وشجن في نفس اللواء الذي قال:

- سلم فمك يا عبد المسيح..

ورفع جهاز اللاسلكي إلي فمه قائلاً:

- من اللواء "أحمد رائف" قائد بلوكات النظام إلي "إكسهام".. إذا لم تأخذ قواتك من حول المبنى وترحل الآن، فسوف أبدأ أنا الضرب، لأن تلك أرضي، وأنت من يجب أن يرحل منها لا أنا..

وصمت لحظه ليلتقط نفسًا عميقًا، ثم أضاف:

- إذا أردتم المبنى، فلن تدخلوه إلا ونحن جثث..

وألقى جهاز اللاسلكي جانبًا، ثم سحب طبنجته الحكومية من درج مكتبه، والتقط الضباط بنادقهم واتجهوا إلى النوافذ، وهم يلتقطون أنفاسهم ويحبسونها مُحكِمين التصويب..

وفي الخارج، أشار البريجادير "إكسهام" بإصبعيه السبابة والوسطى إلي فرق المدفعية والدبابات إشارة ذات معني، ثم صاح بصوت جهوري:

- استعد..

لقم الجنود طلقات المدافع بداخلها، وصوبوا الفوهات ناحية المبني، بينما صوته يدوي في الخلفية:

- فاااياااار..

ودوت أصوات انفجارات المدافع في سكون الصباح تعقبها طلقات الرشاشات..

المدافع تقتلع الجدران والضباط من خلفها، والأحجار والصخور تتطاير وتمتزج بالتراب، ويدوي صوت الطنين المميز المصاحب للانفجارات في أذنك، فتصاب بالصمم..

غرفة الاتصالات "السويتش" تتهاوي تمامًا وعامل التليفون يطير مضرجًا في دماءه، تتصاعد من جسده أدخنة الانفجارات وأشلاؤه تتناثر في كل ركن، فيثير مرآه مشاعر الجنود، الذين تدوي طلقات بنادقهم، وهم يصيحون، وعيونهم ممتلئة بالدموع..

صوت طلقات البنادق المصرية..

صوت الرشاشات الأوتوماتيكية البريطانية..

ثم صوت المدفعية والدبابات..

– فاياااااار..

الانفجارات..

انفجارات في كل مكان..

انفجارات تقتلع الجدران والجنود، والهواء نفسه يغدو غبارًا وأحجارًا متفتتة..

الأهالي يغادرون منازلهم هاربين في ذعر، وبعض الشباب يحاولون قتال القوات البريطانية، فلا يفلحون إلا في لقاء فَنَاءَهُم..

– فاياااااار..

انفجارات..

انفجارات في كل مكان..

صوت السعال والدخان يعمي العيون..

السبابات على زناد المدافع والبنادق، والطلقات تتوالى من الطرفين..

بعض الأهالي يتسللون داخل المبنى ليعطوا الضباط الأطعمة.. ويمر الوقت..

ينظر اليوزباشي "مصطفى رفعت" إلى زميله "عبد المسيح" قائلاً:

- الذخيرة تنفد.. نحتاج لخطة جديدة..

نهض الأخير ليطلق بعض الطلقات من النافذة المحطمة حتى سمع صوت التكة المميزة التي تعلن أن بندقيته خاوية علي عروشها، فأخذ يلقمها بالرصاصات من صندوق يجاوره بينما صوت "إكسهام" يدوي من الخارج:

- سيز فاياااار..

ثم يعلو صوته موجهًا كلامه إلى الضباط بداخل المبنى:

- هذا هو الإنذار الأخير.. إستسلموا جميعًا وأخرجوا رافعين أيديكم وبدون أسلحتكم وإلا سنستأنف القصف بأقصى قوة..

يسود السكون، وصوت الطنين الناتج عن الإنفجارات يدوي في أذنك فتوشك على التمزق..

- ماذا تقترح؟.. قد سقط أكثر من نصف الجنود..

نظر إليه "مصطفى" لحظة، ثم ألقى بندقيته جانبًا ونهض من مكانه متجهًا إلي باب المبنى وسط نظرات زملائه المندهشة وصوت "عبد المسيح" المستنكر:

- ماذا تفعل يابن القحبة؟.. عد إلى هنا قبل أن..

لم يتم عبارته لأن "مصطفى" فتح الباب الذي حطمت طلقات الرصاص معظمه ليخرج رافعًا يده إلي أعلى في إشارة إلى أنه أعزل..

توقفت طلقات المدافع بإشارة من يد "إكسهام" وهو يرقبه يمشي في تؤدة متجهًا إليه..

- هل قررتم الإستسلام؟..

هز "مصطفى" رأسه نفيًا وهو يقول:

- بل نحن نطلب سيارات إسعاف لعلاج المصابين وإخلائهم قبل إستكمال المعركة..

نظر له "إكسهام" في دهشة للحظة، ثم قال:

- طلب مرفوض تمامًا.. عليكم الخروج جميعًا أولاً والإستسلام، وبعدها يمكننا النقاش..

رمقه "مصطفى" بنظرة طويلة، ثم قال في ثبات:

- لن تتسلموا هذا المبنى إلا فوق جثثنا الهامدة..

واستدار عائدًا إلي المبنى وهو يحاول السيطرة على أعصابه والتغلب على توتره المتصاعد.. يعلم في قرارة نفسه أنه لا مخرج إلا الإستسلام أو الموت.. يشرد تفكيره رغمًا عنه إلى عائلته.. ربما لن يروه مجددا..

إنها النهاية..

يورثه هذا شعورا يزلزله من الداخل، وينتفض قلبه بالشعور الذي لا تدري إن كان العزيمة أم التوجس..

الخوف هو أمر مفروغ منه بالتأكيد.. لا أحد لا يخاف الموت إلا المدعين أو

ضعيفو الإيمان الذين لا يعتقدون في الحساب.. وهو ليس منهم بالتأكيد..

كان متدينًا طوال عمره، ورغمًا عنه لم يستطع منع أصابعه من الإرتجاف.. فهو برغم كل شيء لم يكن مستعدًا للقاء ربه في تلك اللحظات.. قلبه ينتفض على الرغم منه.. ليس خوفاً..

بل رهبة..

يصل إلى الباب أخيرًا، فيفتحه ويدلف إلي الداخل ويلتقط أنفاسه ليدوي صوت "عبد المسيح" المستنكر الذي سبقته تلك الشخرة الحلقية التي أطلقها..

- هل جننت يابن العاهرة؟.. لم يكن يمنعهم شيء من أسرك أو قتلك بمنتهى البساطة الآن..

نظر له "مصطفى" في صمت، ثم قال:

- طلبت منهم بعض عربات الإسعاف ونقل المصابين، لكن أولاد الزانية رفضوا.. لم يعد هناك خيار سوى الإستسلام أو القتال حتى نفاد الذخيرة..

ساد الصمت إلا من صوت خطوات اللواء "رائف" الهابطة على الدرج، ثم قال وهو يلتقط البندقية من أحد الجنود:

- إنه القتال إذًا..

وأعقبها بتصويب البندقية من النافذة، ثم..

- فاياااااار..

انفتحت أبواب الجحيم من جديد..

صوت طلقات المدافع والدبابات ترتطم بالجدران وتقتلع بعضها، وزجاج النوافذ المتبقي يتطاير على نحو أشد عنفًا.. يحتمي الجنود خلف ما يمكن الإحتماء خلفه، وأصوات تأوهات المصابين تستولي على المشهد.. ويتساقط القتلى تباعًا..

بعض الأهالي يتسللون من بين طلقات المدافع إلي داخل المبنى ليشتركوا في المعركة، ويوفرون ما يملكونه من ذخائر وطعام..

- فايااااار..

وتدوي طلقات المدافع والرشاشات.. أنت الآن تستنشق غبارًا ودخانًا، وتسمع الإنفجارات، ولا ترى سوى الدماء والموت على مرمى البصر.. صوت الجنود يبدأون في تلاوة الفاتحة والشهادتين، ومعهم صوت اليوزباشي "عبد المسيح" نفسه..

الموت قريب للغاية.. زملاؤهم ينتظرونهم على الضفة الأخرى..

- فايااااار..

يستمر القصف، والذخائر تنتهي من أسلحة الجنود.. إنهم الآن بلا مقاومة من أي نوع..

الدموع تترقرق في عيون أحد الجنود وهو ينظر إلى صورة زوجته وطفلته التي يحملها..

جدار أخر يتهاوى ويتصاعد منه الدخان..

ثم صمت..

صمت له رائحة الموت..

الجنود ينظرون لبعضهم في حيرة وتساؤل، بينما اللواء "رائف" يلتقط جهاز اللاسلكي الذي يخرج منه صوت "إكسهام" مغلفًا بالإستاتيكية:

- كفي هذا.. نحن نعلم بأن ذخائركم قد نفدت.. قد فعلتم ما عليكم وأكثر، ودافعتم عن المبنى بشرف، ولكن لا مفر الآن من وقف القتال بشرف أيضًا.. لا أحد آخر يتوجب عليه الموت..

تعلقت أعينهم به ما بين جريح ومصاب، فألتقط هو نفسًا عميقًا ثم قال:

- شروطنا هي أن يتم نقل الجنود المصابين وتوفير الإسعاف لهم، وأن الجنود الخارجين من المبنى لن يرفعوا أيديهم على رؤوسهم، بل سيخرجون بشكل عسكري يليق بهم، مع تركهم للأسلحة بداخل المبنى..

أتاه الرد بالإيجاب، فألقى باللاسلكي جانبًا وأصدر أوامره إلى الجنود والضباط..

- قد سمعتم ما قيل.. هيا..

الجنود السالمون ينهضون وينفضون الغبار عن أنفسهم، ويلقون أسلحتهم في انكسار، يتجهون إلى الباب ليخرجوا في طابورٍ طويل، بينما يحمل بعضهم المصابين، ويتبقى بعضهم في الداخل..

يخرجون في طابور طويل، والدخان المتصاعد من المبنى الذي صار أنقاضًا متهالكة يروي قصتهم..

صوت الطنين يتلاشى أخيرًا..

ولكن كل شيء ينتهي..

* * *

"أسفرت تلك الملحمة التاريخية لضباط الشرطة المصرية عن استشهاد نحو خمسين ضابطاً وجندياً، وإصابة ثمانين آخرين، وأسر الباقي منهم على قيد الحياة، من أصل حوالي ثمانمائة وخمسين فردًا، وعلى رأسهم اللواء أحمد رائف، في مواجهة أكثر من سبعة آلاف جندي بريطاني مُجهزين بأحدث الأسلحة والعتاد، قُتِل منهم ثلاثة عشر، وجُرِح إثنا عشر، بعد معركة وقصف متواصل دام ساعة أو أكثر تقريبًا.. وأدت تلك الأحداث إلي اعتبار يوم الخامس والعشرين من يناير عيدًا رسميًا للشرطة المصرية، وعيدًا قوميًا لمحافظة الإسماعيلية كلها.."

* * *

لا تأسفن على غدر الزمان لطالما.. رقصت على جثث الأسود كلاب

لا تحسبن برقصها تعلو على أسيادها.. تبقى الأسود أسود والكلاب كلاب

"الإمام الشافعي رحمه اللّه"

* * *

إنه يوم السادس والعشرين من يناير هذه المرة..

منتصف اليوم بالتحديد..

منتصف اليوم، والدخان يملؤ السماء..

دخانٌ يتصاعد من الحرائق المشتعلة أمامك على مرمى البصر في كل شبر من القاهرة..

الشرارة الأولى كانت من ميدان الأوبرا مع اشتعال النيران في كازينو أوبرا، بعد ذلك انتشر اللهب في فندق شيبرد، ونادي السيارات، وبنك باركليز، وكافيتريا جروبي، وغيرهم الكثير..

النيران تشتعل في كل شيء، وكأن هناك تنينًا خفيًا يطير في السماء، موجهًا لهيبه صوب كل شبر من وسط العاصمة التي أصبحت الآن أشبه بساحات الحرب..

يتمثّل المشهد أمامك ويرسم حجم الكارثة.. مظاهرات هائلة العدد.. أعداد تفوق المليون تغطي كل شبر أمامك، يتدافعون ويقذفون بالحجارة علي كل ما هو حولهم، وسط الدخان والنار التي تشتعل في كل شيء.. الشرطة لا تقدر على السيطرة على كل ذلك، ولا ينتهي الإمر إلا إلى الزيادة الحتمية في قوة الحرائق.. الموقف يفلت ويخرج عن السيطرة..

وأين الجيش؟..

لا جيش هنالك.. ولكنه قادم.. كما توقعت الخطة بالضبط..

وهناك، في مكانٍ ما.. مكان غير معلوم.. ترى ذاك الشخص واقفًا في الركن ممسكًا بسماعة الهاتف، وهو يطلب رقمًا ما..

شكله شديد الشهرة بالطبع، فلا تقل لي أنك لا تعرفه..

ذلك الوجه والبُنيان القوي.. الشعر الذي خطه الشيب..

نبرات الصوت القوية..

إنه الزعيم "جمال عبد الناصر" بالطبع..

يدوي صوت الرنين على الطرف الآخر من الخط، ثم يرفع أحدهم سماعة الهاتف..

- ألو..

- أيوه يا صلاح..

- جمال.. في إيه؟..

- تعالالي دلوقتي حالاً..

- في إيه اللي بيحصل؟.. والحرايق دي كلها إيه؟..

- مش وقته دلوقت، ومش هينفع نتكلم على التليفون.. مستنيك..

ثم يضع السماعة مكانها..

يتلفت حوله في توتر، ثم ينفخ في كف يده ويفركه بكفه الآخر، وهو يجلس على المقعد في طرف الحجرة..

يشرد بتفكيره بعيدًا..

إلى بداية انضمامه للكلية الحربية..

إلي تخرجه وانضمامه للجيش..

إلى الإنجليز..

إلى الضباط الأحرار..

إلى مصر التي تنَفَسَ كل شبر فيها، وتباينت تجاهه مشاعره ما بين العِشق والطمع..

إلى طموحاته الواسعة..

كيف يمكنه تحقيقها تحت حكم الإنجليز والملك فاروق؟..

هل ما يفعله حقًا قرار صائب؟..

لا يمكنه أن يعرف الآن، ولكنه يرى الأخبار ويسمع الأصوات في كل مكان، فيتصاعد في داخله شعور التوتر وإحساسه بأن الأمور بدأت في الإفلات من بين يديه..

يجب أن يسيطر على الموقف، وألا يدع لأحد الفرصة بأن يتتبع الأمر إليه في يوم من الأيام..

ينظر إلى ساعته..

مازالت الساعة الواحدة ظهرًا..

يجب أن ينتظر "صلاح".. يجب أن ينتظر أن يسوء الموقف إلى منتهاه.. حتى يصبح التدخل فعالاً.. يشرد بتفكيره أكثر..

إن المستقبل مشرق.. مشرقٌ إلى حدٍ يبعث القشعريرة في نفسه..

* * *

في ظهر هذا اليوم.. 26 يناير 1952 م.. اتصل بي "عبد الناصر" تليفونيًا كي أذهب إليه في منزله، فوجدته في حالة من الاضطراب لم أعهده عليها من قبل.. وطلب مني الإسراع في نقل أسلحة وذخائر موجودة لدى "مجدي حسنين" في مدرسة الأسلحة الصغيرة؛ لخوفه من تفتيش المكان بمناسبة الحريق.. اتفقنا على موعد ذهابي إلى هناك، واتصل هو بـ "مجدي حسنين" وأبلغه الموعد.. ولكن استلفت نظري سؤاله المتكرر لي: هما صح الإخوان ما اشتركوش في الحريق ده؟.. .. فأجبته بالقطع في عدم اشتراكهم طبعًا؛ فهذا لا يتسق مع ديننا ولا نظرتنا للمصلحة.. فكرر سؤاله جملة مرات مما استوقف خاطري.. ولكن الوقت لم يسمح لنا بطرح هذا الموضوع معه للمناقشة من جانب الحل والحرمة..

وتوجهت إلى مدرسة الأسلحة الصغيرة، ومعي الإخوة "منير دله" و"عبد القادر حلمي" بسياراتهم، والتقينا هناك بـ "مجدي حسنين"، ونقلنا هذه الأسلحة والذخائر برمتها إلى منزل الأخ "حسن العشماوي" تمهيدًا لنقلها بعد ذلك إلى عزبة والده المرحوم "محمد العشماوي" بالشرقية.. وهي نفس الأسلحة التي ضبطها "عبد الناصر" بعدها، وقدم فيها "حسن

العشماوي" للمحاكمة لإحرازه أسلحة وذخائر بقصد قلب نظام الحكم في يناير سنة 1954 م..

لا أستطيع أن أتجاهل ما تُشير إليه هذه الواقعة التي رويتها عن مخافة "عبد الناصر" من ضبط الأسلحة بمدرسة الأسلحة الصغيرة في ذلك الوقت بالذات.. فما دام الأمر بعيدًا عنه، فماذا يريبه ويدعوه إلى هذا الإضطراب؟..

"كلام اللواء "صلاح شادي" عن واقعة غريبة حدثت يوم السادس والعشرين من يناير سنة 1952، يوم حريق القاهرة"

* * *

لم أسأل نفسي وقتذاك عن سبب وجود تلك المواد في بيوت "عبد الناصر" وزملائه، فقد حرصنا منذ بداية تعاوننا في القتال أن نجنبهم الشبهات، وأن نتسلم أولاً بأول من محطة القاهرة أو طريق السويس ما يصل من ذخيرة، لنخرجه فورًا من العاصمة إلى مواقع استعماله..

لم أسأل نفسي، ولم أسأل "عبد الناصر" عن سبب وجود تلك الأشياء عندهم، فقد كان كل ما يعنيني أن أنقذ رقابهم في ذلك الوقت العصيب..

"كلام "حسن العشماوي" المتهم بالتحريض على قلب نظام الحكم بعدها بفترة"

* * *

بعد إلغاء معاهدة 1936، وبعد حركات الكفاح المسلح والعمليات الفدائية التي خاضها المصريين ضد الإنجليز في ذلك الوقت، بدأت الدولة المصرية في الإفلات من تحت سيطرة الإنجليز..

بدأت سلطة التنظيم تتراجع.. وباتت مصالحه مهددة في الشرق الأوسط..

لذلك، فقد جاء الرد بعدها في أقسى صِوَرُه.. بدؤوا في مقاومة الاحتجاجات والانتفاضات بالقمع.. والرصاص الحي..

لم يكن المصريين وقتها مجهزين لمواجهة عدو كهذا.. جيش أوروبي منظم ومسلح.. لم يكن الأمر في صالحهم أبداً..

وقتها، كان تنظيم الضباط الأحرار بما فيهم "جمال عبد الناصر" قد وضع خطة للقيام بثورة والانقلاب على نظام الحكم، والملك بعدها بحوالي خمس سنوات، وذلك بالتعاون خفيةً مع جماعة الإخوان المسلمين، إلا أنه صار من الواضح أنه لا يمكن الانتظار أكثر من ذلك.. خصوصًا بعد مذبحة الإسماعيلية..

الشرطة المصرية غير مجهزة للتعامل مع الإنجليز، ولن يمكن استغلالها في القيام بالانقلاب.. الموقف يفلت، إذًا فما الحل؟..

الحل هو في الجيش المصري بالطبع..

يجب أن ينزل الجيش المصري إلي الشوارع..

ولكن كيف؟.. هذا غير ممكن التحقيق إلا لو كان الأمر لمواجهة كارثة كبري

في العاصمة، أو لصد غزوٍ، أو حربٍ أهلية علي سبيل المثال.. لا يمكن أن يُبَرَر نزول الجيش إلي الشوارع إلا لسببٍ قوي، خصوصًا وأنه تحت إمرة الملك "فاروق" الذي كان متعاونًا مع الإنجليز..

بدأت وقتها الخطة الكبرى في التشكل..

ماذا لو تم استغلال العصيان المدني والمظاهرات الحادثة يوم 26 يناير احتجاجًا على مذبحة الشرطة بالإسماعيلية في إشعال الموقف؟..

سلسلة من الحرائق الغامضة الغير مفهومة في كل رُكنٍ من القاهرة يتم إخفاء مسببيها وراء ستار المتظاهرين والمحتجين، مما يجعل السلطات الإنجليزية والمصرية نفسها بما فيها من جواسيس إنجليز تتخبط في الظلام..

لا يعرف أحد من قام بهذه الحرائق.. ولماذا.. ولكن بالطبع بسبب الاحتجاجات الشعبية الهائلة، توجه الرأي العام بأكمله نحو تفسير أن المتظاهرين هم من قاموا بها، خصوصًا وأن من قاموا بالحرائق اختاروا بعناية الأماكن المحببة للملك "فاروق" وأصدقائه من الإنجليز، وقاموا بإحراق أكبر قدر ممكن منها.. مما جعل الصورة واضحة بعد ذلك في أعين الملك والسلطات البريطانية..

الشعب المصري قام بإحراق الأماكن التي يرتادها الملك "فاروق"؛ احتجاجًا علي مذبحة الإسماعيلية وعلى الاحتلال الإنجليزي.. عصيان مدني كامل يوشك على التحول إلى انتفاضة وحرب أهلية..

فما التصرف؟.. بالضبط..

نزل الجيش المصري بعدها إلي شوارع العاصمة والمحافظات قبيل المغيب، وقام بإخماد الحرائق قبل أن يخرج الموقف عن السيطرة.. أصبح بذلك الجيش مسيطرًا علي على كل شبر وكل رُكن حيوي في الدولة المصرية بأكملها.. بدأت سلطة الإنجليز في التراجع وقبضتهم في التراخي..

كان "جمال عبد الناصر" يعرف وقتها أنه كسر كل القواعد، ولكنه حاول إقناع نفسه بأن الغاية تبرر الوسيلة.. كان على أتم استعداد لاتخاذ القرار الصعب لسبب مهم، وهو أن أحدًا لم يكن ليجرؤ على اتخاذه غيره.. بسببه وبسبب خطته، أصبح الجيش المصري مسيطرًا على الشوارع، وفي إمكانه الاستيلاء على الحكم في ساعاتٍ معدودة.. لم يعد متبقيًا وقتها إلا الإنكار التام لأي علاقة له بالحريق.. ولن يتحقق ذاك سوى بتلك اللعبة الدبلوماسية العتيقة.. إلقاء اللوم على الآخرين جميعًا، ليصرف النظر عن الفاعل الحقيقي..

طبعًا، لم يمر الأمر بدون آثار جانبية.. فقد أتاح الحريق للإنجليز إيقاف كفاح الشعب ضدهم في القتال، وأتاح للملك "فاروق" أن يعين الإنجليز على شعبه، ويُمكِّنهم من إسقاط الوزارة الوفدية، والتي بدأت مساندتها للشعب في كفاحه الفدائي ضد الإنجليز..

صار من الواضح أن الوضع يزداد سوءً مع كل دقيقة، وأن تأثير الحريق انقلب وبدأ يعمل صوب مصلحة الإنجليز والتنظيم بالتالي..

ولذلك، كان من اللازم بدء العد التنازلي بأقصى سرعة نحو ذاك التاريخ..

23 يوليو.. 1952..

* * *

"جزءٌ مقتبسٌ من مذكرات "إبراهيم طلعت" المحامي الوفدي، والتي نُشِرت تحت عنوان "أيام الوفد الأخيرة" يتحدث فيه عن زيارته لـ "جمال عبد الناصر" في مجلس قيادة الثورة يوم الحادي عشر من أكتوبر سنة 1953، وبحضور "جمال سالم" رئيس المحكمة الثورية.. من صفحة 246 إلي صفحة 257"

صمت لحظات، ثم قال:

– أنت ما تعرفش إن الإخوان هما اللي حرقوا القاهرة؟..

وقع عليّ القول وقع الصاعقة، وفغرت فمي من الدهشة، ووقفت مذهولاً مما سمعت، وقلت له:

– مش ممكن.. قول كلام تاني.. مش معقول الكلام ده..

وهنا سمعت "جمال سالم" يضحك بشدة.. ونظر إليّ "عبد الناصر" ثم أدار وجهه إليّ، وقال بلهجة شبه عسكرية:

– أقعد..

جلست مأخوذًا، ودار بيننا هذا الحديث المقتضب:

– أنت مش كنت محامي "أحمد حسين" في قضية حريق القاهرة؟..

- أيوه..

- قرأت القضية؟..

- طبعًا..

- طيب مش عيب وأنت محامي جهبذ ما تلاحظش الحكاية دي؟.. دول يا أستاذ حرقوا القاهرة علشان يحكموا، ولما ما قدروش، دبوا الراجل الطيب اللي كان زعيمي وزعيمك في يوم من الأيام علشان يتشنق بدالهم.. وعشان كده إحنا أفرجنا عنه وحفظنا القضية..

ولكني بالرغم من هذه المفاجأة التي لم أكن أتوقعها قط، قلت له بإصرار:

- برضه لأ.. مش ممكن.. أنا قرأت القضية، وما شفتش فيها حاجة من دي..

* * *

إن الشيوعيين الذين ينادون اليوم بالكفاح المسلح، هم الذين انتهزوا فرصة ذهاب المواطنين الأحرار إلى القتال، وحرقوا القاهرة لبث الفوضى.. وهم مستعدون لذلك دائمًا من أجل سادتهم الذين يمدونهم بالمال..

"جزء من كلام الزعيم "جمال عبد الناصر" يتهم فيه الشيوعيين بافتعال حريق القاهرة، أثناء الاجتماع الذي أقيم بالمقر الرئيسي لهيئة التحرير، يوم الحادي والعشرين من أغسطس 1954 م"

* * *

لقد كان حريق القاهرة أول بادرة للثورة الاجتماعية على الأوضاع الفاسدة.. وحريق القاهرة هو تعبير شعبي عن سخط الشعب المصري على ما كانت ترزح فيه مصر من إقطاعٍ، واحتكارٍ، واستبداد رأس المال..

"كلام "جمال عبد الناصر" الذي يُبَجِل فيه حريق القاهرة في حفل افتتاح مجلس الأمة عام 1960 م"

* * *

"جزء من مذكرات الرئيس "محمد نجيب" التي نُشرَت في كتابه الشهير "كنت رئيسًا لمصر" يتحدث فيها عن حريق القاهرة وعلاقة "جمال عبد الناصر" به". وقعت ستة انفجارات في ذلك اليوم، لكن في أماكن متفرقة، منها السكة الحديد، والجامعة، وجروبي، ولم يُقبض على الفاعل..

وقد عرفت بعد سنوات، أن هذه الانفجارات كانت بتدبير من "جمال عبد الناصر"، كما اعترف البغدادي في مذكراته، وذلك لإثبات أن الأمر غير مستقر، ولابد من العودة بالبلاد إلى الحالة غير العادية.. وأنا في الحقيقة شممت هذه الرائحة القذرة في اجتماع اليوم التالي.. فقد تعالت الصيحات التي تطالب بالضرب على أيدي المخربين.. وقلت لهم في صراحة أقرب للاتهام:

– لا يوجد صاحب مصلحة في التخريب إلا هؤلاء الذين يبتغون تعطيل مسار الشعب إلى الديمقراطية..

* * *

"يروي "حسن عشماوي" في كتابه "حصاد الأيام" عن زله لسان لـ "جمال عبد الناصر" يعترف فيها بدور له في حريق القاهرة وهو يتحدث معه قبيل قيام ثورة الثالث والعشرين من يوليو 1952 م" وبدأت أناقش في هدوء – ودون دفاع عن وجهة نظر معينة – مدي مناسبة الظروف محليًا ودوليًا للقيام بثورة عسكرية تكون تمهيدًا لثورة شعب.. فلم يستطع "عبد الناصر" أن يضبط نفسه، وقاطعني قائلاً:

– لماذا إذًا تكبدنا المتاعب والأخطار في سبيل إنزال قوات الجيش إلى شوارع القاهرة؟.. لقد كاد الأمر يفلت من أيدينا، ويأتي حريق القاهرة بأخطر النتائج، ولكننا كسبنا نزول الجيش إلى الشوارع.. وهو يستطيع اليوم أن يستولي على الحكم في ساعة واحدة من ساعات الليل..

* * *

بعد قيام ثورة الثالث والعشرين من يوليو 1952 م، صار من الواضح أن الملك والإنجليز قد فقدوا السيطرة على مصر نهائيًا، وانتقل الصراع إلى "جمال عبد الناصر" والإخوان المسلمين و"محمد نجيب".. غدا واضحًا كالشمس أن التنظيم قد فشل فشلاً كارثيًا.. ولكن أكبر مميزاته هي أنه صبورٌ كالطفيليات.. يتسلل من حيث لا يتوقع أحد وسط الأعيُن الغافلة، حتى يستيقظ الجميع ليجدوا السيف على أعناقهم.. يختبيء تمامًا أمام أعين الجميع، فيعميهم غرورهم عن رؤيته.. وهو ما حدث بالفعل..

لفترة طويلة للغاية..

* * *

- 6 -

يستيقظ.. يفتح عينيه.. يحاول أن يتحرك، ولكنه يشعر بأن عقله يرتج داخل جمجمته، ويوشك أن يقيء أحشائه نفسها.. بأن روحه توشك على الخروج من فمه..

ارتجاج..

هذا واضحٌ جدًا.. حتى برغم الضباب الذي يغلف ذهنه، يمكنه أن يميز أنه مصاب بارتجاج قوي.. ولكن، أين هو؟.. ينظر حوله في بطء، ويحاول أن لا يحرك رأسه بقدر الإمكان.. إنه على سرير طبي، ولكنه لا يشعر بأن هذه حجرة مستشفى.. ضوء الصباح الخافت يتسلل من بين شقوق النافذة الصغيرة في الركن، فيغلف الموجودات بضوء ذهبي هاديء يشعر بأنه يريح أعصابه.. منظر ذرات الغبار المضيئة في الهواء يشغل عقله، فيشرُد معه بعيدًا.. ما الذي حدث له؟..

آخر شيء يتذكره هو أنه تلقى جلمودًا من الصخر في جانب وجهه، ثم أظلمت الدنيا تمامًا، فلم يعد يرى أو يتوتر.. أين هو إذًا؟..

قطع حبل أفكاره فجأة دخول تلك الفتاة مريحة الوجه.. نظر إليها، فشعر براحة تغلف أعصابه، ولا يدري لماذا.. قصيرةٌ نسبيًا، ولكن تكوين جسدها يجعله لا يلاحظ قصرها، بل تبدو له طويلة.. ترتدي سروالاً من الجينز الضيق، وقميصًا أحمر اللون.. ينسدل شعرها البني على الفراغ

الذي تركته الأزرار المفتوحة في أعلى القميص، فيخلب لبَه لونُ بشرتها الأبيض النقي.. ليست جميلة جدًا، ولكنها مثيرة.. تقترب منه.. تنحني على السرير.. تلاحظ أنه استيقظ أخيرًا..

- هل أنت بخير؟..

صوتها مثيرٌ أيضًا.. هذا غريب.. قلائل هن الفتيات اللائي يجتمع فيهن إثارة الشكل والصوت.. يومئ برأسه علامة الإيجاب، ثم يتذكر مخه الذي يرتج مع أقل حركة، فيتأوه في صمت، ويضع رأسه على الوسادة من جديد...

تضع هي يدها على جبهته مشجعة.. بضة وباردة، تُشعره بروحها القلقة في الداخل.. يحاول أن يحرك شفتيه المتشققتين بعبارة تجاهد حتى تخرج من حلقه..

- ما الذي حدث؟..

تجلس بجواره على السرير، ثم تتحرك شفتاها الصغيرتان، ليخرج الصوت الذي يداعب مشاعره:

- قد أُصِبتَ بقطعة من الرخام في موقعة الجمل.. أصابك ارتجاجٌ قوي.. أنت في غيبوبة منذ تسعة أيام..

تسعة أيام !..

و"نبيل"؟.. أين هو؟..

لا يقوى على الكلام، فتعدل هي من وضع الوسادة تحت رأسه، وتقول:

- يجب أن تستريح..

رحيقها يفعم أنفه ويثير مشاعره، فيتمنى لو أنها تبقى، ولكنها تنهض.. تقول:

- أنت في المستشفى الميداني في ميدان التحرير، فلا تخف.. أنا الطبيبة هنا..

ينظر لها في تساؤل، فتتابع هي مبتسمة:

- لست طبيبة بالمعنى المفهوم، مازلت في السنة الثانية بكلية الطب، ولكنني أفعل ما أقدر عليه..

لا يرد، فتعقب هي:

- لا تقلق.. حالتك ليست خطيرة.. كل ما تحتاجه هو بعض الراحة فقط..

يحرك شفتاه مجددًا في صعوبة..

- ماء.. أريد بعض الماء..

يبتلع ريقه بعد جهد، وهو ينظر لها، فتستدير هي على عقبيها، وهي تقول:

- بالطبع.. لحظة واحدة..

تذهب إلى مبرد الماء القريب.. تنحني لتملأ الكوب، فيملأ هو عينيه من مؤخرتها وجسدها الفاتن، ولوهلة ينسى كل ما هو فيه الآن..

تعتدل هي، وتستدير إليه لتعطيه كوب الماء.. لا يقوى على النهوض، فتجلس

هي بجواره على السرير، وتساعده على الاعتدال، وتريح رأسه على ساعدها قرب صدرها، ثم بيدها الأخرى ترفع كوب الماء إلى شفتيه..

يشرب.. يشرب كمن لم ير ماءً من قبل.. يروي عطشه أخيرًا، فيبعد يدها في رفق، فتضع هي رأسه على الوسادة من جديد، وتضحك قائلة:

- العطش سيءٌ فعلاً..

يريح رأسه على الوسادة ويبتسم ابتسامة خفيفة.. فتنهض هي في خفة.. هفهافة كالريح.. تقول له:

- أتمنى لو كان بإمكاني البقاء والكلام.. أريد أن أعرف ما الذي حدث لك، فلابد أنه أمرٌ مثير، ولكنني يجب أن أتفقد المصابين الآخرين.. سأعود لك بسرعة..

ثم تتوقف فجأة، وتلتفت إليه:

- قلت لي ما اسمك؟..

يصمت لحظة، ثم يحرك شفتيه، ويخرج الصوت من حلقه أسهل هذه المرة:

- لم أقُل، ولكنه عمر.. عمر إبراهيم سالم..

ترفع حاجباها، وتضحك ضحكة قصيرة، ثم تقول:

- تشرفنا يا عمر إبراهيم سالم..

تتسع ابتسامته أكثر، بينما تتابع هي:

- أنا مي.. مي عبد الرحمن..

تنهي عبارتها ثم تتابع مبتسمة:

- سأعود لك بعد قليل؛ حتى تحكي لي كل شيء..

ثم تدور على عقبيها كالفراشة، وتخرج من الغرفة.. تترك أثرًا عطراً في نفسه يجعله لا يتمالك نفسه من الابتسام.. يشعر بأنها جذبته إليها كفراشة تطير حول زهرة عطرة.. هو بالنضج الكافي ليعرف أنه لا وجود لما يسمى بالحب من نظرة واحدة، ولكنه لا يقدر على الانتظار حتى تعود.. لماذا تجمد كل ما عداها منذ أن وقعت عيناه عليها؟.. توقف الوقت، والهواء، والحياة ذاتها.. لا شيء يتحرك سوى أنفاسه، وعيناه الدائرة تتذكر صورتها غير مصدقة أن جمالاً كهذا يمكن أن يُلقيه القدر في طريقه.. يتذكر عينيها الوجلة وشفتيها الرقيقة، ويتنهد.. يتذكر آدم وخروجه من الجنة لاقتطافه التفاحة.. هل هي تفاحته؟.. ربما، لكنه لا يملك جنة ليخرج منها.. لا يوجد ما يخسره..

لربما كان هذا هو الحيوان الشهواني بداخله يعلن عن نفسه أخيراً، أو رُبما هو مخطيء.. ربما هو بحاجة لمراجعة حساباته.. فمثلها، ومثل عينيها وقوامها البضّ الدافيء لا يتكرر، وربما لو لم يقتنصها، لطارت كما الفراشة، لترفرف حول آخر.. وهو لا يريد هذا..

يدير عينيه في بطء إلى الفرجات التي بين خصاص النافذة، وينظر عبرها

إلى الضوء الذهبي الداخل إلى الغرفة، ويلتقط نفسًا عميقًا..

يجب أن يستريح.. يجب ألا يفكر..

* * *

يفتح عينيه مجددًا.. ترتجف الرؤية أمامه للحظة، فيبدو سقف الغرفة كأنما هو بحرٌ متموجٌ من الذكريات.. يغلق عينيه ويفتحهما من جديد على الواقع.. يحرك جسده على السرير في بطء، وينظر إلى الساعة التي بجانب فراشه..

السادسة ودقيقة..

الضوء الداخل من النافذة يدغدغ عينيه ويثنيه عن الرؤية بوضوح.. تدخل هى إلى الغرفة فجأة، فينظر لها متسائلاً، وهو يعتدل جالسًا في بطء، بينما تشغل هي التليفزيون وتلتقط جهاز التحكم، وهي تبتعد عنه بظهرها وتقترب منه لتجلس بجواره على السرير..

- ماذا هناك؟..

تخرج الحروف بصعوبة، فتلتفت هي إليه، ويطير شعرها مع انحناءة رأسها، وهي تقول:

- بيان من الرئاسة..

ينظر لها نفس النظرة المتسائلة، بينما تقلب هي القنوات، حتى تصل إلى القناة الأولى المصرية..

تمتلىء الشاشة فجأة بمنظر تلك المذيعة قصيرة الشعر، وهي تقول:

- سيداتي وسادتي، نقدم لحضراتكم الآن بياناً هاماً من رئاسة الجمهورية..

تختفي الصورة فجأة، فينظر "عمر" بطرف عينه إلى "مي" الجالسة بجواره.. ويراوده شعور قوي يداعب رغباته، ولكنه يتلاشى فجأة مع ظهور ذلك المتكلم على الشاشة، السيد "عمر سليمان" نائب الرئيس، ومدير المخابرات العامة المصرية السابق..

- بسم الله الرحمن الرحيم.. أيها المواطنون.. في هذه الظروف العصيبة.. التي تمر بها البلاد..

يحدق فيه "عمر" في شرود.. لا يدري لماذا، ولكن ذهنه يشرد ويتذكر والده الذي رحل.. يتذكر والدته قليلة الحيلة.. يتذكر حياته الكئيبة التي لا معنى لها..

- قرر الرئيس محمد حسني مبارك..

يتذكر الثورة.. يتذكر "نبيل".. يتذكر طلقات الرصاص.. يتذكر السجون.. يتذكر الظلام..

- تخليه عن منصب رئيس الجمهورية..

مازال يحدق فيه بشرود.. "مي" تنظر إلى الشاشة في بلاهة واضحة.. لا أحد ينطق..

ثمة ذبابة تطير أمام أعينهم حتى تخرج من النافذة المفتوحة.. ذبابة

حبيسة.. تطير إلى الأفق وكأنما لا تصدق حريتها، وتهرب قبل أن يحاول أحدهم أسرها مرة أخرى..

- وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة..

أصوات الهتافات القادمة من الميدان في الخارج تغطي على كل شيء.. تغطي على صوت أفكارك نفسها، فتشعر أن الهواء يحوي كلامًا..

- لإدارة شئون البلاد.. والله الموفق والمستعان..

دمعة تنحدر على وجنته بدون أن يحس.. يشعر بإحساس لا يمكنه أن يصفه.. إحساس يعتريه ويرجه رجًا، بينما تمتد يدها هي لتلمسه في رفق، فيشعر وكأنما هو يلمس بشرًا لأول مرة.. أصوات الجماهير في الخارج تغطي على كل شيء، بينما دموعه هو تنحدر أكثر وأكثر على وجنتيه.. بلا صوت..

وكأنما الأصوات القادمة من الخارج هي صوت بكائه.. صوتُ من لم يذق طعم الهواء من قبل.. صوت من يشعر بأشعة الشمس تجري على جسده لأول مرة.. الشمس التي تغرب في الخارج، وتطير أمام قرصها الخافت الطيور، لتعلن عن بداية عصرٍ جديد..

عصرٍ يسطع فيه ضوء الشمس في غروبها، فتشعر وكأنما هي تشرق لأول مرة..

وآخر مرة..

* * *

الجزء الثاني

"الأصول"

Origins



- ما هذا يا سامري؟!..

- هذا إلهكم وإله موسى !..

- ولكنَ موسى قد ذهب للقاء ربه !..

- قد نسي موسى.. ذهب للقاء ربه هناك بينما ربه هنا..

- 1 -

تشرق الشمس في الأفق.. الأشعة الذهبية تنتشر لتغطي كل مكان على مرمى البصر، والحشائش والأشجار الخضراء النقية التي لم يلوثها شيء بعد..

إنها الطبيعة النضرة.. في أول وأنقى صورها..

بعض الحيوانات تتقافز هنا وهناك، وصوت بعض الطيور يعطى خلفية موسيقية جميلة للمشهد.. وهناك.. في داخل ذلك الكهف.. تجلس تلك العائلة الصغيرة التي يخجل الجمال من أن يتصف به أفرادها.. فهم يحتاجون لكلمة أعمق من هذه وأرقى تعبيرًا..

ثلاث نساء تجلسن وحدهن، وثلاثة رجال.. يقول أحدهم، الأكبر سنًا على ما يبدو:

– سيتزوج كل منكما بأخت الآخر..

ينظرا لبعضهما في صمت، بينما يتابع هو:

– حفاظًا على البشر.. عسى أن يرزقكما الله بالذرية الصالحة..

يومئ أحدهما برأسه إيجابًا، بينما يصمت الآخر وعلى وجهه نظرة غريبة..

يسود الصمت هنيهة، ثم..

– ماذا هناك يا قابيل؟..

يصمت هو لحظات، وينظر له أخاه وأباه صامتيْن، ثم يخرج الكلام من بين شفتيه بطيئًا..

– ولماذا أتزوج أنا أخته وهي الأقل جمالاً؟.. أسمو لوِصال أختي أنا..

ينظر له والده في صمت لحظة، ثم يقول:

– ليس الأمر كذلك.. الغرض من كل ذاك هو تعمير الأرض كما أمر الله..

– ولكنني لا أريد زواجُها..

ثم أتبع عبارته بالنهوض مبتعدًا..

زفر الأب زفرة حارة، ثم أدار عينه إلى ابنه الآخر الصامت.. لا يعرف ماذا سيفعل.. يجب أن يدعو الله ليلهمه الحل.. لم يلحظ في تفكيره ذلك الواقف هناك في الركن وسط الظلال، يراقبهم وعلى وجهه ملامح لا تميزها بسبب الظلام..

ثم فجأة، لم يعد هناك..

* * *

– أوحى الله إليّ بالحل، فاستمِعا..

نظرا له في صمت، فتابع:

– سيقدم كل منكما قربانًا لله.. فمن يتقبل الله منه سيتزوج من يشتهيها..

هزا رأسيهما متفهميْن، فقال:

- إني ذاهب للحج والدعاء، فلما أعود، سأرى ما صار إليه الأمر..

* * *

يقتربا من بعيد..

ذلك الحقل الأخضر الطويل رائع الجمال، كأنما لم تلوثه عينا بشر..

أولهما يقترب، وهو يقود ذلك الجمل الضخم الجميل بيده.. ذاك هو صاحب الغنم..

ثانيهما يقترب، وقد حمل على يده قممًا من الخضروات.. لا تبدو شديدة النضارة.. ذاك هو صاحب الزرع..

يتركا القرابين في منتصف الحقل.. ثم يبتعدا معًا ليرقبا ما سيقع..

يقف ذلك الغامض هناك بعيدًا في الأفق، يرقبهما وعلى وجهه نظرة غريبة.. لا يبدو على أحدهما أنه يلحظ وجوده من الأصل..

يمر الوقت، وهما واقفان.. لا شيء..

يمر وقتٌ أكثر..

أقدامهما تتعبهما من الوقوف، فيجلسا جنبًا إلى جنب، وأعينهما على القرابين..

يمر الوقت.. لا شيء..

ثم فجأة، من وسط طيات السماء، تدوي تلك الصاعقة، ويهبط لسانٌ طويلٌ

من اللهب ليلتهم الجمل تمامًا ويذروه رمادًا، ولا يمس الزرع..

يحدقان فيما حدث في دهشة، ثم تتحول دهشة الأول إلى غضب، وهو يقول:

– لأقتلنك حتى لا تنكح أختي ..

رد الثاني عليه في هدوء قائلا:

– إنما يتقبل الله من المتقين.. ولئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك.. إني أخاف رب العالمين..

نظر الأول له في غضب، بينما نهض الثاني من مكانة متجهًا إلى الكهف..

وهناك، من بعيد، تحولت تلك النظرة على وجه ذلك الغامض إلى ابتسامة جذلة..

* * *

في داخل ذلك الكهف، يجلسان..

تقترب أنت أكثر منهما، حتى يتسنى لك الإصغاء..

يقول الابن لأبيه الجالس في الركن:

– أنا أعرف ما حدث بالضبط..

ينظر له الأب في تساؤل، ثم يقول:

– ماذا تعني؟..

– أعرف لماذا ذهبتَ للحِج، ولماذا قُبِلَ قربانه، ولم يُقبَل قرباني..

- ولِمَ؟..

أدار الإبن وجهه إليه، وهو يقول في غضب، وصوته يعلو نسبيًا:

- لأنك دعوتَ له، ولم تدعُ لي.. قد كنتَ تريد من الله أن يقبل قربانه هو..

- ذاك غير صحيح.. وأخفض صوتك..

صمت الإبن تمامًا، وهو ينظر إلى الأب في خنوع.. وساد الصمت لبضع دقائق، قبل أن يقول الأب:

- قد أبطأ هابيل في الرعي.. فأذهب وانظر ماذا أبطأ به..

ينهض الابن من مكانه، ويلتقط عصاه الطويلة التي لا يمشي إلا بها، ثم يخرج من الكهف نازلاً إلى حيث يرعى أخوه..

ملامح الغضب والحقد واضحة في كل خلجة من خلجات وجهه.. وخلفه.. في بطء.. يمشي ذاك الغامض غير المريح.. لا يبدو على الابن أنه يراه أو يلحظه.. يقترب الغامض من كتفه، ثم يهمس في أذنه ببعض الكلمات، وهو يمشي بجواره.. لا يبدو على الابن أنه يسمع.. ولكن شيئًا ما يتغير في داخله.. ملامح الحقد تزداد عمقًا.. يضرب بعصاه الأرض في غل..

الابتسامة على وجه ذاك الغامض تتسع، وهو يهمس في أذنه ببضع كلمات أخرى، ثم يتوقف مكانه ليرقب الابن، وهو يتجه نحو أخيه الواقف بعيدًا يرعى أغنامه..

يتقدم منه، فيرفع الثاني عينيه إليه.. يهز رأسه في تحية فاترة، فيقول

الأول:

- ما الذي أبطأ بك؟..

هز الثاني كتفه وهو يقول:

- لا شيء.. قد انشغلتُ في رعي الغنم، ومر الوقت سريعًا..

- قد تقبل منك ولم يتقبل مني.. فلِمَ..

قالها وهو يكلم نفسه..، فنظر له الثاني في صمت، ثم قال:

- كما قلتُ لك.. إنما يتقبل اللّه من المتقين..

يتقبل اللّه من المتقين؟.. هل يعني أنك غير تقي؟..

إنه يسرق امرأتك، ويهينك أيضا !.. أبوك يفضله عليك.. اللّه يفضله عليك.. إنه يحظى بكل شيء، ولا تنال أنت إلا اللوم والتقريع..

غضب.. غضب أعمى لا يجدي معه التعقل.. يقترب منه في بطء.. تنقبض أصابعه على العصا الثقيلة التي بين يديه.. النظرة التي على وجه أخيه.. هل هو الخوف؟.. كلا بالتأكيد.. ربما هو الأسى.. ربما هي الدهشة.. ربما هي الشفقة.. إنه يوشك على قتله بعصا ثقيلة، وبرغم ذلك، فهو لا يشعر حقًا بأنه يخاف منه، أو يحاول الدفاع عن نفسه، وهذا يثير جنونه أكثر..

يثير جنونه لدرجة أنه يرفع العصا إلى الأعلى بكلتا يديه، ثم يهوي بها بكامل قوته على رأس أخيه..

تتفجر الدماء من رأسه، وهو يسقط أرضًا بلا حراك، ولكنه لا يشعر أنه أفرغ طاقته بعد، فيرفع العصا، ويهوي بها مجددًا..

الدماء تتناثر على وجهه وثيابه، ولكنه لا يتوقف.. يشعر أن الغضب قد أعماه، فهو لا يرى شيئًا غير جسد أخيه على الأرض، وغير العصا الدامية بين قبضتيه..

يرفع العصا..

يهوي بها..

يرفعها..

يهوي بها..

صوت العظام، وهي تتحطم..

طعم الدماء المالح الصدئ الذي يتناثر على فمه..

رائحة الموت..

يتوقف أخيرًا، ويرمي بالعصا من بين يديه لاهثًا..

ينظر إلى الجسد الممدد على الأرض..

ما الذي فعله؟..

رباه.. ما الذي فعله؟!..

ذاك الغامض يقف بعيدًا في الظلال، وهو يضحك متشفيًا، ولا يلحظ هو

وجوده، وهو يحدق في يديه التي تملأهما الدماء في ذهول..

لقد قتله..

لا يعرف معنى القتل، ولكنه سلبه حياته..

ينحني على جسد أخيه في لوعة..

- هابيل.. هابيل.. أفِق..

لكن لا رد هنالك.. يبدو جسد أخيه الراقد بلا حراك كخرقة بالية، أشبه بالكابوس الذي يجتذبه معه إلى الأعماق..

يشعر بالسماء تظلم والغيوم تتكاثف.. كأن السماء نفسها حزنى..

تعجز قدماه وعضلات فخذه عن حمله، فيجلس على ركبتيه، وهو ما زال يحدق في جسد أخيه في ذهول، وتلك الدمعة الجافة تجري على وجنته بدون أن يشعر..

ماذا سيفعل؟.. لا يمكنه أن يتركه هكذا.. يجب أن يحمله على ظهره؛ حتى يجد مكانًا يواريه فيه.. ينهض من مكانه.. يحمل الجسد الراقد على ظهره..

يبدأ في المشي.. يمشي ويمشي ويمشي.. يمشي حتى تدمي قدماه، ويتصبب الماء من على جبينه منحدرًا، فلا تدري إن كان دموعًا أم عرقًا.. يمشي حتى تنبض فخذاه بآلامٍ تشي بما يعانيه ظهره من حمل.. لا يدري كم من الوقت مر عليه.. هل هي دقائق؟.. ساعات؟.. سنين؟.. لا يعرف ماذا يفعل.. أين يضع جسد أخيه؟.. تتخلى أقدامه عنه أخيرًا، فيسقط أرضًا..

جسد أخيه بجانبه يجثم على أنفاسه كالكابوس، فلا مهرب ولا خلاص.. ثم من بعيد، يرى ذاك الغراب الأسود يتقاتل مع غرابٍ آخر.. معركة عنيفة تدور بينهما تنتهي بأن يقتل الأول الثاني بمنقاره.. ينظر له هو في شرود.. يتذكر ما فعله منذ قليل.. ثم ينتبه فجأة مع مرأى ما يفعله الغراب..

يحفر بمنقاره في الأرض؛ حتى يصنع حفرة صغيرة، ثم يستدير ويدفع جسد الغراب الميت إلى الحفرة ليلقيه داخلها، ويهيل التراب عليها من جديد بمنقاره.. ينظر له لحظة، ثم يغمغم:

- يا ويلتى.. أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب، فأواري سوأة أخي؟..

ثم نهض من مكانه، وبدأ في الحفر..

وهناك، من بعيد.. يقف ذلك الغريب الغامض يراقبه في جذل واضح.. ومنظر الابتسامة على شفتيه يشي بما يدور في خُلده..

قد فعلها.. أفسد ذرية آدم.. علمهم القتل.. ليكن ذاك هو أول شريعة يعمل من أجلها.. ليكن هذا هو الاختبار الذي يتأكد به من ولاء أتباعه.. ليكن ذلك سلاحه في كل العصور والأزمنة، فقد أثبت فعاليته.. ذرية آدم شديدة الضعف فعلاً.. لم يحتج لأكثر من بضع همساتٍ في أذنه.. يرقبه بعض الوقت، وهو يحفر باكيًا، ثم يستدير مبتعدًا في خطوات ثابتة..

وتتطاير عباءته خلفه مع الرياح..

* * *

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ × لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ × إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ × فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ × فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ"

سورة المائدة.. أية 27 – 31..

* * *

تغيرت البلاد ومن عليها.. فوجه الأرض مغبر قبيح..

تغير كل ذي لونٍ وطعم.. وقل بشاشة الوجه المليح..

أبا هابيل قد قتلا جميعًا.. وصار الحي كالميت الذبيح..

وجاء بشرة قد كان منها.. على خوف فجابها يصيح..

"عن ابن جرير، عن ابن حميد"

"شعر يُعتَقَد أن آدم عليه السلام قاله، بعد أن عرف بمقتل هابيل على يد أخيه قابيل.."

* * *

- 2 -

24 **يونيو..**

2012

PM 3:56

يقف هناك وينتظرها.. يضع يديه بداخل جيبه وينظر إلى الأفق.. السيارات تعبر أمامه، ولا يلاحظ.. يُخرج يديه من جيبه، ثم يفركهما في حرارة، وينظر حوله باحثًا عنها.. تدور عيناه في أركان ذاك الميدان الشهير، الذي اعتاد انتظارها فيه..

يحبها؟.. لا يعرف فعلاً.. ربما هو يحب أن يحبها..

ربما هي وسيلة تُنسيه هموم حياته.. ربما هى شخصٌ يهرب إليه عندما يشتد عليه الشوق.. يعرف أنه لم يجرب أن يحب أحدًا من قبلها، وأنه لن يعتاد الأمر أبدًا.. كان العشق والرومانسية بالنسبة له نوعًا من الضعف الذي يُشعره بأنه ليس رجلاً.. جامد الملامح والنظرات والحس.. لا يظهر ما يبطنه من شعورات، حتى ولو أراد.. هكذا هو دومًا..

تتعلق عيناه بها، وهي تقترب منه من بعيد.. هي.. هي تنتظره دائمًا..

لا تعرف ما جذبها هي إليه.. ربما هي ظروف الثورة التي تقابلا فيها، وجعلت قلوبهما ومشاعرهما على تردد واحد..

ربما هو جزء من مشاعر الأمومة، التي انتابتها تجاه شخص مصاب يرقد أمامها على سرير المستشفى، وينتظرها كي ترعاه..

ربما هي الكآبة التي تطل من خلف عينيه الواسعتين، كبئرٍ يحوي أسرارًا لا يمكن حصرها.. لا تعرف بالضبط.. فقط هي تعرف أن كل الأوقات التي تقضيها معه، تشعرها بحياتها فعلاً.. وبأن ما يجري في عروقها ليس دمًا، بل هو شيء آخر.. داف~ كنارٍ وليدة..

هي تحبه.. تعرف هذا وتوقن منه..

تتشابك الأيادي، وتنظر العيون إلى بعضها نظراتٍ أعمق من أي كلمات.. أحيانًا يشعران بأن الكلام ليس وصيلة التواصل الأقرب، بل أن أعينهما لها لغة خاصة بها.. يفهمان بعضهما بلا كلام.. ينسحبان عبر الشوارع، وتتشابك الكفوف والنظرات، ولا كلام هنالك.. يمران بين جموع الناس العابرة.. فلا يُبعدهما شيء..

أنت لي وأنا لك.. فلتزأر العاصفة، فلا مهرب لي إلا أنت.. هكذا تتكلم العينان..

تتحرك شفتاه أخيرًا..

- ألستِ جائعة؟..

تبتسم ابتسامة خفيفة..

- ربما، ولكن لا أريد الآن..

يوميء برأسه متفهمًا، ويوشك على سؤالها عن أخبارها، ثم يدرك أن هذا لا يهمه في شيء، ولا يأبه.. كل ما يريده هو أن يبقى بجوارها صامتًا.. أن يشعر بكفها في راحته..

يدخلان في وسط مشيهما إلى ذاك الشارع الجانبي.. لا أحد على مرمي البصر.. تتحرك مشاعره بداخل ضلوعه.. ينظر بطرف عينه إليها وإلى جسدها الفاتن.. إلى شعرها المنسدل على عنقها الملتف البض.. لم يكف يوما عن تمنيها في أحلامه، ولم تكف هي يومًا عن التمنع.. يبتلع ريقه ويحاول تمالك أعصابه.. تشعر هي بحركة كفه وأصابعه، وتشعر باحتياجه لها..

لا تشعر بأنها تريد التمنع هذه المرة.. ولا تدري لِمَ.. ربما هو إصراره الطويل.. ربما هي نظرته الكئيبة.. ربما هي وحدته الدائمة التي تُشعرها بمشاعر الأمومة نحوه.. لا تعرف بالضبط، ولكنها لا تريد التمنع هذه المرة.. بل هي تحتاج له.. تترك يده فجأة، وتندفع داخلة إلى مدخل أحد البنايات المجاورة لهم.. ينظر هو إليها في دهشة لحظة، ثم يندفع خلفها وهو يقول:

- مهلاً.. إلى أين تذهبين؟..

تتحرك قدماه، ويدخل إلى البناية ويمشي لخطوتين، قبل أن يشعر بها بجواره تجذبه إليها، ثم تحتضنه بقوة..

يتسمر للحظة.. يشعر بتضاريس وثنايا جسدها تلمسه في قوة.. يشعر

بخجل للحظة شأن من يلمس أنثي لأول مرة في حياته، ثم في بطء، تجري يداه على ظهرها، وهي تستكين بين ذراعيه..

يمر الوقت، فلا يحصره أحدهما، ولا يتذكر.. ثم تتعانق الشفتان.. يشعر بأنه يتذوق ثمرة من ثمار عدن، وعبيرها يزكي أنفه بعبقٍ أطيب من الفردوس.. ينسى نفسه وموقفه تمامًا، ويغرق بداخل بئر عميق لا قرار له.. يغيب فيه، فلا عودة، ولا مفر..

تشعر هي به يضغط جسدها في الحائط بجسده، ويداه تجريان على منحنياتها بلا هدف، ولكن شفتيّه تنسيها كل ما يدور حولها.. ويمر الوقت، وهي بين ذراعيه، لا تشعر سوي بحرارة أنفاسه، وصدقها وهي تغمر وتفعم روحها..

يمر الوقت، وتبدأ حركات ذراعه على جسدها في اتخاذ أهداف معينة.. كفّاها يتجهان لا شعوريًا إلى أزرار قميصه.. تبدأ في فتحها واحدًا بعد آخر، ويعتصر هو شفتيها وصدرها البض.. ثم تتجه إلى أزرار سرواله، وتضع يدها بداخله، وتلمسه شاعرةً بحرارة أنفاسه تلفحها، وتُثيرها أكثر..

يضع يده تحت قميصها ويرفعه ليتلمس جسدها العار، ويلعق ثنايا عنقها، وتحتضنه هي بقوة شاعرة بشهوته المتزايدة في كفه، ثم..

- ماذا تفعل يا أستاذ؟..

قطعت العبارة خلوتهما بغتة، فكأنما دويها كالقنبلة في أذنيهما.. يستديران في سرعة ليجدا البواب واقفًا هناك ينبح كصفارات الإنذار:

– أستغفر الله العظيم.. ماذا تفعل يا أستاذ؟.. أنت في بناية محترمة.. لستَ في بيت دعارة..

يقولها، وهو ينظر إلى "مي" نظراتٍ عجيبة توشك على أن تخترق ملابسها التي تحاول هندمتها، بينما ينظر إليه "عمر"، وهو لا يدري ماذا يفعل.. أزرار قميصه وسرواله المفتوحة تشي بالفضيحة، وصوت الرجل يدوي في أركان العمارة:

– لستَ في بيت دعارة يا أستاذ..

يقترب الرجل منهما ويمسك بذراع "عمر"، وهو يقول:

– أستغفر الله العظيم.. سأطلب لكما الشرطة.. تعال معي..

ينفض "عمر" ذراعه من كفه ويبعده عنه، وهو يقول:

– لم يحدث شيء.. لا لزوم للشرطة..

ويمد يده باحثا عن كف "مي" المذعورة خلفه ليمسكه، بينما البواب يقول:

– أستغفر الله العظيم، لستَ في بيت دعارة يا أستاذ..

يتركه "عمر" خلفه وهو يتكلم، ويستدير متجهًا إلى مدخل البناية، وهو يسحب "مي" خلفه، بينما يجري خلفهما البواب ليمسك "مي" من ذراعها وهو ما زال يردد:

– لستَ في بيت دعارة يا أستاذ..

النظرة الحيوانية التي في عينيه، وهو يقترب منها في نهم تشي بما يريد أن يفعله بها لو اختلى بها لحظة، بينما "عمر" يستدير ويدفعه إلى الخلف في قوة، وهو يجذبها إلى ما وراء ظهره.. صوت أبواب الشقق تُفتح، والخطوات الهابطة على الدرج تقضي على أي محاولة له في أن يضرب البواب، فيستدير جاذبًا إياها خلفه، ويُسرع الخطى خارج البناية، بينما السكان يتساءلون عمّا حدث..

يقسم لهم البواب بأنه دافع عن شرف العمارة، وبأنه طرد عاشقين يختليان ببعضهما، لأن هذا ليس بيت دعارة، وتدور في مخيلته المشاهد المختلفة لما كان سيفعله بـ "مي"، لو كانت وحدها معه.. قبل أن يدخل شَقُّهُ ليصب جام شوقه على امرأته البدينة المترهلة، بينما يمشي "عمر" و"مي" في الشوارع مبتعديْن..

لا يمكن أن يقولا شيئًا لبعضهما.. لا يمكن للكلام أن يعبر عمّا يدور..

إنه الخجل والعار.. يستولي الخزي على مشاعرهما، فلا يدع مجالاً لشيءٍ أخر.. تجذب "مي" كفها من يده فجأة، ثم تقول:

– أنا آسفة.. هذا ليس صحيحًا.. آسفة.. لن أقدر..

وتستدير على عقبيها لتسرع الخطى بعيدًا عنه كغزالٍ وجل، بينما يرقبها متسمرًا في مكانه، لا يفقه ماذا يصنع.. فقط يقف هناك وينظر إلى حيث كانت أعينها منذ لحظة بالضبط..

يمزق الحزن أوصال قلبه، فلا يدري ماذا يفعل.. لا يدري حتى حقيقة ما

يشعر به.. هل هو الحزن فعلاً، أم هو شيءٌ آخر؟..

هل هو الندم؟..

أم الاثنان؟..

ربما هو الغضب أو الإنكار.. عدم التصديق في أعتى صِوَرُه، عندما يتحول إلى وسيلة دفاعية.. لا يمكنه أن يتخيل احتمالية أن عينيّها لن تكون على مرمى عينيه من جديد..

توشك حقيقة نظرتها وتهدج صوتها في تلك اللحظة على أن تصيبه بالجنون.. ربما تقتله قتلاً..

هل هي اللامبالاة؟.. يتذكر "نبيل".. صديقه الثائر الذي استقبل خبر موته بنفس اللامبالاة التي يستقبل بها خبر موت كلب في الشارع.. هو يجب ألا يبالي.. اللامبالاة هي وسيلة دفاعه النفسية، فلو لم تكن هناك، لجُن..

يقف هناك.. فقط يقف هناك..

هل هو الأمل؟.. أمله في أن تعود له من جديد، وتحتضنه وتهدىء ما يعتمل في نفسه، وتقول أنها لن تتركه؟..

أم هو الحنين؟.. حنينه ليوم رآها أول مرة؟.. وسط أصوات الهتافات، والتظاهرات، والاشتباكات، وطلقات الرصاص؟..

ربما هو الاشتياق.. اشتياقه لتلك اللمسة التي أشعرته لأول مرة بأن له قلبًا يدق، وأن له دمًا يجري في عروقه..

اشتياقه لتلك القُبلة التي تمثّلت فيها حرارة الكون بكل شموسه ونجومه وأقماره..

لا يعرف بالضبط..

كل ما يعرفه هو أنه من جديد يفقد رغبته في الحياة.. يشعر بأنها فقدت معانيها.. أو بالأحرى، لا يشعر..

فقط، يقف هناك..

* * *

"وبناءً على ذلك، تعلن اللجنة فوز الدكتور محمد مرسي برئاسة الجمهورية.."

"أصوات هتاف الجماهير في الشوارع، وانفجارات الألعاب النارية تدوي في كل مكان لتغطي على كل شيء"

* * *

صوت صليل المعدن في سلسلة المفاتيح المميز..

يصعد على الدرج شاردًا..

يقف أمام الباب لحظة، لا يدري ما الذي أتى به هنا، ثم ينتبه ويضع مفتاحه في مكانه في الباب ويديره ببطء..

ينفتح الباب أمامه ليدلف إلى الشقة..

يغلق الباب خلفه، ويخلع حذائه ليلقيه كيفما اتفق، ثم يتجه نحو غرفته ويدخلها لتستقبله رائحتها المميزة، فتشعره بالإكتئاب، وتزيد عليه ما يعتمل في نفسه..

يرقد على السرير بملابسه وينظر إلى السقف.. شاردًا.. لا يدري فيما يفكر أو ماذا يريد..

وما الجدوى حتى لو أراد؟.. لم ينل يومًا شيئًا أراده في حياته، فما الذي تغير الآن؟..

يمد يده إلى جيبه، يلتقط هاتفه وينظر إلى اسمها على الشاشة.. ثم يضغط زر الاتصال..

رنين..

رنينٌ طويلٌ.. ولا جواب..

لا رد..

سنة كاملة قضاها معها.. لا يصدق أنها انتهت بذاك الشكل المهين.. جزءٌ منه يشعر بأن هذا يحدث لشخصٍ آخر.. شخص غيره تمامًا.. ليس هو.. ليس هو..

يضع الهاتف بجواره على السرير، ثم يحدق في السقف..

يتذكر الوقت الذي أمضياه معًا.. نجاح الثورة.. أيام المجلس العسكري.. أحداث محمد محمود.. بداية الانتخابات الرئاسية الحقيقية الأولى في

تاريخ مصر.. لم يكن هذا كله يعنيه في شيء، فهي دومًا كانت الثائرة، وكان جَل ما يريده هو أن يكون معها فقط.. لذلك فقد أجبر نفسه على الاهتمام بما تهتم هي به، وأن يحب ما تحب.. فلو قالت له أنها ساحرة وأنها تحب أن تشرب دم الأطفال الرُضع في الليالي المقمرة، لوافقها بلا تفكير، وأبدي إعجابه بطعم الدماء المُسكر الصديء.. هكذا هو دائمًا..

لا يعرف فعلاً هل كان يحبها أم لا.. ربما كانت تملأ ذاك الركن الفارغ في حياته، وتضفي عليها بعض الإثارة والمرح.. ربما كانت في الواقع تجعله يميل للحياة، وينتظر اليوم التالي في شغف؛ لأنه يملك شيئًا يفعله، وأحدًا يكلمه.. ربما لم يكن يحبها فعلا، ولكن ذلك الثقب في قلبه يورثه ألماً لفراقها يكاد يفقده صوابه.. وألم الفراق دليلٌ واضحٌ كالشمس على أنه كان يحبها..

يبتسم قليلاً، تترقرق الدموع في عينيه، وهو يتذكر الخطط التي بناها معها.. الزواج، والسيارة الصغيرة التي سيحصل عليها، بعد سنين من العمل كثورٍ في حقل.. أسماء الأطفال.. كان يحب اسم "آدم" جدًا، ولا يدري لماذا..

تبهت الابتسامة على شفتيه، وتبدأ الدموع في التساقط فعلاً، وهو يتذكر اشتهاءه لها.. كم من مرة حلم بها تسكن سريره، وتحتضنه وتشعره بدفئها ليشعرها بفحولته.. كم من مرة رفضت وتمنعت.. وعندما أوشك على أن ينالها أخيرًا، انتهى كل شيء.. كحلم عابر في ليلة صيف.. لا يبقى له أثر إلا قشعريرة الحنين، التي تتملك قلبه كلما تذكر..

هل هو يكذب على نفسه حقًا؟.. هل كان فعلا يتوقع أن يتزوجها بأحواله المادية الحالية، حتى لو لم يفترقا؟.. كاد الأمر يوشك على أن يكون مستحيلاً.. ولكنهما كانا حالميْن.. حالميْن حُرِما من الحق الفطري الطبيعي الذي يناله أي برص يغفو في شقٍ في الحائط، أو أي كلبيْن يتراكبان تحت سيارة.. حُرما من الزواج.. لأنهما في مصر.. مصر التي لم تغير الثورة فيها شيئًا..

لربما لو كان أباه موجودًا، لساعده..

لأخذ بيده وأرشده في طريق الحياة الصحيح.. ربما لم تكن الأمور لتكون متعثرة كما هي الآن.. ما زالت والدته موجودة، ولكن ما عساها أن تفعل سوى الحزن عليه.. لا شيء بالتأكيد.. الأمور كلها على عاتقه هو، فلا نزل القطر..

تنهمر الدموع مدرارًا على وجنتيه، بينما تفتح والدته الباب وتدخل لتنظر إليه في دهشة، ويهالها مرأى عبراته، فتقترب منه وتحتضنه لتهديء من روعه، ولا يحاول هو إبعادها؛ فهو لم يعُد يقدر..

لا يبالي.. كما كان الحال دومًا..

وتبدأ الشمس في المغيب..

* * *

يجلس أمام شاشة الكمبيوتر شاردًا..

عيناه تجري على أرقام الأشخاص الذين أمامه بلا اهتمام..

لا يقدر على العمل وتلقى الشتائم اليوم، ولكنه يجب أن يعمل.. ليس الخيار ترفًا متاحًا..

أصوات زملائه من حوله، وهم يتحدثون في السماعة التي على آذانهم تدخل إلى مجرى تفكيره..

– مرحبا بك مستر ريتشارد.. معك إيدي روبنسون من شركة "...." ، كيف حالك؟..

صوت إغلاق السماعة المهين ينبعث في قوة، برغم قدرة السماعة المحدودة، فيبدو أشبه بصفعة على وجه الفتى الجالس، ولكنه لا يشعر بالإهانة.. بل يبدأ في طلب الرقم التالي في شغف.. وكأنه يحب تلقى الشتائم وإغلاق الخط في وجهه!..

هكذا هم دائمًا..

يتقمصون أسامي غربية ملفقة، ويتصلون بالغربيين المحترمين؛ ليبيعوا لهم الهواء، متوقعين الأفضل دومًا، دون أي مبالاة بسيل الشتائم التي تنهار على مسامعهم كل يوم..

وكأنه لا هوية لهم.. لا كرامة.. شعب عالم ثالث حقير، لا حق له في الحياة إلا بإذن سادته..

– مرحبًا بك مستر تومبسون، اسمي كيفين براون من شركة "...." ، كيف حالك؟..

سيل الشتائم المنبعث من السماعة يتعالى فوق الأصوات الأخرى.. ثم يسود الصمت بعد تلك التكة الخافتة.. علامة غلق السماعة الشهيرة..

زفرة حارة تنبعث من أعماقه وهو يتراجع في مقعده.. إنه فعلاً لا يريد العمل اليوم، ولا يقوى.. قد اكتفى من تلقي الشتائم لفترة طويلة للغاية..

يتعالى الصوت من خلفه..

- عمر.. لماذا لا تعمل؟..

يلتفت خلفه في سرعة ليجد مديره يقترب منه في بطء، فقال:

- أبحث عن أرقام جديدة..

نظر له المدير ذو الوجه السمج في شك، ثم هز رأسه هزة بسيطة، وهو يقول:

- فلتنجز وقتك إذًا..

أومأ "عمر" برأسه علامة الإيجاب ثم استدار في مقعده ليواجه شاشة الكمبيوتر، ويبدأ في فتح صفحات مواقع الأعمال ليبحث عن الأرقام.. ظل مديره يراقبه بعض الوقت..

كان مديره مثالاً للشخص السمج.. ينظر بسماجة.. يتكلم بسماجة.. يأكل بسماجة.. يبتسم بسماجة.. حتى الاسم الغربي الذي اختاره لنفسه كان له وقع سمج على الأذن.. "ريك ميسون".. إنه ذلك النوع من الأشخاص شديدي الضحالة ذوي الفكر الجاهل، والذين برغم ذاك يعتدون بأنفسهم

في غرور واضح لا تفقه له سببًا، شأنهم في ذلك شأن كل الجهلة منذ بدء التاريخ..

دومًا ما تجد الجاهل فارغ العقل مغرورًا بشكلٍ لا يحتمل، وكأنما لا أحد غيره في الدنيا، بينما تجد المثقفين الحقيقيين، ذوي الأدمغة الناضجة المتعلمة الموهوبة، مترددين دومًا بلا ثقة في أنفسهم في الغالب.. والسبب أنهم يعرفون الحقيقة المؤلمة، وهي أنهم ليسوا أذكياء كما يتصورون.. كذا هو الحال دومًا.. يمكنه أن يصف المجتمع كله بتلك النظرة النمطية..

يفيق من تأملاته فجأة على صوت أصدقاءه الثلاثة الجالسين معه، وهم يتمازحون، فينظر إلى الساعة أمامه على شاشة الكمبيوتر ليجدها تشير إلى وقت الاستراحة، فيخلع سماعته من على أذنه ويضعها على المكتب، ثم يتراجع في مقعده، وهو يتمطى نافضًا التعب من جسده.. وبالفعل تثاءب..

مر أحد زملائه من جواره وربت على كتفه في قوة قائلاً:

- هيه.. ألن تنهض يابن العاهرة؟.. أم أن الكرسي به ما يعجب مؤخرتك؟..

وانفجر في الضحك هو والاثنان الآخران باعتبار هذا ظريفًا جدًا.. كانت لهم طريقة مميزة للمزاح والضحك، وهي أن يصف كل واحد فيهم أم الآخر بأنها عاهرة، أو أن يتهمه بأنه شاذ بشكل ما.. كان هذا بالنسبة لهم هو المرح، ولا شيء سواه.. وبالطبع لابد أن يتبعوا كل مزحة من هاته بالكثير من الـ "هاع هاع هاع" وأصوات الشخير..

- هاع هاع هاااع.. خخخخخخخ..

ها ها ها.. كل هذا ظريف..

نظر له "عمر" في صمت، ثم رفع إصبعه الوسطى في مواجهته.. تلك الحركة البذيئة الشهيرة.. فالتفت إلى الخلف وخرج من الباب، وهو يتحدث مع الآخر، بينما الثالث يكلم شخصًا ما على هاتفه المحمول..

زفر في حرارة، وهو يلتقط هاتفه من على المكتب، ثم نهض من مكانه متجهًا إلى سطح البناية الصغيرة التي يعملون في الطابق الأخير منها.. كانوا دومًا يحظون باستراحتهم في ركن السطح الهادىء، حيث الهواء المنعش في ساعات الليل الأولى..

كان باب السطح متصلاً بمكان عملهم في نفس الطابق.. بابٌ زجاجيٌّ منزلق، فتحه ثم خرج إلى الهواء متجهًا إلى المنضدة والكراسي التي يجلسون عليها جميعًا..

أصوات ضحكاتهم تتعالى في أذنه وهو يجلس.. ثم يسمع أحدهم يقول:

- وما الذي فعلتَه معها؟..

مال الآخر في مقعده مقتربًا منهم، وهو يقول:

- قد فاجئتني، ولكنني أدخلتُها إلى الشقة.. من حسن الحظ أن أبي وأمي كانا في السفر.. كنت أعد لها كوبًا من الشاي، لكنها لم تتركني أستكمله؛ احتضنتني من الخلف وأخذت تقبل عنقي، فاستدرتُ لها و..

فقد "عمر" تركيزه مع ما يُقال في تلك اللحظة، وأخذ يرمق نظراتهم له،

وهو يتكلم.. الشهوانية الحيوانية التي في العيون تشي بالمستقبل الباهر الذي ينتظر المجتمع، الذي يلقى بفتاة عاثرة الحظ في طريق أحدهم.. يحدقون فيه في شغف، وكل واحد فيهم يتخيل ما الذي كان سيفعله بتلك الفتاة، لو كانت معه هو.. كُلٌّ على طريقته..

- واكتشفتُ في تلك اللحظة أن الأوقية انتهت كلها..

ضحكات كثيرة.. وأصوات شخير..

أحدهم يخرج سيجارة من علبة سجائره، ويشعلها في حنكة ملتقطًا نفسًا طويلاً منها، بينما ثمة عصفور يهبط على حافة السور بجوارهم، ثم يطير مجددًا هاربًا من عمود الدخان الذي ينفثه صاحب السيجارة صوبه.. والآخر يكمل:

- ارتديتُ ملابسي من جديد، ثم تركتها عارية على السرير، ونزلت إلى الصيدلية التي أسفل شرفة منزلي لأشتري المزيد من الأوقية، ولكن المشكلة أن الواقفة في الصيدلية كانت فتاة..

- هاع هاع هاااع..

ضحكات، وأصوات شخير..

- وماذا فعلت؟..

نظر لهم مبتسمًا في جذل، وهو يقول:

- ماذا تظن؟.. نظرتُ لها في وقاحة وطلبتُ خمسة.. ارتبكت هي للحظة،

ثم التقطتهم وألقتهم لي في اشمئزاز، فوضعتُ النقود على الكاونتر، واستدرتُ خارجًا بسرعة..

- هاع هاع هاااع..

نظر له "عمر" ولم يتمالك نفسه من الابتسام، عندما تخيل الموقف، بينما تابع المتكلم:

- وصعدت السلم ركضًا، وأنا أخلع ملابسي، ثم قفزت بين فخذيها.. ثلاث مرات في ساعتين، وكانت تطلب المزيد.. لولا الوقت، لقضينا الليلة معًا..

صيحات الاستحسان من الجالسين تزيد فرحته بفحولته، برغم أن "عمر" يعرف أنه في الغالب يكذب بخصوص الأمر برمته، أو أنه حدث بالفعل، ولكن ليس بتلك التفاصيل..

ألتفت أحدهم إليه بغتة وقال:

- وأنت يا عمر.. ماذا فعلت مع تلك الفتاة التي حكيت لنا عنها؟.. تلك الطبيبة.. ماذا كان اسمها؟.. هاجر؟..

صححه أحدهم:

- بل مي..

- نعم نعم.. مي.. ماذا فعلت معها؟..

تنهد "عمر" لحظة متذكرًا، ثم قال:

- لا شيء.. تركتها..

نظروا له لحظة في دهشة متسائلة، بينما قال ذاك الذي سأله:

- ولِمَ؟.. قد كنت تحبها.. أو كذا كنت تقول..

صمت "عمر" لحظة ابتلع فيها ريقه.. بالطبع لابد أن يدعي أنه هو من تركها.. تلك هي شيمة الشباب في كل مكان.. لا يمكنه أبدًا أن يعترف بأنها هي من تركته، حتى لا يصبح أضحوكة بين أقرانه..

- مللتُ منها.. لم يعُد هناك شيء جديد، ففضلت الابتعاد..

أومأ برأسه متفهمًا، بينما تدخّل أحدهم في الحوار، وهو يقول بصوت خافت ناظرًا حوله في حذر:

- اسمعوا..

نظروا له متسائلين، فأردف:

- معي إصبعان.. واللفائف..

تسمروا لحظة، ثم ابتسموا، وقال ذاك الذي كان يحكي مغامرته مع الفتاة:

- إذًا دعونا نلف سيجارتيْن الآن..

قال الآخر مستنكرًا:

- هل جننت؟.. لو انتبه ريك، لكانت نهايتنا جميعًا..

شرد تفكير "عمر" لحظة.. تُرَى لماذا يصرون على مناداة المدير باسمه

الملفق؟.. هل لأنهم اعتادوا دومًا أن يكون سيدهم ذو اسمٍ غربي؟.. ربما كان الأمر يعطيهم إحساسًا بالأهمية لا شك فيه..

- لن ينتبه.. لا تقلق..

قالها الأول، ثم بدأ فعلا في فرد اللفائف على فخذه، بينما أخرج أحدهم قداحة، والتقط أحد إصبعي الحشيش من ذلك الذي جاء به، ثم بدأ يذيبه.. أو "يسيحه" كما يقولون..

بدأ "عمر" في التوتر، وبدأ ينظر حوله باحثًا عن أي عينٍ ترقبهم، بينما الآخرين يلفون السجائر، ويقومون بتذويب أصابع الحشيش إلى قطع متساوية يضعونها في عناية بداخل كل سيجارة.. ثم يلعقون طرف الورقة بلعابهم؛ حتى تلتصق وتكون السيجارة..

- هل سندخنهم هنا؟..

قالها صاحب الحشيش، فرد عليه الثالث:

- ولِمَ لا؟.. لا أحد هنا ولا أحد سيرى.. وأنا أحتاج إلى ضبط مزاجي بصراحة..

قالها، والتقط القداحة من صاحبها، وأشعل السيجارة لينفث منها..

لم يكن "عمر" مدخنًا، ولكن رائحة السجائر كانت معتادة بالنسبة له.. إلا أنه لم يكن قد اعتاد رائحة الحشيش كثيرًا كما الأولى، فسعل سعلة بسيطة امتزجت بصوت الباب المُنزلق، وهو ينفتح.. التفتوا جميعًا خلفهم في

ذعر، وهم يحاولون أن يخبئوا ما يمكن إخفاءه، فقال المدير:

- ماذا تفعلون؟..

نظر لهم "عمر" في توتر، وهو يشعر بدقات قلبه تتسارع، بينما قال صاحب القداحة في ثبات، وهو يخفي السيجارة بين أصابعه:

- لا شيء.. نتحدث فقط.. كلنا متعبون..

نظر له المدير في شك، ثم تشمم الهواء بأنفه بضع مرات، أتبعها بقوله:

- وما هذه الرائحة؟..

وانتبه إلى التوتر البادي على وجه "عمر" كأنما ضبطه متلبسًا بالزنا، فتابع:

- ماذا تخبئون؟..

- لا شيء..

انتبه هو إلى خيط الدخان المتصاعد من خلف جسد المتكلم، فمد يده يمسك بذراعه قائلاً:

- ما هذا؟!..

قاوم الفتى، وهو يغمغم ببعض الكلمات الغير مفهومة، تلاشت كلها مع مرأى سيجارة الحشيش التي في يده، فخرس تمامًا.. وساد الصمت لوهلة، والمدير يحدق في السيجارة، ثم قال في هدوء:

- حشيش..

لم ينطق أحدهم، فصمت هو لحظة، ثم قال:

- اتبعوني إلى مكتبي.. كلكم..

قالها وهو يلقي السيجارة تحت قدمه ويسحقها بحذائه، ثم استدار متجهًا إلى الباب بلا كلمة أخرى..

نهضوا جميعًا واجمين خلفه، وأخفى صاحب إصبعي الحشيش باقي السجائر في ملابسه..

اتجهوا إلى المكتب، فدخلوه في صمت ووقفوا أربعتهم أمام المكتب، بينما المدير يجلس على الكرسي أمامهم، ثم يرفع عينيه إليهم وهو يميل في مقعده ويستند بكوعه إلى المكتب قائلا:

- من صاحب الحشيش؟..

لم ينطق أيهم، وهم ينظرون إليه في صمت، فأردف:

- أمامكم خياران.. إما أن تجيبوا عن الأسئلة، وتخبروني من صاحب الحشيش، وإلا طردتكم جميعًا..

لم يرد أحدهم، فصمت لحظة، ثم قال:

- أنا لا أمزح.. سأطردكم جميعا.. هذه آخر فرصة.. لو كان أيكم يريد الكلام، فليتكلم..

هل يصمت؟.. هل يتكلم؟..

حسبة عقلية بسيطة دارت في ذهنه.. لو صمت، فسيطردهم جميعًا.. وحتى لو تكلم أحدهم وقال الحقيقة، فصمته يعني أنه مذنب، وسيُطرد في كلتا الحالتين.. وهو لا يمكنه أن يُطرد.. إنه يحتاج إلى العمل.. إنه بحاجة إلى النقود في آخر كل شهر من أجله ومن أجل والدته.. يجب أن يتكلم..

خرج صوته على استحياء، وهو يشير إلى صاحب الحشيش، وصاحب القداحة، والثالث الذي كان يدخن:

- هم الثلاثة..

نظر له المدير متسائلاً، بينما استداروا له، وهم مندهشون، فأردف بسرعة قبل أن تهزمه الرهبة:

- هم الثلاثة أحضروا حشيشًا، وقاموا بلف السجائر هنا وتدخينها..

أدار المدير عينه لهم في اتهامٍ واضح، فانبروا مدافعين عن أنفسهم:

- إنه كاذب..

- ليس نحن، أقسم لك، بل هو من فعلها..

- كان يريد التقرب منّا لأنه لا يملك أصدقاء، فابتاع الحشيش وأهداه لنا.. هو من يحمله معه الآن..

نظر لهم في دهشة مستنكرًا، بينما نهض المدير من خلف مكتبه، وأصواتهم تدوي:

- فتشه.. إنه يخبيء الحشيش في جيبه الخلفي..

وضع المدير يده على جيبه الخلفي، وتألقت عيناه في ظفر، بينما تابع ذاك الذي يتكلم:

- يريد أن يلصق الأمر بنا حتى لا يُطرَد هو..

أخرج المدير يده من جيبه بقطعة الحشيش، وهو يرفعها أمام وجهه، ونظرة عينيه المتهمة تغني عن أي كلام، فهز عمر كتفه في استنكار، وهو يرفع حاجبيه في ذهول..

قد وضع الوغد الحشيش في جيبه بدون أن يشعر.. ذلك هو التفسير الوحيد..

- ليس أنا.. أنا لا أدخن حتى!..

قال ذلك المتكلم بصوت أعلى:

- وماذا في هذا؟.. لا يجب أن تكون مدخنًا لتبتاع الحشيش..

رفع المدير راحته علامة الصمت، ثم قال:

- أنت مطرودٌ يا عمر..

صمت "عمر" تمامًا، وهو ينظر له غير مُصدِق، بينما أردف المدير:

- اخرج ولم حاجياتك، ولا تأتِ هنا مجددًا..

هل كان المدير حقًا يُصدِق؟.. من يدري؟.. ربما كان يعرف أنهم كاذبون

وأنه صادق، ولكنه كان يفضلهم عليه.. كان يحبهم لأنهم "مدردحين" كما تقول الكلمة الشعبية، ولأنهم لا يُشعرونه بجهله وسماجته طوال الوقت، كما يفعل "عمر".. أن تكون مجبرًا على مواجهة موظف أكثر ذكاءً ونضجًا منك يعمل تحت إمرتك لهو شيءٌ شنيع.. كابوسٌ يتكرر بشكل يومي كلما نظرت في عينيه التي تتبدى بوضوح نظرة السخرية والاستعلاء الثقافي المطلة منها.. نظرة من نوع "أنت هنا لأن هذه نهايتك، ولن تصبح شيئًا أو تحقق نجاحًا أكثر من هذا في حياتك.. أما أنا فأذكى، وأصغر، وأكثر نجاحًا منك، والمستقبل كله ملكٌ لي".. كان الأمر يثير جنونه..

ما لم يكُن يعرفه "عمر" هو أن المدير لم يكن ليجرؤ على أن يطرد أربعتهم بالتأكيد.. كان سيكتفي بطرد واحدٍ أو اثنين على الأكثر.. ولكن طردهم جميعًا من شأنه أن يُدمر بيئة العمل، لأن الشركة كلها تعمل في مجال المبيعات، وهي صغيرة لا تضم موظفين غيرهم.. يمكنه بالطبع أن يطرد ذاك الذي رآه يدخن، ولكن لماذا يطرده وطرد "عمر" خيار متاح؟.. إنها صفقة رابحة من جميع النواحي.. سيتخلص من ذلك الذي يشعره بفشله طوال الوقت، ولن يقدم شيئًا سوى التغاضي البسيط عن ذاك الذي كان يدخن.. ربما يخصم له يومًا أو اثنين، لكن هذا كل شيء..

و "عمر"؟.. لم يتوسل أو يستعطف أحدًا من قبل، وهو ليس على وشك البدء الآن.. فكرامته فوق كل شيء.. ثم إن ذلك سيكون ممتعًا للغاية بالنسبة للمدير الذي سيحظى بأسعد لحظات حياته، وهو يتصنع الأسف رافضًا استعطافه في ذوق، وقلبه يرقص من الداخل.. لا.. لن يهديه مثل

ذلك الشعور..

تداخلت جميع الأصوات مع بعضها في رأسه، وهو يستدير، وخفتت تماما في عقله، فلم يعد يسمعها، وهو يفتح الباب خارجًا، ثم يغلقه خلفه في هدوء..

قد انتهى كل شيء..

* * *



- 3 -

"وشدد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بني إسرائيل، وبنو إسرائيل خارجون بيد رفيعة "14: 8" فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه، وهم نازلون عند البحر عند فم الحيروث، أمام بغل صفون "14: 9" فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم، وإذا المصريون راحلون وراءهم. ففزعوا جدًا، وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب. "14: 10" وقالوا لموسى: هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ "14: 11" أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين: كف عنا فنخدم المصريين؟ لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية "14: 12" فقال موسى للشعب: لا تخافوا. قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم. فإنه كما رأيتم المصريين اليوم، لا تعودون ترونهم أيضا إلى الأبد "14: 13"..".

"سفر الخروج من 14: 8 إلى 14: 13"

* * *

تحوم بناظرك من عَلٍ مقتربًا من ذلك المشهد الذي يدور أمامك..

صوت الرياح البحرية القوية تتداخل مع صوت الأمـواج العاتية، فتعطى للمشهد طولاً، وعرضًا، وارتفاعًا، ورائحة..

شيء ما يبدو غير طبيعي في المشهد.. تقترب أكثر حتى تتضح الصورة..

رذاذ الماء الذي يتناثر في وجهك ويبلل كل شيء.. رذاذ البحر المتطاير من أمواج البحر المنشق..

البحر المنشق من وسطه بالضبط بطريقة مستحيلة فيزيائياً، ليعبر من خلاله جموع الناس الذين يركضون على الرمال المبتلة، وخلفهم تلك المجموعة الأكبر..

وهناك، وسط هؤلاء الذين يركضون، التفت هو خلفه في رعب وهو يجري، وآثار ارتياعه كمية الراكضين على أرجلهم وعلى الأحصنة، والذين يقتربون بسرعة، فتعثّر في صدفة بحرية حادة تحت قدمه، ليسقط على وجهه، وتملأ الرمال المبتلة فمه، وتتناثر في عينه.. الركض على الرمال المبتلة دومًا صعبٌ جدًا، خصوصًا عندما تمتلىء بالحيوانات البحرية، والصدف، والصخور..

ينهض من مكانه بسرعة ويواصل العدو، بينما أحد الراكضين يعبر من جواره بحصان هزيل، فيتمنى لو أنه يمتطيه وراءه..

ولكنه الركض.. الركض، ولا شيء سوى الركض..

رذاذ الماء المالح يتناثر في كل مكان، بينما نظرةٌ منه على الأمواج الأعلى من الجبال على ناحيتي الممر الرملي الواسع الذين يركضون فيه تملأ قلبه وجلاً.. لا يمكن أن يفهم عقله ماهية القوة الغامضة التي تمنع تلك الأمواج من أن تنطبق عليهم وعلى مطارديهم، فتفنيهم تمامًا..

يسمع ذلك الصوت الهادر القادم من أمامه.. صوته.. ماذا يقول؟..

إنه دعاء.. يميز فيه كلمة اللّه بوضوح، ولكنه لا يميز باقي الدعاء مع الضوضاء حوله..

السماء نفسها تسوّد، وتبدو السحب التي تتشابك مع بعضها وتدور أشبه بغضب الإله نفسه.. نظرة منه إلى ما خلفه تريه بوضوح ذلك الضخم الذي يطاردهم على متن فرسه الأبيض..

إنه فرعون..

شكل الذهب الذي يرصع كل شبر من ملابسه وسراج جواده يشي بهذا بوضوح.. يضغط بقدميه على بطن الجواد، فيصهل وتزداد سرعته، فيلتفت هو، ويجري كأن الشيطان يطارده.. والأمواج.. رذاذها يتناثر في كل مكان، والرمال المبتلة التي تتطاير موضع الأقدام الراكضة تخلق مشهدًا مريعًا..

المسافة بين الجماعتيْن تقترب..

صدره يصدر صوتًا أشبه بالصفير، وذلك الألم في جانبه وقلبه يتصاعد ليقضي على أي محاولة له للصمود.. سيموت لو لم يتوقف الآن ويلتقط أنفاسه.. ولكنه يعرف أنه لو جرؤ على الوقوف، فسيموت على أي حال، فيحاول أن يضغط على جسده أكثر ويواصل الركض.. جسده الذي لا يطيعه، ولا تخرج منه طاقة كافية ليحرك بها قدميه، فيتعثر ويسقط أرضًا من جديد بلا حراك.. أنفاسه الملتهبة تتوالى، وهو لا يقدر حتى على التقاطها، وتتراقص أمام عينيْه الزائغتيْن صورة فرعون وجنوده، وهم

يقتربون بسرعة مخيفة..

إنها النهاية..

تميد به الأرض، وتسوّد الرؤية أمامه، فلم يعد يرى ما يحدث، ولكن صوت ارتطام الأمواج ببعضها يدخل إلى أذنه كدوي هزيم الرعد، فيرج جسده كله رجًا.. ويسرى الرعب في أطرافه مجرى الدم.. يحاول أن يفتح عينيه ليرى، بينما أحد الراكضين يمسكه من تحت إبطه ويحاول جره..

لا يمكن أن يكون ما يراه حقيقيًا..

إن البحر ينطبق على نفسه من جديد !..

الأمواج تلتئم، والمياه المالحة تتناثر في وجوههم جميعًا وتنتزع بعضهم من أماكنهم..

وكان مشهد جسد الفرعون، وهو يتحطم، ويتمزق، ويختفى تمامًا وسط الأمواج العاتية هو أخر ما رآه، قبل أن يغشى عليه تمامًا..

* * *

"فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطيء البحر"

"سفر الخروج 14: 30"

* * *

يفتح عينيّه في بطء..

يستيقظ..

الرؤية مشوشة أمامه، فلا يعي ما يراه بالضبط، حتى تبدأ غيوم ذهنه في الانقشاع تدريجيًا..

منظر الصحراء..

الرمال..

الشمس الحارقة في كل شبر من الأفق، والدخان المتصاعد من جلودهم التي توشك على أن تذوب من الحرارة..

ينظر إلى ذاك الذي يسحبه خلفه، إنه نفس الذي انتشله وسط البحر، حينما تعثر.. يحرق جلد قدمه العارية، وهو يجره فوق الرمال بتلك الطريقة.. الاحتكاك يولّد حرارة فوق حرارة الرمال توشك على شي قدمه شيًا..

يربت على يده بقوة أن أتركني، فتركه.. يرقد قليلاً فوق الرمال، ثم يهب واقفًا قبل أن يحترق ظهره.. لا يقدر على الوقوف فوق الرمال حافيًا.. أحد الماشين في القافلة خلفه يناوله حذاءً مهترئًا يرتديه على قدمه ليستره قليلاً..

وهو..

هو يتقدمهم جميعًا بعصاه الطويلة التي يغرسها في الرمال مع كل خطوةٍ يخطوها، بطريقة تشعرك أنه يقاتل الصحراء نفسها؛ ليشق طريقه وسط

اللهيب..

جواره أخوه "هارون" يمشي في إثره صامتًا.. الصمت أبلغ من أي كلماتٍ تُقال.. فلا حروف يمكنها أن تصف رهبة المشهد المتمثل في وسط ذاك القفر، ولا جلال المهمة والغاية التي يكافحون من أجلها..

إنهم ذاهبون نحو الخالق.. نحو أرض الميعاد..

إنه الخروج..

* * *

"وقال لهما بنو إسرائيل: ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع. فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع"

"سفر الخروج 16: 30"

* * *

الحرارة.. والشمس.. والعرق..

وهو..

يمشي، وهو يضع يديه على رأسه بقطعة القماش المبللة الصغيرة التي أخذها من أحدهم.. الشمس توشك على أن تحرق شعره ذاته، والماء شحيح.. لا طعام حتى..

العرق على جلده يتبخر، ويحرق عينه بذلك الملمس المالح المميز..

الرمال تبدو أشبه بقطعة من الجحيم.. الأبخرة تتصاعد من العرق على الجلود، والرؤية نفسها تتلألأ على مرمى البصر لتشي بالحرارة الحارقة..

ثم المشي..

لا شيء غير المشي..

التعب يبدو واضحًا على خلجاتهم.. لأول مرة لا تبدو فكرة الخروج من بطش فرعون سديدة إلى ذلك الحد.. إنهم يوشكون على الموت جوعًا وعطشًا، ولا طعام أو ماء أمامهم على مرمى البصر..

هو هناك.. يتقدمهم كالعادة، غارسًا عصاه في كل خطوة في الرمال، ويتطاير شعره في الهواء خلفه.. تلك العصا التي رآه يصنع المعجزات بها.. بدءً من تحويلها لثعبان، وحتى شق البحر كاملاً لتتبدى اليابسة في وسطه..

أخاه هارون يتبعه صامتًا، تتناثر الرمال تحت وطأة خطواته، والصمت يسود على المشهد..

يتنهد وهو يمشي في صمت.. يضيق صدره بالضجر على كل هذا.. الجوع يوشك على أن يصيبه بالجنون، ويسمع صوتًا في عقله لا يتركه وحيدًا للحظة..

يمر الوقت.. المشي ثم المشي ثم المشي.. ولا شيء غيره..

ثم تبدأ الهمهمات.. همهمات خافتة تتعالى تدريجيًا، ويبدو السخط واضحًا على جنباتها..

يتوقف هو و"هارون" ليسمعا ما يُقال، ثم ينظرا خلفهما متسائلَيْن..

أحد الناس يتكلم..

– نوشك على الموت جوعًا وعطشًا.. لا أقوى على المواصلة..

آخر يضيف:

– أأخرجتنا من مصر لكي تميتنا جوعًا؟.. قد كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل ونشرب ونشبع، والآن نحن نتضور، ونوشك على أكل الرمال..

ينظر إلى ملامح وجهه، وهو يرقب تذمرهم في صمت.. جموعهم تلتف حوله، وهم يتكلمون في نفس الوقت، فلا يميز منهم أحدًا، إلا أن شيئًا معيناً يلفت انتباهه، فيدقق النظر..

ذاك الواقف وسطهم مرتديًا تلك العباءة الطويلة التي تتناقض مع ثيابهم الرثة.. صامتٌ تمامًا لا يتكلم، ولكنه يميل على آذانهم من حين إلى آخر ليهمس بشيءٍ ما، ولا يبدو على أحدهم أنه يلحظ وجوده أصلاً.. من هذا؟..

يدير عينيه إليه وإلى "هارون".. يستمع إلى تذمر الناس، ويبدو عليه أنه ينصت إلى صوت آخر.. ثم يقول فجأة:

– في الصباح ترون مجد الرب لاستماعه تذمركم..

يبدو عليهم الضجر أكثر، وهم يتصايحون ويشيحون بأيديهم.. يدير عينيه إلى ذاك الغامض الذي كان يقف هناك منذ لحظة.. ليس هناك.. اختفى تمامًا، وكأنه لم يكن..

يعتريه شعور مقبض، ويدير عينيه مرة أخرى إلى النقاش الحاد الدائر.. يشعر بأن قومه غاضبين إلى حد غير طبيعي، ويبدو ذلك واضحًا على تعبيراتهم وكلامهم.. جزء منه يشعر أن ذاك الذي رآه يهمس في آذانهم لم يكن واحدًا منهم..

بل هو شيءٌ ما..

شيءٌ آخر..

* * *

"وقال موسى: ذلك بأن الرب يعطيكم في المساء لحمًا لتأكلوا، وفي الصباح خبزًا لتشبعوا لإستماع الرب تذمركم الذي تتذمرون عليه. وأما نحن فماذا ليس علينا تذمركم بل على الرب"

"سفر الخروج 16: 9"

* * *

بعد خروج "موسى" وقومه من مصر، وبعد ما كان من أمر فرعون الذي غرق أمام أعين المصريين وبني إسرائيل، وعلى الرغم من كل ذلك، ظل أثره باقيًا في نفوس المصريين وبني إسرائيل..

كانوا مازالوا يقدسونه.. فقد تكفلت سنوات طويلة من الذُل والهُوان والعبودية لغير الله بهزم أرواحهم، فانطووا شأن المهزومين على الإعجاب بمن هزمهم..

فسدت فطرتهم، فعذبوا "موسى" وأخاه عذابًا شديدًا بالجهل، والعناد، والوقاحة.. ولذلك كله لم تكن لدى "إبليس" مشكلة في إفسادهم جميعًا، كما أفسد قوم "نوح" من قبلهم.. لم يكن الأمر صعبًا..

كان يعرف أنه لا يستطيع أن يقرب الأنبياء لأنهم معصومون.. ليست لديه وسيلة إلا التسلُّل إلى نفوس قومهم وإفسادها تمامًا.. تحريف تعاليم اللّه ذاتها بداخل أرواحهم وقلوبهم، وجعلهم كالثمار الفاسدة العفنة، لا فائدة منهم ولا رجاء.. وكان ذاك هو ما قرر فعله بالضبط.. بعدما انتهت المرحلة الأولى من مهمة "موسى" عليه السلام، وخلّص قومه من حياة العبودية على يد فرعون وجنده، بدأت المرحلة الثانية.. السير بهم إلى الأراضي المقدسة..

لكن قومه لم يكونوا مستعدين لمثل ذاك الاختبار.. فبالرغم من أن معجزات "موسى" الإلهية جميعها، ومعجزة شق البحر على وجه الخصوص، كانت طازجة في أذهانهم، ولم تنمحِ بعد، فما أن رأوا قومًا يعبدون الأصنام في طريقهم، حتى تسلل إليهم "إبليس" بلا مشقة، واهتزت عقيدة التوحيد في أذهانهم وقلوبهم.. فطلبوا من "موسى" أن يجعل لهم إلهًا وثنيًا في صورة صنم ليعبدوه..

هكذا ببساطة، فبدلاً من أن يُظهروا استياءهم لذلك الكفر، ويحمدوا اللّه أن هداهم للإيمان، التفتوا إلى "موسى" وطلبوا منه أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه مثل أولئك الناس، فلا أحد أفضل من أحد..

أدركتهم الغيرة لمرآى الأصنام، ورغبوا في مثلها، وعاودهم الحنين لأيام

الشِرك، والذل، والهوان التي عاشوها تحت ظل فرعون.. حاول "موسى" استلفاتهم إلـى جهلهم، وتوبيخهم، وتعنيفهم، ولكن "إبليس" كان قد تسلل إلى أنفسهم، واستولى على أذهانهم وكيانهم.. فلم يؤمنوا وإن ادّعوا الإنصات..

كان لابد من رسالة مفصلة لتربية هذه الأمة الفاسدة، وإعدادهم لما هم مقبلون عليه، ومن هنا كانت مواعدة الله لـ "موسى" أن يلقاه ويكلمه.. كانت فترة إعـداد نفس "موسى" لليوم المعهود ثلاثين ليلة، صامها "موسى" وطواها، فلما تم الميقات، استاك بلحاء شجرة، وأمره اللّه أن يكملهم أربعين.. ثم بدأ رحلته المقدسة إلى قمة الجبل؛ ليكلم اللّه ويتلقى تعاليم التوراة، والوصايا العشرة.. واستخلف في قومه أخاه "هارون"..

فلم يكد يغادر النبي المعصوم، حتى بدأت مهمة "إبليس"..

بدأت فتنة السامري..

* * *

– ما هذا يا سامري؟!..

– هذا إلهكم وإله موسى !..

– ولكن موسى قد ذهب للقاء ربه!..

– قد نسى موسى.. ذهب للقاء ربه هناك، بينما ربه هنا..

* * *

حينما خرج بني إسرائيل من مصر، أخذوا معهم الكثير من حلي المصريين وذهبهم، فقد كانت نساء بني إسرائيل قد استعرنه للتزين به.. فلما أُمروا بالخروج أخذوه معهم، ومن ثم تخلصوا منه لحرمانيته..

وعندئذٍ جاء السامري..

لا أحد يعرف من هو ولا من أين جاء، ولا دوافعه أو تفكيره، ولكن السامري كان فيما يبدو نحاتًا أو حدادًا محترفًا فيما سبق، فجمع الحلى الذهبية والمجوهرات التي تخلصت منها النساء، وبدأ في تشكيلها وتذويبها ليصنع تمثالاً لعجل..

صنعه مجوّفًا من الداخل، ثم وجهه في اتجاه الريح بحيث يدخل الهواء من دبره ويخرج من أنفه، فيُحدث صوتا أشبه بخوار العجول الحقيقية.. كانت هناك العديد من الأساطير التي تحوم حول سبب ذاك الخوار، منها أن السامري كان قد أخذ قبضة من التراب الذي مشى عليه جبريل عليه السلام وقت شق البحر، ووضعها مع الذهب، وهو يصنع منه العجل..

لم يكن جبريل يمشي على شيء إلا وتدب فيه الحياة، فلما أضاف السامري التراب إلى الذهب وصنع العجل، خار الأخير كالعجول الحقيقية..

كان هذا يعني أن السامري قد رأى جبريل نفسه.. رأى ما لم يره أحد من قوم موسى جمعًا.. وكان معنى ذاك غريبًا ويُثير التوجس..

أن السامري هو الشيطان نفسه..

* * *

الرياح تهدر..

الصخور الداكنة..

السماء المكفهرة..

والخوار..

ذلك العجل الذهبي الضخم الواقف في منتصف الساحة، يقف حوله أعداد هائلة منهم، يرقصون ويسجدون..

ينظر هو إليهم في دهشة.. كيف يمكن أن يسجدوا لصنم، بعد ما رأوه بأعينهم في معجزات "موسى"؟.. لم يكن يفهم، ولم تكُن لديه القدرة على الاستيعاب..

جواره يقف قلة قليلة من قومه، يتأففون معلنين سخطهم وإيمانهم التام بأن هذا كله هراء، وعلى مرمى بصره، يسجُد القوم الآخرون ويتعبدون راقصين، ويدوي الخوار من حينٍ لآخر..

كان بشكل ما يفهمهم.. يفهم نفسيتهم.. قد تربوا في مصر، وقدسوا كما قدس قومها الأصنام، وعبدوا العجل أبيس.. تربوا على الذُل والعبودية، وتغيرت نفوسهم والتوت فطرتهم..

نظر إليهم في أسى.. نفوسهم تالفة الأمل، ساجدين متعبدين لغير الله.. لم يعد هناك ما يمكن أن يصنعه لهم أحد.. قد فسدوا تمامًا، وفسدت نفوسهم وقلوبهم بعد سنوات طويلة من الذل، وحتى كلمات الله ذاتها لم تعد قادرة

على إعادتهم إلى الحق، ولم تقنعهم المعجزات الحسية بصدق الكلام وصدق "موسى".. كانوا دومًا، وسيظلون في أعماقهم من عبدة الأوثان..

تمامًا كسادتهم المصريين..

صوت الخوار يدوي مع حفيف الشجرة القريبة، والريح تُحرك ملابسهم وتصفر في آذانهم، فتضفي صورة كئيبة على المشهد..

ثم يخرج "هارون".. ينظر إليهم في دهشة لبرهة..

لا يفهم.. لا يستوعب..

تقترب خطاه في بطء منهم، وهم يسجدون للعجل، وصوت الخوار يغلف ذهنه بالوجل والرهبة..

يزيح الناس من أمامه، ويمُس أكتافهم، فيتحركوا، ويمر هو من بينهم حتى يقف وسطهم تمامًا ويصيح:

- ماذا تفعلون؟..

لا يجيبه أحد، فتحين منه نظرة إلى السامري الواقف في الركن البعيد، تتألق الابتسامة الساخرة منعكسةً على عينيه.. نظرة تملأه رهبة.. ليس ذاك طبيعيًا أبدًا..

يتابع صيحه:

- قد فُتِنتُم به.. تلك فتنة.. استغل السامري جهلكم وفتنكم بعجله، ليس هذا ربكم ولا رب موسى..

يتلفتون إليه في استخفاف، ولا يعيرونه اهتمامًا على الإطلاق، وكأنه ليس واقفًا.. فيستولي عليه الغضب، ويندفع ناحيتهم ليدفع بعضهم سقوطًا..

– أنسيتم أيها الحمقى ما فعله موسى لأجلكم؟.. نسيتم معجزات الرب؟.. قد شق البحر لكم لتعبروه بسلام، وأطبقه على فرعون من بعدكم، فأي جهلٍ وشركٍ تصنعون؟!..

يشرعون في التدافع، ويزيحونه إلى الخلف، بينما هو يصيح:

– إن ربكم الرحمن.. فاتبعوني وأطيعوا أمري..

ولكن أحدهم لا ينصت.. لا يؤمن.. لا يلتفت..

تتعالى أصوات نقاشهم الحاد، فلا تميز ما يقال بالضبط، ويدوي صوت الخوار من جديد..

تدافُعهم يوشك على الفتك به..

– إن موسى قد نسى.. فربه هنا، ولكنه لا يعلم..

– هذا تجسيد الرب في الأرض.. نحن لا نكفُر به شيئًا، بل أنت تدفع عنا رحمة الرب العظيم..

تتصاعد حدة النقاش، ويدرك هو أنه لن يتمكن من منعهم.. كانوا جميعًا يعلمون أنه أكثر لينًا من "موسى"، ولم يكونوا يهابونه؛ للينه وشفقته، فكان كلامه بالنسبة لهم مزاحًا، ولم يأخذوه بجدية.. ولم يكن يدري هو ماذا يفعل.. يخشى أن يلجأ للقوة ويحطم صنمهم، فيثوروا عليه غضبًا، ويحدث

ما لا يُحمد عقباه..

يخشى أن يفرق بينهم ويزرع الفتنة في أنفسهم، فيدمر كل شيء بناه "موسى"..

يزيحونه إلى الخلف، فيستسلم لتدافُعهم، وينظر لهم، وشعوره لا يقدر على وصفه أحد.. شفقة.. أو أسى.. أو غضب.. أو خوف..

يُدير بصره إلى السامري من جديد.. يقف عاقدًا ذراعيه مراقبًا إياهم في صمت، وتعلو وجهه ابتسامة باهتة مقبضة..

يعرف شعوره الآن بالتأكيد..

إنه التوجس..

* * *

يجلس على تلك الصخرة هناك، ويراقبهم.. تدور عيناه بين كل واحد فيهم ليدقق مليًا في ملامحهم..

"هارون" الغاضب.. الأسف والحزن يتبدّى في عينيه بوضوح ممتزجًا بالتوجس.. التوجس مما سيفعله "موسى" عندما يرجع، والتوجس من ذلك السامري..

السامري الذي يرقص حول العجل الذهبي مع بقية القوم.. شيءٌ ما في ملامحه لا يوحي بالراحة..

يشرد ذهنه بعيدًا..

ترى ما الذي سيفعله "موسى" حين يعود، ويجد قومه قد عادوا لعبادة الأصنام؟.. يستطيع أن يتفهّم شعوره بشكلٍ ما.. أبعد كل ما فعله الرب لهم، ينكفئون على عبادة الأصنام من جديد؟.. يغيب هو أربعين يومًا ليلقى الرب، ويتلقى تعاليمه ووصاياه لهم، فيعود ليجدهم يعبدون عجلاً من الذهب؟.. هل هذه تصرفات قومٍ عهد الرب إليهم بأمانة التوحيد في الأرض؟..

إن غضب "موسى" ليكون عتيًا.. لا يُبقي ولا يذر.. يشرد ذهنه إلى ذلك الغامض ذو العباءة الذي رآه مرارًا.. لماذا رآه هو بالذات وسط كل هؤلاء؟.. لا يقدر عقله على استيعاب ماهيته ولا هدفه..

من أين جاء، ولأين ذهب؟.. لا يقدر على ابتلاع تلك الغصة التي تسد حلقه كلما تذكر شكله، وهو يهمس في آذان القوم.. لا يدري كنهه، ولكنه يعلم علم اليقين أنه ليس طبيعيًا.. ينتبه فجأة إلى الصمت الذي يسود كل ركن..

كان المكان صاخبًا منذ دقيقة، حتى كأن الضوضاء تحل محل الهواء، فلماذا ذاك الصمت المفاجيء؟.. يُدير عينيه إلى القوم الواقفين ينظرون خلفه بالضبط، فيستدير صوب نظراتهم..

ويراه..

"موسى"..

يقف هناك حاملاً بين يديه ألواحًا حجرية طويلة غريبة الشكل.. الصمت يسود الموقف تمامًا، والقوم توقفوا عمّا كانوا يفعلونه، لينظروا إليه خيفة.. "هارون" يخرج من وسط صفوفهم ليتطلع إليه..

يسود الصمت لوهلة.. لا يتكلم أحدهم، ولا يجرؤ، ثم يتحرك "موسى"..

يلقي الألواح الحجرية على الأرض في قوة، ثم يبدأ في الركض نحو "هارون" في غضبٍ أعمي، ليمسكه من شعره ولحيته الطويلة في غل، ويجذبه إليه في قوة.. يتأوه في ألمٍ شديد، بينما "موسى" يصرخ في وجهه صراخًا هادرًا:

- يا هارون، ما منعك إذ رأيتهم ضلوا؟.. ألا تتبعنِ؟.. أفعصيتَ أمري؟..

يتأوه "هارون" في قوة، ولحيته توشك على أن تتمزق من مكانها تحت وطأة الجذب، يقول بصوت يتبدّى الألم في كل نبرةٍ من نبراته:

- يا ابن أمِ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي.. إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي..

يجذبه "موسى" أكثر وهو يرتجف غضبًا، فيتحول صوته إلى صراخ..

- يا ابن أمِ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، فلا تشمت بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظالمين..

ينظر إلى عينيه لحظة، ثم يدفعه بعيدًا، ويلهث، وهو يعب الهواء غضبًا..

يدير عينيه إلى باقي القوم الذين يتراجعون إلى الخلف رهبة، فيصيح بصوت يزلزل الجبل:

- يا قوم ألم يعدّكم ربكم وعدًا حسنًا؟ أفطال عليكم العهد، أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي؟..

يدير عينيه بينهم ولا يجرؤ أحدهم على الكلام، فيضيف:

- إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربهم، وذلـةٌ في الحياة الدنيا..

لا يرد أحدهم.. وينكّسون رؤوسهم في ذل.. لا يجد أحدهم ما يقوله..

- من صنع ذاك؟..

يُشير بسبابته نحو العجل الذهبي، فيشيرون نحو السامري، الذي يقف بعيدًا متابعًا الحوار في صمتٍ مترقب..

يستدير، ثم يقترب منه حتى يقف أمامه قائلاً:

- فما خطبك يا سامري؟..

صمت السامري لحظة، ثم قال في تؤدة:

- بصرتُ بما لم يبصروا به، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها.. وكذلك سولت لي نفسي..

إنه يعترف بخطأه.. لا يحاول إنكاره، ولا يبدو عليه الخوف..

يصمت "موسى" لحظاتٍ، وهو يتطلع إليه.. الغضب يستولي على نبراته، وهو يقول:

- فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس، وإن لك موعدًا لن تخلفه، وانظر إلى إلهك الذي ظَلْتَ عليه عاكفًا؛ لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفًا..

استدار إلى العجل، وحمله، ثم إتجه به إلى النار التي أشعلوها ليلقيه في وسطها.. والتقط عصاه الطويلة، وأخذ يهوي بها على كل شبرٍ في العجل حتى فتته رمادًا وسط أعين القوم المبهوتين..

ثم نهض مُديرًا عينيه إليهم قائلاً:

- إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، وسع كل شيء علمًا..

ثم توقف لحظة يلتقط أنفاسه، وتابع في صوت زلزل أذانهم رهبة:

- يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم، فتاب عليكم، إنه هو التواب الرحيم..

حل الصمت عليهم تمامًا، وهم يتطلعون إليه بعد أن أنهى كلامه.. لا يجرؤ أحدهم على الحديث أو الحراك..

وهناك في وسطهم، تطلع هو إلى "موسى" في وجل، ثم أدار عينيه إلى الأفق البعيد..

خُيل إليه أنه يرى شخصًا يحث الخطى مبتعدًا عنهم، وعباءته تتطاير في إثره..

ثم اختفى من أمام ناظره تمامًا..

* * *

- 4 -

شتاء..

ذلك البرد الذي يجعل جسدك يقشعر، وأنت تسير وسط الشوارع الضبابية..

البخار يتصاعد من فمك، فتفرك كفيك ببعضهما، وأنت تمشي في صمت..

تشعر بأرنبة أنفك وسط الظلام، فلو مددت يدك لتتلمسها لوجدتها باردة كالثلج..

هائمٌ أنت..

تهيم على وجهك، لا تدري لأين تذهب، ولا ماذا تفعل..

حبيبتك؟..

قد تركتك وحدك، تواجه أعظم كوابيسك..

أهلك؟..

والدك ذهب مع الريح، وأمك لا تملك سوى دموعها..

وطنك؟..

لا يجيد سوى قتل شبابه، وإلقاء من بقى منهم حياً في السجون والمعتقلات..

صدق من قال أنه لا وجه شبه بين وطنٍ مغتصب وحبيبةٍ لا تريدك، سوى أن

الاثنان يقتلانك، ثم يلقيان باللوم عليك أنت..

بائع التمر والعرقسوس المتجول يلوح أمام بصرك، فتبتلع لعابك.. العطش يستولي عليك حقًا.. تدرك ذاك فجأة، شأن من ينظر للماء لأول مرة..

تضع يدك في جيبك.. لا تملك الكثير.. ربما هم عشرون جنيهًا.. تتجه إليه في ثبات لتبتاع كيسًا من التمر.. يمد يده المتسخة المتشققة من عناء العمل ليمسك بالورقة القديمة.. يملأ لك كيسًا بالسائل الأسود الرغوي.. ثم يعطيه لك، ويناولك بقية العشرين.. تلتقطها، وتستدير وأنت تشرب العصير في صمتٍ شاردًا..

الوظيفة الوحيدة التي وجدتَها، والتي كانت تسهّل الأمور عليك بعض الشيء، قد ذهبت إلى غير رجعة.. ليست غلطتك، ولكن هذا لا يهم على أية حال.. المهم هو أنك الآن عاطل.. لا يوجد راتب ينتظرك في بداية كل شهر يمكنك أن تنفق منه على نفسك وعلى والدتك.. لا يمكنك حتى التفكير..

صحيح أنك قد تخرجتَ من كلية الحقوق، ولكن هذا لا يعني شيئًا أيضًا.. ما أكثر خريجي كلية الحقوق الجالسين على المقاهي.. ربما كل من قابلته في يوم على مقهى هو خريج كلية الحقوق.. تلك الكلية العظيمة التي هي أساسٌ التعليم والحكومات في الدول الأوروبية، هي في بلدك لا تمكّنك إلا من تقديم السلطة إلى الزبائن مقابل بضع جنيهات.. فلا عجب..

ولماذا لا تسافر؟..

لأن الكلام سهلٌ جدًا، ولا يضاهي سهولته سوى صعوبة التنفيذ..

تشعر في أوقاتٍ عديدة أنك تعيش في سجن إجباري.. لا يدعونك تتقدم ولا تنال شيئًا مهما فعلت، وحتى لو حاولت الخروج من وسط كل تلك الدائرة، وإلقاء نفسك في غياهب دولة أخرى، فإنك تغرق وسط الأمواج، أو تصل إلى الحدود فقط ليتم ترحيلك مرة أخرى..

أنت منبوذ.. يعاملونك في أنحاء العالم كله معاملة المريض بالجُذام.. ربما تشفق عليه.. ربما تتكلم عنه في المؤتمرات واللقاءات الصحفية، ولكنك لا تتمنى أن تكونه ولا أن تقابله.. دولتك لا تهتم بك، والمجتمع الدولي يحتاج إلى وجودك؛ حتى يمكنه التدخل في شئون تلك الدولة التي تسرقك وتنهبك، والأدهى أن الاثنين لا يعبئان بك، وسيلاحظان موتك أو حياتك لأسباب تتعلق بالرائحة لا أكثر..

أنت لا شيء..

وماذا عن الدين؟.. ربما تتجه إلى الله.. ربما كان كل هذا اختبارًا.. لا تدري، ولكنك لم تستسغ يومًا مسألة الاختبار الإلهي تلك، ولم تتمكن يومًا من ابتلاع ما يسمى بتوزيع الرزق..

لماذا يجب أن تكافح أنت، وتعرق وتبذل صحتك كلها في سبيل بضع وريقاتٍ في أول كل شهر، ينفقها آخرٌ على كلابه في بداية كل يوم؟..

لماذا يجب أن تحتمل وتصبر، وتقنع نفسك أن هذا كله اختبارٌ من الرب، بينما ينعمون هم بما لذ وطاب من الحياة، ولا يهتمون لو احترق العالم كله من حولهم؟.. لا يمكنك أن تبتلع هذا ولا تبرره..

تعرف في قرارة نفسك أن هذا هو التدين الزائف الذي يبرر به ضعيفو الإرادة جبنهم وتذللهم.. فبينما هم يقفون في طوابير العيش وطوابير المصالح الحكومية، يركب سادتهم السيارات الفارهة ذاهبين للعب الجولف في مدنهم ذات الأسوار المخصصة لهم.. ويُقنع هؤلاء أنفسهم أن هذا هو الرزق، وأنهم راضون بما كتبه اللّه لهم.. وعندها يغدو ذلك الرضا وتلك الإستكانة وسيلة دفاعية يتبناها عقلهم، فلو لم توجد، لجُنّوا جميعًا، وأشعلوا النار في أنفسهم أو قفزوا في النيل..

يحافظون على صلواتهم الخمس يوميًا؛ حتى يمكنهم أن يُقنعوا أنفسهم أنهم سينالوا القصور والضياع في الجنة بعد موتهم، مبررين بذلك تخاذلهم عن نيلها في حياتهم.. نفاق.. نفاقٌ في كل مكان.. نفاقٌ في كل ركنٍ، تتصاعد رائحته الكريهة لتفعم أنفك وتثير الغثيان في نفسك.. لا فكاك ولا مهرب.. أنت لهم وهم عليك.. لا حل، ولا خلاص يلوح في الأفق.. الغد مظلم تمامًا، وطعمه أشبه بطعم التمر المغشوش الذي ترشفه في الظلام والبرد..

تمشي بلا هدى، هائمًا على نفسك في الشوارع، لا يحملك ولا يقودك سوى قدمين متشققتين في حذاء متسخ لهما عقل خاص، ولكنه لا يعي غايةً.. ذاك المتسول ذو الثياب الممزقة يخرج لك من زُقاقٍ ما.. لا يتكلم، بل يشير إلى فمه في صمت.. جائع؟.. ربما كان ظمِئًا، لا يوجد فرق كبير، فهو لا يجد الاثنين.. تمد له يدك بما تبقى من العصير، فيلتقطه منك ويحث الخطى مبتعدًا.. لا يشكرك حتى.. كأنه كلبٌ وجد عظمة، يريد أن يخفيها عن أقرانه كي لا يسرقها أحد..

تتابعه ببصرك في صمت مراقبًا..

يبتعد، ويبتعد، ثم ينظر حوله، ويلقي الكيس على الأرض، ثم يشرع في ركله بحذائه في غِل !.. لا تفهم ماهية ذلك التصرف العجيب، وأنت ترقبه يركل الكيس حتى تتناثر محتوياته على الرصيف في كل مكان، ثم يضع يديه في جيب سرواله الرث، ويبتعد..

لماذا يُمكِن أن يفعل ذاك؟!.. هل هو بذلك يُعلِن طريقته الخاصة في الاستيلاء على ما ليس ملكه، وتبديده؟.. إنه حتى لم يتجرع منه رشفة !.. من يدري، فربما كان لا يحبه في الأساس، وهو ما لن يشكل فارقًا كبيرًا لو كان ظمآنًا فعلاً !..

تتوقف في مكانك تمامًا، وأنت تحاول الاستيعاب، بينما يعبر المارة من حولك متجهين إلى مشاغلهم أو بيوتهم، فلا يعبأ أحدٌ بك..

كما كان الحال دومًا..

* * *

التنظيم هو ذلك الشيء الذي لا تراه، ولكنه هناك..

لا تراه، ولكنه يراك.. يُبصرك كأعيُن الرب..

"مجهول"

* * *

يضع المفتاح في باب الشقة..

يُديره..

ينفتح كاشفًا الظلام.. ولا شيء غيره.. كئيبٌ كقلب شيخ فان.. يدلف إلى الداخل، يغلق الباب خلفه في رفق.. لوهلة، يُخيَل إليه أن أحدهم يرقبه من ركنٍ خفي، ولكنه لا يُلقي بالاً لذلك الشعور.. فقط يدخُل إلى غُرفته ليضيء النور، ويضع حقيبته أرضًا جوار المكتب، ثم يلقي نفسه بملابسه فوق السرير..

الشيء الوحيد الذي كان يجعله متوازنًا بعض الشيء هو العمل، والآن قد فقد ذاك أيضًا.. يضيق صدره بالضجر على كل هذا.. يعرف أنه لا يمكن أن يستمر بذلك الشكل.. لا يمكنه حتى الحصول على وظيفة محترمة.. في الواقع، هو يشعر أن جدران الغرفة ذاتها تضيق عليه.. يشعر بأنه يريد ترك كل هذا خلفه..

يريد الفرار.. الفرار بعيدًا.. حيث لا يراه أو يحاسبه أحد، ولا يتحمل مسئولية أحد.. و أمه؟.. تبًا لها.. هو لا يبالي.. كف عن المبالاة منذ زمنٍ طويل..

لماذا يجب أن يُلقَى كل شيء على عاتقه هو؟.. قد ملّ من كل هذا الهراء، وضاق صدره به..

يريد أن يُجَن قليلاً كَكُل من في سنه.. يريد أن يعيش ويشعر بطعم الأيام، ولا يقبل أو يستوعب أن تكون تلك هي الحياة التي تنتظره ما تبقى من العمر..

كلا.. هو لم يُخلقَ ليعاني أو يتسول بالتأكيد.. ما المغزى الذي يمكن أن يكون في حياةٍ كهذه سوى أن الرب يلهو به؟..

ربما كان الأمر بالنسبة له تسلية.. يعاني البشر في حياتهم ليتسلى هو..

لابد أن هناك ما هو أفضل..

فقط يتمنى لو عثر على ذاك الأفضل، أو فهم ما هو..

* * *

وحيدٌ هو.. كقطرة مطرٍ وسط سماءٍ قاحلة، يتفنن الوقت في قهره.. وكأنما هو غانيةٌ حسناء، ينتظرها فلا تناجيه، ولا تجيء أبدًا..

كذا هو حاله دومًا..

* * *

14 أغسطس

2014

AM 9:00

نوم..

نومٌ عميق يأخذك إلى غياهب النسيان والتجاهل..

ظلام حرفي يحجب التفكير عن عقلك.. لستَ بحاجةٍ للتفكير، فلم يفدك التفكير بشيءٍ من قبل سوى المزيد من البؤس.. ليس التفكير صديقًا على الإطلاق..

يسبح عقلك في فراغٍ تام..

تحلم؟.. ربما..

عن ماذا؟!..

ربما هو والدك الذي لا تتذكر ملامحه.. ربما هي أمك التي استولت نظرة الحزن في عينيها على حياتك..

ربما هو "نبيل".. ربما هي "مي".. ربما هو شيءٌ ما لا تدري كنهه، ولكنه موجود، وفعّالٌ يؤثر في حياتك.. لا شيء له مصداقية.. لا معنى للحياة التي تسكنها..

دموع..

دموعٌ تجري على وجنتيك متسربة من فرجات جفنيك المغلقين.. دموع ساخنة، مالحة كطعم حياتك بالضبط.. لا مذاق فيها لما هو أفضل.. تشعر باهتزازٍ على السرير.. تفتح عينيك.. لا أحد هناك، ولكن ضوءً ما ينعكس على سقف الغرفة.. ضوء متردد.. إنه الهاتف الخلوي.. تلتقطه متسائلاً عن ماهية ذاك الذي يتذكر اسمك أصلاً، ناهيك عن رقم هاتفك.. تنظر إلى الشاشة..

"مي عبد الرحمن"..

يخفق قلبك في قوة..

هل هو شعور الحنين، أم الندم، أم الغضب؟.. لماذا تذكرتك أخيرًا في هذا الوقت بالذات؟.. هل هو التوجس؟.. تنظر إلى الساعة على شاشة الهاتف المهتز، ثم تقرر أن تحصل على إجابة لكل أسئلتك..

- ألو؟..

"صوتُ أناسٍ تصرخ"

"صرير مكابح سيارات، مع أصوات طلقات رصاص وهتافات في الخلفية"

- عمـ.. مر.. عمر..

الصوت يأتي مغلّفًا بالإستاتيكية، كأن الاتصال يتم التشويش عليه، أو أن الشبكة لا تعمل كما ينبغي..

- مي؟..

- أنـ.. سفة.. ابعة العدوي.. صاص.. حبك..

لا يمكنك تمييز ما تقوله بسبب التشويش..

- ماذا؟.. ماذا تقولين؟.. أين أنت؟..

- أنا في ميدان رابعة، إنهم يطلقون الرصـ...

ينقبض قلبك.. وينتفض مع دوي صوت الطلقات على خلفية صوتها..

لا تقوى على الرد، بينما يأتيك صوتها متهدجًا، وهي تغالب عبراتها:

- أنا آسفة.. لم أعنِ ما فعلته.. أريد أن ألقاك.. سامحني..

دمعة طويلة كسيفٍ من نار، تحفر طريقها في أخدود وجنتك وشفتيك..

- أين أنت بالضبط؟..

- في ميدان رابعة.. نختبيء الآن، ويطلقون علينا الغاز والرصاص الحي.. أبي قد...

"صوت تشويش لاسلكي مصحوب بصوت نغمة إغلاق الهاتف المميزة"

تحدق في اللا شيء، وأنت ما زلت تُمسِك سماعة الهاتف ذاهلاً لا تقوى على النهوض.. ينفتح باب الغرفة عن والدتك التي تقول:

- إنهم يفُضّون اعتصام رابعة الآن.. لا تخرج اليوم يا..

يقطع عبارتها رؤياك، وأنت ترتدي السروال كيفما اتفق، ثم تلتقط الحذاء

والقميص..

- إلى أين أنت ذاهب؟!!..

لا ترد عليها وأنت تلتقط هاتفك المحمول وتدسه في جيب السروال، فتتابع هي صارخة:

- هل جُننت؟..

تدفعها في غلظة بعيدًا عن طريقك، فتوشك على السقوط أرضًا، وتتمسك بذراعك وأطراف قميصك مولولة:

- عمر.. لا تذهب.. ليس لي غيرك يا ولدي..

تدفعها في غلظة وتحرر ذراعك من كلابة يدها، وتتجه إلى باب الشقة لتفتحه خارجًا.. تركض هي خلفك على درجات السلم صارخة، بينما يبهت صوتها في عقلك، فلم تعد تسمعها..

وتخرج إلى الشارع..

* * *

رصاص..

طلقاتٌ تمزق السكون..

ضباب الغاز المسيل للدموع يغلف كل شيء..

وأنت..

تمشي وسط كل هذا محتميًا بالجدران.. يلوح لك ضباط الأمن المركزي والجيش من بعيد، فتحاول أن تختبيء منهم خلف الحوائط..

أين هي؟..

تبحث عيناك عنها، ويداك تتصلان بها لا شعوريًا، فيصدك الصوت المميز.. الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقًا أو غير متاح.. كيف تصل لها وسط كل هذا؟.. تسمع دوي طلقة، ثم تري التراب يتناثر من الحائط أمامك..

إنها رصاصة.. هناك قناصٌ في مكانٍ ما..

تتذكر أيام الثورة الأولى، وطلقات القناصة التي انتزعت منك شعورك ذاته.. تنحني بسرعة، وأنت تدخل إلى داخل المبنى المجاور محتميًا من كل ذلك.. الباب مغلق.. ولا أحد يفتح..

تنظر حولك بسرعة، بينما تصفر الرصاصة الثانية مخترقة إشارة معدنية في الشارع، لتصطدم بالحائط جوار رأسك بالضبط.. ويتناثر التراب على وجهك.. يجب أن تخرج من الشارع في الحال..

تلمح عيناك مدخل أحد المباني القريبة.. مفتوحًا على مصراعيه، ولكنك يجب أن تعبر الشارع حتى تصل إليه.. أمام أنظار رجال الأمن المركزي..

لمعة الضوء على عدسة المنظار المقرب، التي لمحتها على سطح قريب تلغي أي محاولة لك في التفكير، فتتحرك قدماك رغمًا عنك عابرةً الشارع..

أصوات الضباط تتعالى، فتلتقط حجرًا من على الأرض تلقيه عليهم، وتجري.. تجري حتى تلمحها، فتتسمر في مكانك مبهوتًا..

مختبئة خلف حافظة قمامة معدنية.. ترتجف وتنظر لك نظرة يمكنها أن تقتل شفقةً.. يتجمد العالم من حولك.. تنسى كل شيء سواها، فلا رصاص ولا هتاف، ولا ضابط أو جندي يمكنه أن يُعيق قدميك اللتين تركضان نحوها.. تقترب منها.. وتبهت الموجودات حولك، فلا يبقى سوى منظر عينيها المذعورتيْن تنظران لك لوعة..

رصاصة أخرى تصفر، والمزيد من التراب يتناثر في وجهك، فيردك رد فعلك إلى الاتجاه المعاكس كقطٍ متوتر.. أعصابك كلها مشدودةٌ كالوتر، فلو وضع أحدهم كفه عليك لوثبتَ في الهواء مترين..

تتحرك هي من مكانها نحوك، فتتلقفها بين ذراعيك بلهفة، وتبحث يداك في جسدها عن جروح أو دماء.. لا يتبدّى لك شيء، فتنظر في عينيها.. الدموع.. والنظرة الذاهلة.. تسألها:

- أين والدك؟..

لا ترد..

نفس النظرة الذاهلة تعتلي وجهها، وملامحها تشي بما لم يستطعه لسانها..

ملامح من رأي الهول ذاته.. تهالك نظرة عيناها التي تحدق في شيء خلفك، فتستدير إلى حيث تنظر..

المدرعات تقترب.. تدير عينيك إليها مرة أخرى.. قلبك يخفق في عنف، فلا تدري إن كان هذا هو الاشتياق أم الحنين، أم الخوف.. تنظر إليها وتنظر إليك، فلا يدركك كل هذا.. تدرك أنك الآن معها، وأن لا شيء له معنى سوى شكل عينيها اللامعتيّن، وكفك المنقبض على راحتها..

تقترب المدرعات أكثر، فتخبئها خلفك، وتمسك هي في ذراعك بقوة.. ربما لن تراها مرة أخرى.. هل هناك جنة فعلاً ستلقاها فيها من جديد، أم أن ما ينتظرك هو لا شيء؟.. ربما هو الظلام.. لا شيء حرفيًا.. تقترب المدرعة أكثر، ويحيط بكما رجال الأمن المركزي، وتلمع الهراوات الحديدية في أيديهم، وهم يرفعونها مقتربين ركضًا.. كفها ينقبض في راحتك، فتستدير إليها وتمسك كتفيها، وأنت تنظر إلى عينيها التي تسيل منهما الدموع متلألئة.. ثم فجأة، يدوي صوت الرصاصة..

تشعر بجسدها يتهالك بين ذراعيك.. يفقد نضرة الحياة.. تتهاوي ولا تقوى قدماها على حملها، فتتلقفها يداك حملاً، بينما تسيل الدماء من بين شفتيها الذابلتين، ممتزجة بدموعها اللامعة وخصلات شعرها الثائر..

لا تستوعب.. لا تستوعب، ولا يبدو لك هذا حقيقيًا.. هذا لا يحدث لك.. هذا يحدث لشخصٍ آخر.. ليس أنت.. ليس أنت..

تحاول هي النُطق، فلا يخرج منها سوى غمغمة خافتة يمتزج فيها الصوت بدمائها، فيطعن قلبك بنصلٍ من نار.. تعجز قدماك أنت الآخر عن حملك، فتسقط أرضًا فوقها..

تنظر إلى عينيها اللتين تفارقهما لمعة الحياة وأنت تمسك كفها وتغرقها دموعك، التي لا تشعر بسيلها المنهمر، وأنت تملأ عينيك منها..

إنها آخر مرة.. قد صدق قلبك.. قد صدق، وكذّبت أنت ما حولك تكذيبًا له.. يقترب منك الضباط، وترتفع هراواتهم في الهواء، بينما تخفت أصواتهم، ولا يدركها عقلك أو يستوعبها، فيُزيحها إلى خلفية المشهد.. لا شيء له معنى سوى جسدها المستكين بين ذراعيّك..

جسدها الذي نال راحته أخيرًا..

حتى وهراواتهم تهوي على كل جزءٍ في جسدك، لم تفلت يدُك كفَها.. حتى ودمائك تسيل، لم تفارق عيناك عينيْها المنطفئتيْن.. حتى وهم يسحبونك بعيدًا، لم يراود خيالك غير منظر شفتيْها الداميتيْن.. ثم تهوي الهراوة على رأسك مرة.. تتذكر كل لحظةٍ قضيتماها معًا.. ثورة، وطلقات، ورصاص، ونصال، وسيوف، ودماء.. تهوي مرة أخرى، ويملأ المذاق الصدئ فمك كله، وتشعر بعقلك يدور ويسبح داخل جُمجُمتك..

منظر الضباط المحيطين بك يركلونك، يبدو أشبه ببوابتك إلى العالم الآخر.. عالم لا ينتظرك فيه سوى السكون.. ربما كانت تلك هي الراحة بالنسبة لك.. جزءٌ منك يتمنى لو كانت تلك هي نهايتك، فلن يقدر عقلك على الحياة، بعد أن يستوعب ما رآه اليوم.. تتمنى لو أن أحدهم يضع رصاصة في رأسك، لينتهي كل هذا.. ولكنهم مصرون..

لن تموت، بل ستُركَل بالأحذية..

لن تعيش، بل ستُركَل بالأحذية..

من هو مثلك لا دور له سوى أن يُركَل بالأحذية..

تتعلق عيناك الدامعتان بالهراوة التي يرفعها أحدهم بطول ذراعه، ثم يهوي بها على رأسك لتظلم الدنيا أمامك..

وينتهي كل شيء..

* * *

- 5 -

تدور أنظارك حول ذاك المشهد الذي تراه أمامك من بعيد، وأنت تقترب حثيثًا..

مشهد تلك التبة التي تعلوها تلك العلية الصغيرة.. يبدو الضوء المنبعث منها أشبه بمأوى من ظلام الليل الموحش..

وهناك.. في الداخل، كان هؤلاء.. جالسين جميعًا، يتطاعمون على المائدة حول ذلك الرجل..

شديد الوسامة هو.. وسيمٌ لدرجة أنه يمكن وصفه بأنه بارع الجمال، ينافس في حسن مظهره، وشعره الطويل، وذقنه الناعمة الطويلة الحوريات.. تبدو الحكمة على وجهه، حتى تشعر أنه يضيء المكان نورًا بلا ضياء، وترتسم علامات الوقار على ملامحه، فلا تقدر في حضرته سوى على الصمت هيبةً وتبجيلاً.. يجلسون طاعمين، ولا يتكلمون..

تشعر بشيءٍ ما لا يمكنك أن تفسره في الجو.. كأن شيئًا ما يراقبهم بعيون من حِقدٍ وغِل، ولكنك لا تراه.. ثم نهض ذلك الحكيم الوسيم من على العشاء، وأخذ منشفة واتزر بها، ثم صب بعض الماء في مغسلٍ صغير، واتكأ على ركبته أمام تلاميذه، متناولاً أرجلهم ليغسلها..

يسود عليهم الصمت، وكأنما على رؤوسهم الطير، حتى ليمكنك أن تشعر

بالتوتر، وهو ينبعث من كل خلية في جسدهم، وهم ينظرون إليه، وهو يغسل أرجلهم مبجلين.. الإحراج والامتنان يبدو على وجوههم ويتمثل في ملامحهم المتركزة عليه، بينما هو ينحني ليأتي بالمزيد من الماء الذي في المغسل، ويتدلى شعره الجميل في الهواء متطايرًا مع نسمات الهواء الخفيفة، وهو يجفف أرجل من ينتهي من تغسيله بالمنشفة التي يتزر بها..

ظل يغسل أرجلهم لبرهة، وهم صامتون، حتى انتهى من أحدهم واقترب من الآخر، ليقول ذاك الأخير:

– يا سيد، أنت تغسل رجلي؟..

أجابه الحكيم الوقور:

– لستَ تعلم أنت الآن ما أنا أصنع، ولكنك ستفهم فيما بعد..

فقال له ذلك الأول مبجلاً:

– لن تغسل رجلي أبدًا..

اعتدل الرجل الوقور، ونظر إلى عينيه مباشرة، وهو يقول:

– إن كنت لا أغسلك، فليس لك معي نصيب..

صمت الأول لحظة، ثم قال:

– يا سيد، ليس رجلي فقط، بل أيضًا يدي ورأسي..

فقال، وهو يغسل قدمه:

- الذي قد اغتسل ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه، بل هو طاهر كله.. وأنتم طاهرون، ولكن ليس كلكم..

وصمت لحظة، ثم تابع، وهو يكمل ما يفعله:

- لستم كلكم طاهرين..

مرت برهة أكمل فيها ما يفعله حتى انتهى، فأخذ ثيابه ليرتديها، ثم اتكأ.. وقال:

- أتفهمون ما قد صنعتُ بكم؟..

صمتوا جميعًا ناظرين له حيرة، فتابع هو:

- أنتم تدعونني معلمًا وسيدًا، وحسنًا تقولون، لأني أنا كذلك.. فإن كنت -وأنا السيد والمعلم- قد غسلتُ أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أيضًا أن يغسل بعضكم أرجل بعض، لأني أعطيتكم مثالاً، حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضًا..

صمت لحظة، وهو ينظر لهم، ثم أضاف:

- الحق الحق أقول لكم أنه ليس عبدًا أعظم من سيده، ولا رسولاً أعظم من مرسله.. إن علمتم هذا، فطوباكم إن عملتموه..

ساد الصمت لحظة ينظرون فيها جميعًا له، وتتعلق أعينهم بشفتيّه، وهو يتابع:

- لست أقول عن جميعكم، أنا أعلم الذين اخترتهم.. لكن ليتم الكتاب:

الذي يأكل معي الخبز، رُفِع على عقبه..

ثم صمت لحظة التقط فيها أنفاسه، وتابع، وأحد تلاميذه يتكئ بداخل حضنه:

– أقول لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون أني أنا هو.. الحق الحق أقول لكم: الذي يقبل من أرسله يقبلني، والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني..

وصمتَ لحظة بدا عليه فيها التأثر، ثم تابع بصوت متهدج:

– الحق الحق أقول لكم: إنَ واحدًا منكم سيسلمني..

والتقط انفاسه، ثم أردف:

– إن ابن الإنسان ماضٍ كما هو مكتوب عنه، ولكن ويلٌ لذلك الرجل الذي به يُسلَّم ابن الإنسان.. كان خيرًا لذلك الرجل لو لم يولد..

ساد الصمت بعدها لبرهة.. أخذ التلاميذ فيها ينظرون إلى بعضهم البعض متوجسين حائرين من يقصد.. تبدو عليهم أمارات التفكير الشديد، ثم أومأ أحدهم إلى ذلك المتكئ في حضنه أن يسأل من هو ذاك الذي سيسلمه، فالحكيم كان يحبه حبًا جمًا.. فمال ذاك التلميذ على صدر الحكيم الوقور سائلاً:

– يا سيد، من هو؟..

– هو ذاك الذي أغمس أنا اللقمة وأعطيه..

وغمس اللقمة في الطبق، ثم أعطاها لأحد الجالسين.. تبدو ملامحه غير

مريحة.. شعره مموجٌ وطويل، وذقنه نامية مصففة بعناية، وتبدو نظرته كنظرة مذنب.. لا يدري بِمَ بالضبط..

يأخذ اللقمة من يده ملتهمًا إياها، وتبدو ملامح نظراته مقبضة.. شيءٌ فيه قد تغير، أو هو قد كان كذا طوال الوقت، فلا تفقه.. تشعر أنه الشيطان نفسه مجسدًا، أو أن الشيطان يتخفّى في ملامحه.. قد دخل قلبه وأوغر فيه، حتى صار تابعًا.. صار هو نفسه شيطانًا، ويتبدّى ذلك على كل خلجة من خلجاته..

نظر له الحكيم لحظة متفحصًا، ثم قال:

– ما أنت تعمله، فاعمله بأكثر سرعة..

لم يفهم أحد ماذا يقصد، فأخذوا ينظرون إلى بعضهم حيرةً، بينما نهض ذاك الذي التهم اللقمة من على المائدة، وخرج للوقت..

فلما خرج، قال ذلك الحكيم:

– الآن تمجد ابن الإنسان وتمجد اللّه فيه.. إن كان اللّه قد تمجد فيه، فإن اللّه سيمجده في ذاته، ويمجده سريعًا..

وصمت هنيهة تملى فيها بملامحهم، ثم أردف:

– يا أولادي، أنا معكم زمانًا قليلاً بعد.. ستطلبونني، وكما قلت لليهود: حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم على أن تأتوا، أقول لكم أنتم الآن..

تركزت نظراتهم عليه، وهو يتابع:

- وصيةٌ جديدة أنا أعطيكم: أن تحبوا بعضكم بعضًا.. كما أحببتكم أنا، تحبون بعضكم بعضًا.. بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي.. إن كان لكم حب بعضٍ لبعض..

وهمّ بالنهوض، فقال ذلك الذي أومأ للمتكئ في حضنه:

- يا سيد، إلى أين تذهب؟..

أجابه الحكيم، وهو يتطلع إليه:

- حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني، ولكنك ستتبعني أخيرًا..

- يا سيد، لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن؟.. إني أضع نفسي عنك..

أجابه:

- أتضع نفسك عني؟.. الحق الحق أقول لك، لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات..

صمت تمامًا، وهو لا يقوى على النطق، بينما تابع الحكيم:

- لا تضطرب قلوبكم.. أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي..

يسود الصمت، بينما تنسحب أنظارك إلى الخلف مبتعدة، ويبدو مشهد الضوء المنبعث من العلية مقبضًا، وهو يخبو بسرعة غائبًا بين ظلام الليل تمامًا..

* * *

وظلم ذوي القُربى أشدّ مضاضة.. على المرء من وَقعِ الحُسام المُهند

"معلقة طرفة بن العبد"

* * *

بدأت قصة الآلام في زمنٍ بعيد.. أورشليم هو المكان.. حيث يتواجد اليهود منتظرين مجيء المخلص.. ذلك المهدي المنتظر الذي سيحررهم أخيرًا من عبودية الرومان لهم.. هذا هو موسم أعياد الفصح، حيث كان الخبز فطيرًا بلا خميرة، تذكيرًا لحدث الخروج من مصر..

وقتها كان زمنه هو..

السيد المسيح..

كانت دعوة السيد المسيح المنتظرة قد بدأت تجد صدًى كبيرًا، وجمهورًا واسعًا في أورشليم كلها، وبدأت تنتشر في بقاعٍ عديدة، وكان له جمهورٌ واسع يتبع تعاليمه وهدايته، حتى أثار ذاك حسد الكهنة والكتبة والفريسيين.. وصنع عندهم كرهًا وبغضًا، تمثل في حقدهم على المسيح وكل ما يدعو إليه..

وكان هذا هو كل ما يحتاج إليه إبليس لإفساد الدعوة تمامًا.. قد حاول أن يفسد الأنبياء من قبل، ونجح بالفعل مع آدم ويونس، بل وزرع الخطيئة في نفوس البشر، حينما وسوس لقابيل بقتل هابيل، إلا أن الأمر لم يعد سهلاً كما كان من قبل.. لم يعد يستطيع أن يفعل ذلك مجددًا، فقد كان الأمر

يبدو كما لو كانوا محصنين ضده، لا يمكنه أن يزحزح منهم شعرة.. ولذلك قرر أن يفسد قومهم..

يفسد دعوتهم من باطنها وداخلها؛ حتى يحرّف تعاليمَ اللّهِ للبشر، وينفذ انتقامه الأزلي..

كان الكهنة في ذلك الوقت قد أعدوا مؤامرة للقبض على المسيح والتنكيل به؛ حتى لا يخطف منهم الأضـواء، وتضيع هيبتهم ونفوذهم مع ظهوره تمامًا..

وحينها جاء دوره..

يهوذا..

واحدٌ من تلاميذ المسيح الإثني عشر.. تبعه بإخلاص لثلاث سنوات، وكله حماس للرسالة قد تبدَى في ولائه للمسيح، ولكن كل هذا تغير، عندما خاب أمله والصورة التي رسمها عنه.. كان يعتقد أن المسيح هو "الماشيحا" المُنتظر، والذي سيطرد الرومان ويرد للشعب حريته السياسية.. لم يكن هذا هو ما ظهر له من دعوة المسيح، ولم يكن هو ذاته نقيًا مثل الباقين.. بل كانت نفسه مطويةً طيًا عن الصلاح.. كانت له أجندته الخفية.. فقد كان يسرق الأموال من الخزينة التي عيّنه المسيح أمينًا لها، وكان يسمو للثراء ويحب النقود حبًا جمًا..

فلما أيقن أن دعوة المسيح في ذاتها هي دعوة روحية، وأنها ليست ثورة على حكم الرومان، كما كان يتمنى، وليس فيها ما سيقوده نحو طريق الثراء،

قرر أن يسلُك طريقه الخاص.. قرر أن يتنازل عن السيد المسيح؛ لأنه ليس الماشيحا الصحيح كما أقنع نفسه.. أراد التخلص من تلك الصورة، وربما ظن في قرارة نفسه أن صنيعه يفيد الأُمّة.. قرر أن يسلمه للرومان واليهود..

دخل الشيطان إلى نفسه واستولى عليها، فظن أنه بذلك يُسدى خدمةً إلى الأُمّة، وينال عليها النقود التي تمناها أيضًا.. فعندما ذهب إلى الكهنة، اتفقوا معه أن يمنحوه ثلاثين قطعةٍ فضية مقابل خدماته.. فكانت صفقةً لا تعوض.. كانت الأمور تجري في الاتجاه الذي أراده إبليس بالضبط.. وكان المسيح يعرف ذاك.. ويعرف بخيانة يهوذا له، إلا أنه كان يريد أن يمنحه كل فرصة ممكنة للتراجع والتوبة عمّا ينوي أن يقترفه.. فتلك هي المبادئ التي تقوم عليها دعوته.. المحبة والتسامح، والسلام..

وفي يوم العشاء الأخير الذي جمعه بتلاميذه.. بيّن لهم معرفته بمن سيسلمه، بعد أن انحنى على أرجلهم جميعًا وغسلها؛ علَ ذلك يثير في نفس يهوذا الندم، ويحُثّ الخير بداخله على غَلَبَة سيطرة الشيطان على نفسه.. ولكن يهوذا لم يستمع، ولم يرجع إلى رشده.. بل خاض فيما كان ينتوي فعله برغم كل شيء.. فبعد أن خرج من العلية، ذهب إلى رؤساء الكهنة، وخابرهم بأنه يعرف مكانه، فعادوا معه.. وكان الجُند الذين جاءوا للقبض عليه بحاجة لعلامة مميزة، تُرشدهم في قلب ظلام الليل الحالك إلى هوية منتهاهم..

وكانت قبلة الخيانة..

* * *

"الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح"

2 كو 4: 4

* * *

إنه منتصف الليل.. النجوم تزين ثوب السماء بهاءً، بِكرٌ لم يلوثها شيء بعد.. ليل خانق تشعر بأنه يُطبِق على روحك.. بأن السماء ذاتها حزناء.. وهو هناك في أسفل المشهد.. ذاك الحكيم الوقور.. يمشي في الوادي، وشعره يتطاير خلفه في الهواء، يتبعه بعض تلاميذه، ثم يولجون جميعًا بداخل ذلك البستان الجميل.. تشعر أن عينًا ما ترقبهم من حيث لا يفقهون.. ويمر الوقت ثقيلاً.. بطيئًا..

ومن بعيد، يمشي ذلك التلميذ مُقبِض الملامح، خلفه جُندُ عَسكَر برداءهم، وقائدهم، وخُدَّامهم من عند رؤساء الكهنة والفريسيين.. يخطون خطوات واسعة صوب البستان، حاملين المشاعل التي تُبدد وحشة الظلام، وتتبدّى على إثرها لمعات النصال التي هم حاملوها.. يمكنك أن تسمع همسات ذاك التلميذ لهم عبر نسمات الريح، فتبدو كوسوسات الشيطان..

– هو الذي أقبله.. هو الذي أقبله، فخذوه في حراسة شديدة..

يخطون بأحذيتهم الثقيلة داخل الوادي تابعين، يتقدمهم على مسافة ذاك التلميذ، متجهًا نحو الحكيم.. يطبع قُبلة حارة على وجنته كانت هي ما يصبو إليه العسكر..

- أبِقُبلة يا يهوذا تُسلِم ابنَ الإنسان؟

يتجهون صوب الحكيم الذي يستدير لهم في ثبات..

خطواته يبدو عليها علمه بما يدور، يتمثل في نبرات صوته الرخيمة التي تخرج من بين شفتيه:

- مَنْ تطلُبون؟..

فأجابوه:

- يَسوع الناصِري..

نبرات صوتهم ترتجف.. لا يفقهون لمَ، ولكن مرآه قد ألقى في قلوبهم وجلاً لا يدرون له سببًا..

قال هو لهم بعد أن صمت للحظة:

- أنا هو..

فكان وَقْع الكلمة عليهم ظاهرًا في تراجع أقدامهم للخلف راجفين، ناظرين له بعيون متحجرة، ولا ينبري أحدهم صوبه.. لا ينبس أحدهم حرفًا..

فسألهم هو أيضًا:

- مَنْ تطلبون؟..

فأجابوه كما قيل، فرد:

- قد قُلتُ لكُم إنّي أنا هو.. فإن كُنتُم تطلُبونَني، فدعوا هؤلاء يذَهَبون..

يتذكر في نفسه قوله مناجاةٍ لربه: إن الذين أعطيتني لم أُهلِك مِنهُم أحدًا..

يقربونه ممسكين، ثم يوثقونه، فيستل أحد التلاميذ سيفه ويضرب أذن أحد العبيد الواقفين، ليصرخ به الحكيم:

– اجعَلْ سيفَك في الغَمد.. الكأسُ التي أعطاني الربُ ألا أشرَبُها؟..

ينظر له التلميذ رهبةً، ثم يستدير مسلّمًا ساقيه للريح تابعًا التلاميذ الآخرين..

وهناك.. يقف هو..

ذلك الغامض، مرتديًا العباءة المتطايرة.. يتبع بنظراته التلاميذ، ويرقب المشهد بطرف عينه..

قد نال ما أراد، وتحقق ما كان يرنو إليه..

يبتسم..

* * *

يسحبونه خلفهم، ويجرونه..

صوب دار رئيس الكهنة يتجهون مقتربين، ترقبهم أعين الناس والخدم.. يتبعه تلاميذه من بُعد مراقبين.. ثم يغيبون في الداخل..

يجلس ذاك التلميذ ذو السيف وسط الحراس الذين أوقدوا نارًا تدفئهم ويصطلون بها، يرقب بطرف عينه ما يجري.. مرت خادمة بجوار النار، واجتذبها مظهره، فتفرست فيه، ثم قالت:

- وذاك الرجُل كان مع يَسوع !..

نظر له الحراس متشككين، فهز رأسه مستنكرًا:

- لا أعرِفُه يا امرأة !..

مر الوقت، ومضى رجلٌ بجوارهم، فقال مشيرًا صوبه:

- ألستَ أنت أيضًا من تلاميذه؟!..

فرفع التلميذ كفيه اتقاءً للتهمة قائلاً:

- كلّا يا رجُل !..

فقال أحدهم مؤكدًا:

- أما رأيتُك أنا معهُ في البُستان؟!..

فأدار عينه له صائحًا:

- يا رجُل، لا أفهَمُ ما تَقول ..

وعندئذٍ، صاح الديك.. ودوى صوته مجتذبًا تفكير التلميذ، فأدار عينه نحو الحكيم المقيد عند باب دار رئيس الكهنة، وكلماته تدوي في ذهنه.. لا يصيحُ الديك حتى تُنكرني ثلاث مرات.. نظرات الحكيم له تُلقي في قلبه الذنب.. فينهض من مكانه مبتعدًا، وعبراته تسري على وجنتيه..

أما الذين أمسكوا الحكيم، فأدخلوه إلى قيافا رئيس الكهنة.. يجلس حوله معلمو الشريعة والشيوخ مجتمعين.. هؤلاء هُم من يريدون أن يستحلوا دمه

على أنفسهم.. أوغرتهم صدورهم عليه، فلا يتقبّلون وجوده على أرض يعيشون هم عليها.. فلا نزل القطر بعدهم..

يلطمونه ويستهزئون به.. يطلبون شهادة زور.. يدلي الكثيرون بشهاداتهم، ولكنها لا تتفق.. ويرقب التلميذ ما يجري من بين الحراس.. يعرف أن محاكمته ليلاً تخالف شرائعهم اليهودية، ولكنه لا يجرؤ على البوح، ولا يبالون..

يمضي الوقت، فلا يفقهون ما يصنعون به.. ثم قام شاهدان، وقالا:

– هذا الرجل قال: أقدر أن أهدم هيكل اللّه وأبنيه في ثلاثة أيام..

فأدار رئيس الكهنة عينيه إليه، وقال:

– أما تُجيبُ بشيء؟.. ما هذا الذي يشهدان به عليك؟..

لا يرد، ولا تختلج ملامحه حتى، فيقول رئيس الكهنة:

– أستحلِفُك باللّه الحي أن تقول لنا، هل أنتَ المَسيح؟..

صمت الحكيم للحظة، ثم دوي صوته، عميقًا يُزلزل نفوس الجالسين:

– أنت قُلت، وأنا أقول لكم سترَون بعد اليوم ابنَ الإنسانِ جالسًا عن يَمين اللّه القدير، وآتيًا على سحابِ السماء..

فضجت القاعة بأصوات المعترضين والذاهلين، وشق رئيس الكهنة ثيابه شأن من سمع تجديفًا، مع أن الأعراف اليهودية والشرع يُحرّم عليه ذلك، ثم قال:

- تجديف !.. أنحتاج بعدُ إلى شُهود؟.. قد سَمِعتُم تجديفه بآذانكم، فما قولكُم؟..

ضجيج..

- يستوجِبُ الموت..

فاستدار إلى الحكيم وبصق في وجهه، ولطمه بكفيه، وتناوب الحرس على ضربه ولكمه.. وهو يحتمل كل ذاك، وعيناه تنظران من بين الجموع إلى تلميذه، الذي تنسكب دموعه مغرقة لحيته، وشعور العجز يغص عليه حلقه، فلا يقدر على نظم أنفاسه..

- تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك !..

ضجيج وسخرية، ولطمات.. الكثير منها.. يلقونه في زنازينهم ويمر الوقت عليه ثقيلاً، ثم يسحبونه خلفهم نحو قصر الحاكم.. بينما هو يتذكر النبوءة من العهد القديم بسفر إشعياء..

"ظُلِمَ، أما هو فتذلل، ولم يفتح فاه.. كشاه تُساقُ إلى الذبحِ، وكنعجةٍ صامتةٍ أمام جازِّيها، فلم يفتح فاه.."

قد تحققت.. كلها تتحقق، فأي مَجدٍ ذاك؟.. إنه تاريخ الأديان يُكتَب، وهو مُحقِقُه..

يسحبونه صباحًا، حتى قصر الحاكم بيلاطس.. فيدخلونه إليه، ويمتنعون عن الدخول؛ لئلا يتنجسوا، فلا يتمكنوا من أكل عشاءِ الفصح، فيخرج لهم

بيلاطس بذاته في الشرفة الواسعة، ومن خلفه الحكيم مشدودٌ وثاقهُ وسط حراسه، ويسألهم:

- أيَّة شكايةٍ تُقدَّمون على هذا الإنسان؟..

فيجيبوه:

- لو لَم يَكُن فاعلَ شرّ، لما كُنا قد سلَّمناه إليكَ..

فيقول:

- خُذُوهُ أنتم، واحكمُوا عليه حَسَبَ ناموسِكُم ..

فيجيبوه:

- لا يجُوزُ لنا أن نقتُل أحدًا..

تتحقق..

الميتة التي تنبأ بها تتحقق.. أي مجد ذاك؟..

يستدير له بيلاطس صائحًا:

- أنت مَلِكُ اليهودِ؟..

فيجيبه:

- أمِن ذاتكَ تقولُ هذا، أم آخرُين قالوا لكَ عنّي؟..

فيقول بيلاطس مستنكرًا:

- ألعلّي أنا يهوديٌّ؟!.. أُمّتُكَ ورؤساء الكهنة أسلَموك إليَّ.. ماذا فَعَلَّت؟..

نظر له الحكيم لحظة، ثم قال بنبرات صوته العميقة:

- مَملَكَتي ليست من هذا العالم.. لو كانت مَمَلَكَتي من هذا العالم، لكان خُدّامي يُجاهدون لكي لا أُسلَّم إلى اليهود..

صمتٌ يستولي على الجموع، بينما هو يردف:

- ليست مَمَلَكَتي من هنا..

فقال له بيلاطس:

- أفأنت إذًا مَلِكٌ؟..

أجابه الحكيم:

- أنتَ تقول إنّي ملكٌ.. لهذا قد وُلِدتُ أنا، ولهذا قد أتيتُ إلى العالم لأشهدَ للحقَّ.. كُلُ من هو من الحق يسمعُ صوتي..

فقال بيلاطس حائرًا:

- ما هو الحقُّ؟..

ثم استدار إلى اليهود قائلاً:

- أنا لستُ أجد فيه علةً واحدةً.. ولكم عادةٌ أن أُطلق لكُم واحدًا في الفِصحِ.. أفتُريدُونَ أن أُطلقَ لكُم مَلِكَ اليهود؟..

ضجيج.. أصواتهم تتعالى مرددة:

- ليسَ هذا، بل باراباس..

باراباس اللص.. يريدون أن يطلقوه ويعفون عنه، ولا يطلقونه هو..

فاستدار بيلاطس إلى الحراس، وأومأ لهم برأسه، فلطموا الحكيم في معدته وسحبوه إلى غرفة التعذيب..

وهوت سيور بيلاطس الجلدية على ظهره، فما تأوه.. احتمل في صبر، وصوت ارتطام السوط بجلده يشي بما يعانيه.. وجرده الجُنود من لِباسه، ثم ألبسوه ثوبًا قرمزيًا، وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه، فسالت منه الدماء.. ولكنه لم يتأوه..

فجعلوا في يمينه قصبة، ثم ركعوا أمامه مستهزئين..

- السلامُ يا ملك اليهود..

ثم أخذوا منه القصبة، وجعلوا يضربونه بها على رأسه، وهم يجرجرونه من جديد إلى الشرفة أمام جموع الشعب والكهنة..

ووقف أمامهم بيلاطس، وهو يشير إليه قائلاً:

- ها أنا أُخرجهُ إليكم لِتُعلموا أنّي لستُ أجِدُ فيه علّةً واحدة..

ثم رفع ذراعيه على امتدادهما، والحكيم يخرُج من خلفه:

- هوَ ذا الإنسان..

فتعالت أصواتهم وضجت حناجرهم بالهتاف..

- اصلِبهُ.. اصلِبهُ..

فقال بيلاطس:

- خذوه أنتم واصلِبوه.. لأنّي لستُ أجد فيه علَّة..

فأجابه أحد الكهنة:

- لنا ناموسٌ، وحسبَ ناموسِنا، يجبُ أن يموت، لأنّه جعل نفسهُ ابن اللّه..

فتسمر بيلاطس مكانه لحظة أدار عينيه فيها إلى الحكيم..

ابن اللّه؟.. ما الذي يعنونه؟.. هل يعنون كونه ذاك الماشيحا المنتظر الذي يتكلمون عنه؟.. هل ذاك الرجل مريح القسمات هو قائد الثورة التي ستقوم على الرومان؟.. هذا يُغير الأمور بالتأكيد.. ولكنه لا يستطيع أن يحكُم عليه بلا سبب.. هذا يخالف شرعه كحاكم..

قال له بيلاطس:

- من أين أنت؟..

فما أجابه الحكيم، مما دفع بيلاطس لأن يردف صائحًا:

- أما تُكلّمُني؟.. ألستَ تعلم أن لي سُلطانًا أن أصلِبَك، وسُلطانًا أن أُطلِقَك؟..

فأجابه الحكيم:

- لم يكُن لكَ عليّ سُلطانٌ البتَّة، لو لم تكُن قد أُعطيتَ من فوقُ.. لذلك الذي أسلمني إليكَ لهُ خُطيَّةٌ أَعظم..

ومضى اليوم.. ومرَ الوقت، وبيلاطس يحاول أن يُخلي سبيله، ولكنما اليهود صاحوا كُلما حاول:

إن أطلَقتَ هذا فلَستَ مُحِبًّا لقيصر.. كُلُّ من يَجعَلُ نَفسَهُ مَلِكًا يُقاوِمُ قيصر..

فلما سمع بيلاطس أقوالهم، أخرج الحكيم، وجَلسَ على كُرسي الولاية في موضع البلاط، أو "الجباثا" بالعبرانية.. وكان ذلك يوم الجمعة، وهو يوم الاستعداد والتهيئة للفصح، وكان الوقت نحو الساعة السادسة، فقال لليهود مشيرًا للحكيم:

- هو ذا مَلِكَكُم..

فدوى صياحهم..

- خُذهُ خُذهُ اصلِبهُ..

فقال لهم:

- أأصلِبُ مَلِكَكُم؟..

فأجابوه:

- ليس لنا مَلِكٌ إلّا قيصر..

فأذن للحراس ليسحبوه في غلظة..

ووسط جموع الشعب ساروا به متجهين نحو المصير الأزلي.. نحو الصليب..

وهو هناك.. ما زال يقف وسط الجموع بعباءته الطويلة مراقبًا ما يدور من

الركن الخفي كما كان دومًا صنيعه.. يرقبه، وهو يحمل صليبه سائرًا نحو موضع الجمجمة، أو "جُلجُثة" كما يسمونه بالعبرانية..

يرقبهم، وهم يرفعونه على صليبه وسط اللصوص والمجرمين.. يبتسم في تشفٍ، وهم يطعنون جنبه بالحربة بعد أن أسلم الروح، واهتزت السماء والأرض لحدث رحيله.. يستدير وتتطاير عباءته خلفه في الهواء، وهو يبتعد وسط الجموع، ويتبدّى من خلفه مشهد الصليب الدامي المتشقق..

قد نالَ ما أرادَ أخيرًا..

* * *

بعد أن رأى يهوذا ما حدث شعرَ بالذنب، وعاد للكهنة وحاول أن يرد الثلاثين من الفضة التي تقاضاها ثمنًا لخيانته، وقال لهم بأنه قد أخطأ حينما سلم دمًا بريئًا، ولكنهم أنكروه وقالوا: ما علينا؟.. دبر أنت أمرك..

رمى بعدها يهوذا الفضة في الهيكل وانصرف، وانقسمت الآراء، والروايات، والأديان ذاتها عن مصيره بعدها.. فهناك من يقول أنه شنق نفسه، وهناك من يقول أنه في الواقع، صُلِبَ بدلاً من السيد المسيح، بعد أن رفع الله الأخير للسماء.. ولكن هذا ليس موضوعنا..

أخذ رؤساء الكهنة بعدها الفضة، واتفقوا على أنها ثمن دم، وأنه لا يحِل لهم وضعها في صُندوق الهيكل، فابتاعوا بها حقلاً للخَزّاف، وجعلوه مقبرةً للغرباء.. ولذاك السبب يسميه الناس حقل الدم حتى يومنا هذا..

أحد معالم التنظيم الرئيسية التي يمتلكون بجوارها قاعدة تحت الأرض،

تُعد واحدةً من عددٍ غزيرٍ من القواعد حول العالم.. تُعلن تلك لهم دومًا، وتُذكّرهم بما يظنونه انتصارهم الأكبر.. قتل السيد المسيح على يد اليهود والرومان، بعد مؤامرة إبليس القائد.. إنه الانتصار الأعظم..

ويهوذا؟.. إلى أين ذهب؟..

هل مات حقًا وقتها شانقًا نفسه، أو بدلاً من يسوع؟، أم أن ما حدث له هو أكثر غرابة؟..

لم تكُن تِلك هي النهاية بالنسبة له.. فالتاريخ ليس كما يعرفه أحد..

ليس التاريخ سوى لُعبة صنعها التنظيم..

وما هو ذاك التنظيم؟..

ربما عرفنا يومًا..

* * *

- 6 -

ظلام الزنزانة.. ذرات الغبار المتطايرة، تحلّق فوق أفكاره..

يقبع هناك في الركن ساكنًا.. يجلس القرفصاء دافنًا وجهه بين كفيّه، لا يفقه ما يحس ويشعر.. لا تسمو نفسه سوى للوحدة التي قد تعلقت بها، والسكون الذي قد استولى على ظاهرهُ، بينما باطنه يتفجر كبحارٍ هائجة..

يحاول ألا يفكر، ولكن ثورة قلبه على عقلة تدفعه دفعًا لأن يتذكر..

يتذكر كل لحظة مرت.. يتذكرها.. يتذكر وجهها وملامحها الدامية.. يتذكر دماءها النقية التي سالت على الرصيف، لتدوسها أحذية قاتليها وقاتليه..

قاتلو كل ما حارب يومًا لمنعه..

العُزلة هي عذابٌ بطيءٌ كالوقت، لو لم يكن التفكير مما يريحك.. وهو يشعر مع كل ذكرى بأن قلبه يتمزق.. لا يفهم لماذا ولا كيف.. لا يفقه دوره في مثل هذه الحياة، ولم يعد شيئًا مما يهمه.. صار خاويًا لا يشعر.. حتى دموعه تجمدت على وجنته، فلم تعد تسيل..

ظلام الزنزانة وذرات الغبار هم كل عالمه.. لا يصبو إلى الخروج منه، فهو لن يحتمل شعاع شمسٍ واحد يداعب جفنيه المتورميّن من عذاب التفكير، أو جسده ورأسه الجريحين من ألم هراوات مغتصبيه وبياداتهم.. يطمح إلى البقاء ها هنا وحيدًا ما تبقى له من العمر.. لو سمحوا له..

لقيماته بلا مقابل.. يملك مكانًا ليجلس فيه، يحدث شخوص أفكاره في خيالاته، ولا ينبري منه فعل.. ألا فلتتركوني لحالي، فهذه جنة العُزلة، وحياتي المُثلى.. لا يطمح.. لا يقدر على الطموح..

قد تخلى عن كل ما كان يتطلع إليه، وساهمت أرض بلاده ومغتصبوها على جعله يفقد أمله في كل ما يمكن أن يحصده على مدار سنين عيشته المريرة.. فمن هو مثله لا دور له سوى أن يُركَل بالأحذية..

فليُركَل.. فهو لا يُبالي.. كما كان الحال دومًا..

لا يبالي حتى بمن يهتمون به في العالم هناك بالخارج.. ومن يهتم؟.. من يشعر؟..

أمه؟.. تبًا لها.. تبًا لها ألفُ مرة.. لم يكرهها يومًا، ولكنه لا يمتلك من أمر نفسه شيئًا الآن..

فلتدعوني أكرهها، فأنا لم أكره أحدًا في حياتي من قبل ولم أبغض.. لِمَ لا يكون الكره باختياري مرة؟..

يمر عليه الوقت، فلا يدري إن كانت تلك ساعات، أم ليالٍ، أم سنون.. ربما كانت قرونًا ودهورًا، فهو قد اعتاد الزنزانة.. اعتاد ضيقها الرحب الذي يحتضنه ويصطلي به، واعتاد رائحتها التي أصبحت رائحته، وغبارها الذي صار بشرته.. اعتاد ظلامها الذي أصبح شروقه وغروبه.. وفراغها الذي احتلته شخوص خيالاته وذكرياته..

سقفها الذي أصبح سماءه، وجدرانها التي أضحت حدوده.. قد صارت تلك هي حياته، ولا يدرك عيشة غيرها، ولا يصبو سوى لوحدته.. لا يهتم.. ألا فلتتركوني لحالي.. دعوني أنعم بسلامي.. يمر عليه الوقت متسللاً، فلا يحس.. حتى ينفتح باب الزنزانة لأول مرة.. ينفتح كاشفًا ذلك الشخص ذا الملابس المدنية الواقف هناك، وجواره يقف الصول المُكلَف بحراسة الزنازين..

- هل هذا هو؟..

يشير له ذو الملابس المدنية.. يبدو في قامته الفارعة وثقته كصاحب منصب..

- أجل.. هو ذا..

يحدق عمر فيهما، وهو يغطي عينيه بكفه؛ اتقاء النور الذي لم تعتده عيناه منذ فترة.. ثم يتقدم منه ذو الملابس المدنية ذاك، ويمسك به من تلابيبه لينهضه حتى يقف على قدميّه الجريحتيّن، ويجرجره خلفه في عنفٍ كالخراف.. يغلق الصول خلفه بوابة الزنزانة، ولا يفهم عمر ما يجري بالضبط..

لا يستوعب.. يجذبه ذو الملابس المدنية خلفه، ويقف الضباط في السجن تحيةً له..

- تمام يا فندم..

لا يرد هو عليهم، وهو يمشي في ثبات جاذبًا عمر خلفه.. عمر الذي يحاول التملص، فيلتفت ويصفعه صفعة زلزلت كيانه وألقته أرضًا.. ثم ينحني عليه من جديد، ويُنهضه، ويجذبه من ملابسه.. الدموع تترقرق في عينيه.. لا يفهم ما يحدث له بالضبط، غير أنه لا يمكن أن يكون خيرًا أبدًا.. لم تفرغ منه الدنيا بعد، بل ما زال في جعبتها الكثير..

تنفتح بوابة السجن عن سيارة الشرطة الفخمة الواقفة، ويفتح أحد الرجال بداخلها الباب، ليلقيه الضابط ذو الملابس المدنية داخلها كيفما اتفق.. وينغلق الباب والسيارة تنطلق..

– اذهبْ إلى المكتب يا حسن.. فمعنا ضيف..

– المكتب الخارجي، أم في المقر يا فندم؟..

– الأمن الوطني.. انطلقْ..

* * *

تتوقف السيارة أمام المبنى العملاق.. يبدو الجو أمام عينيه أشبه بيوم الحساب.. يفتحون الباب ويجذبونه خارج السيارة، ويدفعونه بنفس العنف داخل المبني، ولا يحاول هو أن يقاوم؛ لئلا يتلقى صفعة أخرى.. فقط يسأل:

– ما الذي يحدث؟.. ماذا فعلت؟..

فما يجيبه أحدهم، وإنما يقودونه دفعًا نحو الدرج.. ويدفعونه، وهو يمتطيه هبوطًا، فيتعثّر ويتدحرج على درجاته التي ترده في قسوة، فتئن كل عظمة

في جسده متألمة.. ولكنهم لا يتركونه ليرتاح لحظة، بل يجذبونه.. لا يقدر على الوقوف، فيجرّوه على الأرض خلفهم، وقلبه يعوي في فزع.. يتبدّى أمامه مشهد الغرفة المقبضة في آخر الممر الذين يمشون صوبه.. يفتحون الباب الحديدي الضخم، لتنكشف الغرفة الصغيرة المربعة، ذات القيود والأصفاد الحديدية المعلقة في السقف، والكرسي الخشبي الصغير الملقى على الأرض.. يلقونه بداخل الغرفة، ويدخل ثلاثتهم، ثم يغلق أحدهم الباب، بينما يلتفت ذلك الضابط ذو الرتبة والملابس المدنية له، ويقول، وهو يشمر عن ساعديه:

- مرحبًا بك في مملكتنا المتواضعة..

ثم جذب كرسيًا آخرًا كان في الركن المظلم، وجلس عليه في هدوء، وهو يميل بساعديه على فخذه نحو عمر الساقط على الأرض، وقال في هدوء:

- اسمعْ.. يمكن لهذا أن يمُر بطريقتين فقط لا ثالثةَ لهما.. طريقة سهلة، وطريقة صعبة.. وفي الحالتين، ستتكلم..

يعتدل عمر، وهو يمسح الدماء السائلة من شفته الجريحة، بينما تابع الضابط:

- الطريقة السهلة هي سهلة كما قلتُ لك، وربما أمكنك الخروج من هنا على قدميك، وليس على نقالة أو بداخل كيس.. الصعبة هي كما يتبين لكَ من اسمها.. صعبة..

قالها وابتسم ابتسامة مستهزئة، جعلت عمر يقول، وضربات قلبه تتسارع:

- لا داعي لكل هذا، أنا لم أرفض الحديث.. ما الذي تريدون معرفته بالضبط؟..

تراجع الضابط في مقعده، وهو يصفق..

- هذه هي روح التعاون.. أعطوا هذا الرجل ميدالية..

ابتسم الآخران في سخرية، بينما قال الضابط:

- اخبرني اذًا يا عمر.. أين ذهب حجازي والبلتاجي؟..

نظر له عمر في عدم فهم..

- من هؤلاء؟..

طقطق الضابط بلسانه في بطء، وهو يهز رأسه كأنما يحدّث طفلاً، ثم قال:

- لماذا يا عمر.. لماذا؟.. قد كنا على وشك إعطائك ميدالية..

ثم نهض من على الكرسي، واستدار إلى أحد الواقفين خلفه، وأضاف:

- حَضِرْ لي "العِدّة"..

أومأ الرجل برأسه علامة الإيجاب، واستدار خارجًا من الغرفة، بينما استدار الضابط، وجلس جوار عمر ليربت على كتفه الذي بدأ في الارتعاد حرفيًا، وهو يقول بصوت دافئ:

- دعني اخبرك شيئًا يا عمر..

نظر له عمر، والدموع في عينيه تلمع، بينما أردف الضابط:

– نحن في الأمن الوطني، أو أمن الدولة كما كانوا يطلقون عليه، لا نحب ما نفعله.. بالطبع لن أكذب عليك وأقول لك أن جميعنا لا نحب تلك الأمور، فالبعض أوغادٌ ويعشقون التعذيب، ويعتبرونه فنًا يجب أن تُقام له المسابقات، وأن تُقدم له جائزة سنوية..

تسارعت دقات قلب عمر أكثر، بينما تابع الضابط، وهو يبتسم ابتسامة واسعة:

– أنا أفتخر بكوني واحدًا من هؤلاء..

دخل المساعد في هذه اللحظة حاملاً صندوقًا خشبيًا ضخمًا، يدوي من داخله صوت رنين يشير إلى المعدات المعدنية الكثيرة التي يضمها، فربت الضابط على كتف عمر، ونهض متجهًا نحو الصندوق، وهو يشير للمساعد الآخر إشارةً ذات معنى..

اتجه ذاك الأخير صوّب عمر، وأمسكه في عنف ليقف، ثم أمسك معصميه ليضعهما في الأغلال المتدلية من السقف، ويحكم غلقها، ثم ربت بكفه على وجنته في رفق، وهو يغمز بعينه اليسرى مبتسمًا.. واستدار مبتعدًا، بينما الضابط يقترب، وهو يمسك سكينًأ صغيرًا ويقول:

– لذلك فأنا في الواقع كنت أتمنى ألا تتكلم.. لأن هذا سيعطيني فرصة لممارسة هوايتي المفضلة..

انتفض عمر في فزع مع مرأى السكين، وهو يهز جسده في عنف محاولاً انتزاع الأصفاد، ويرفع قدماه مبعدًا جسده إلى الخلف، فلا ينجح ذاك إلا

في أرجحته من السقف كالشاه الذبيحة..

- لا.. أرجوك.. أنتظر.. أنا لا أعرف من تتحدث عنهم.. أخبرني فقط وسأتكلم..

ربت الضابط على وجنته في رفق، وهو يقول بصوته الدافئ:

- وأنا أصدقك.. لا تقلق..

ثم رفع السكين ليشق بها جرحًا قطعيًا طويلاً وشديد الدقة تحت إبطي عمر، بينما الأخير يصرخ من الألم..

انتهى الضابط من شق الجرح، فاستدار بجواره ليبحث عن شيء آخر، ليجد الصندوق في آخر الغرفة، فقال لمساعده في هدوء:

- أحضرْ الصندوق إلى هنا يا حسن..

حمل المساعد الصندوق، ووضعه عند قدميّ الضابط الذي انحنى عليه، ليلتقط كيسًا صغيرًا فتحه، والتقط من داخله بعضًا من ذلك المسحوق الأبيض على طرف السكين، وشرع في حشوها بالسكين داخل جرح عمر الذي تعالى صراخه ليصم آذان الجميع، لكنه لم يتعدى حدود الغرفة عازلة الصوت.. أشار الضابط إلى المساعد الآخر متأففًا من صراخ عمر، وهو يقول:

- كممْه أو افعل شيئًا لإسكاته.. لدي صداع ولا أحتاج ذاك الآن..

اتجه المساعد إلى عمر، وهو يخرج قطعة قماش طويلة من جيبه، وكمم

فمه بها، وهو يقاوم في ذعر، فلا يفلح سوى في تلقي لكمة عنيفة في معدته جعلت جسده يهمد تمامًا..

قال الضابط:

– ما بك يا عمر؟.. هذا مجرد ملح.. لا أعتقد أنه يؤلم لهذه الدرجة.. كنت أظنك رجلاً ولن تصرخ مع أول جرح.. مازال يومنا طويلاً يا عزيزي، فلا تنهك نفسك بسرعة..

تساقطت الدموع من وجه عمر، وهو يحاول الكلام أو الصراخ فلا يفلح بسبب الكمامة، بينما جذب الضابط الكرسي وجلس عليه في هدوء، وأضاف، بينما الأول يتلوّى ألمًا:

– حسنًا.. سأعطيك فرصة أخرى لأنني شخصٌ متفهمٌ ومتسامح.. فلنجرب السؤال من جديد..

ومال في مقعده نحو عمر..

– أين صفوت حجازي ومحمد البلتاجي؟.. أين هربا؟..

تساقطت الدموع من وجه عمر، وهو يحاول الكلام فلا يفلح، فنهض الضابط واقترب منه، وهو يضع كفه حول أذنه محاولاً السماع بحركة مسرحية..

– ماذا؟.. ماذا تقول؟..

– أومففففف..

– لا تعرف؟..

هز عمر رأسه في ذعر، بينما تابع الضابط:

- لا مشكلة.. دعني أطرُق أجراس ذاكرتك قليلاً..

وانحنى على الصندوق، بينما عمر يحاول الصراخ من خلف الكمامة، وهو يتلوى محاولاً ركل الضابط، فأمسك المساعدان بفخذيه، وربطاهما بذلك الحبل الذي يخرج طرفه الآخر من الأرض، ثم تركاه.. لا يقدر على تحريك جسده، بينما الضابط ينهض ممسكًا بتلك الكماشة الصغيرة..

- عمر يا عمر يا عمر.. لماذا تصعّب الأمور على نفسك يا صغيري؟..

وانحنى على قدمه وأمسك إصبع قدمه الأوسط بالكماشة، وأحكم إغلاقها عليه تمامًا، واستدار إلى الصندوق ليُخرج تلك المطرقة متوسطة الحجم..

ضغط على الكماشة بيده بقوة، فتأوه عمر بشدة، قبل أن يهوي الضابط على مقبضها بالمطرقة ليدوي صوت العظام وهي تتحطم..

* * *

- نحن نُسرَق، ونُعذّب، ونُخطَف، ونُخدَع منذ ثلاثين عامًا، فما الذي تغير؟.. ربما نقدر في هذه المرة على إحداث فارقٍ ما..

* * *

لم يتغيرّ شيء.. ولم يكن ذاك هو الحل.. فلا حل هنالك..

من هم مثلك، لا دور لهم سوى أن يُركَلوا بالأحذية..

* * *

يتصاعد الدخان من جسده الهامد، بينما المساعد يوقف تشغيل الكهرباء، فتتوقف عن السريان في السلك الغليظ نحو جسده المتفحم الدامي..

لا يقدر على رفع وجهه حتى، بينما يقول الضابط:

- حسنًا.. أنا أصدقك.. ربما كُنتَ حقًا لا تفقه أين هم، ولكنني لن أتوقف برغم كل شيء..

يلطمه بقبضته في معدته..

- أنت ملكي..

يلطمه لطمة أخرى..

- حياتك أو موتك ملكي، كما كان ملكي حياة كل من هم مثلك من قبل..

لطمةٌ في أسنانه مباشرةً..

- قُل لي.. تلك الفتاة التي ماتت بالرصاصة.. هل كانت عشيقتك؟..

لكمةٌ في عينه اليسرى..

- عندما وجهتُ القرار للقناصة بإطلاق النار، لم أكن أعرف أنها فائرة الجسد بذلك الشكل.. القناص الأحمق يهوى المزاح، وأراهنك أنه كان يظن أن المزحة جيدة..

صفعة على وجهه..

- لكنك لا تقدر على ابتلاع المزاح كما يبدو..

يركله بين فخذيه..

– أعترف أن مزاحي أنا ثقيل بعض الشيء، ولكنني أثق بأنه يعجبك.. أليس كذلك؟..

يجذبه من شعره، يرفع رأسه في مواجهته لينظر إلى عينيه مباشرة، ويصرخ:

– أليس كذلك؟..

يهز عمر رأسه في ضعفٍ؛ اتقاء شره، فيتلقى لكمة أخرى في أنفه..

– أشكرك يا عزيزي..

ثم يتوقف عمّا يفعله، ويجلس على الكرسي ليلتقط أنفاسه.. يشير لمساعده الأول..

– خذه إلى جُحره.. لن يستطيع المواصلة.. دعه يستريح قليلاً، وسنكمل في الصباح..

تقدم المساعد من الجسد المعلق ليفك قيوده، فتهاوى كجوالٍ من الصخر بين ذراعيه، فحمله حملاً.. يتجه نحو الباب ويفتحه المساعد الآخر، ويحملانه حملاً نحو الزنزانة.. الدماء تسيل من كل موضعٍ في جسده ووجهه.. لا يقدر على المشي على أصابع قدمه المحطمة..

يتذكر نبيل.. يتذكر صوته..

"حتى لو كنتَ لا تدرى عمّا أتحدث، لا أعتقد أنك واقعٌ في حب النظام..

أليس كذلك؟.. أليس هؤلاء هم من أوصلونا لما نحن فيه الآن؟.. أليس هـؤلاء هم من خطفوا، وعذبوا، وفجروا، وكذبوا، وضللوا، وسرقوا؟.. أليس هؤلاء هم سبب دمار ذلك البلد الذى تعتقد أنك تكرهه الآن وتكره شعبه؟.."

يتذكره ولا يدري لماذا.. يتذكر مي.. يتذكر كلماتها..

"أنا آسفة.. لم أعنِ ما فعلته.. أريد أن ألقاك.. سامحني.."

يتذكر وجهها، وهي تنزف روحها دمًا على قارعة الأسفلت.. يتذكر شفتيها المزرقة، وعينيّها الخاليتيّن من الحياة.. كان القناص يمازحه.. ظرفاء هؤلاء القناصة، وأولاد حظ فعلاً.. يجرونه جرًا، والدماء تسيل من وجهه فيبصقها على الأرض..

صرير باب الزنزانة الصغيرة يدوي في أذنـه، فينتفض معه قلبه وجلاً وألمًا.. يتذكر ملمس كفها، وهي تفارقه.. ويتذكر ملمسها، وهي تفارق العالم.. يتذكر شعرها السابح في دمائها..

"سامحني.."

يلقونه كالخرقة بالداخل، ثم يغلقون الباب.. يغلف الظلام دموعه، التي تسيل ممتزجة بدمائه على تراب الأرض التي يلمسها بوجهه، بغير قدرة على الحراك.. يتذكر.. يتذكر كل شيء.. ولا ينسى..

ذاك هو عذابه الأوحد.. ذكرياته لا قيمة لها سوى في خزانة عقله.. ولا

دور لها سوى طعن قلبه بنصالٍ من جمر كلما استعادها.. هو في المعسكر الخاسر.. كان وسيظل دومًا يُركَل بالأحذية.. فقد اختار الطريق الخاطئ منذ البداية.. لا يقبله معسكرٌ واحد، فهو دومًا من المعسكر الآخر في أنظارهم.. النظام يظنه من الإخوان، والإخوان يظنونه من النظام.. والثوار يعتبرونه عميلاً للاثنين، وهو ليس أيهما..

هو مجرد شخص.. شخصٌ يحاول أن يحيا بكرامة، ولا يهتم لو احترق العالم من حوله.. أو ربما هو يهتم لدرجة اللامبالاة.. قد فقد كل شيء، ولكنه بشكلٍ ما، مازال يفقد المزيد.. يفقد ما لم يدرك وجوده، ولم يظُن أنه يمتلك من قبل.. لم تفرغ منه الدنيا بعد، وما زالت تهوى المزاح.. قد سقط من فوق مائدة القدر، ونسيه الزمن، ولم يعُد أحد يتذكره أو يأبه..

هو حقيرٌ فقير، لا يملك من أمر نفسه شيئًا.. الفقراء يدخلون الجنة، فلا ضير من موتهم، ولكن ليس هو.. لن يدخل الجنة حتى لو كانت موجودة فعلاً.. هو في الجحيم باقٍ، وحتى لو لم يكن ذاك حقيقيًا، فهو يحياهُ كل يوم.. فقط يتمنى لو تُرِكَ وشأنه، لكن ليس الخيار ترفًا متاحًا.. من سيُركَل بالأحذية لو لم يكُن هو؟..

اسمه عمر.. وتلك هي حياته.. وستظل..

* * *

رُبما تَعِب.. ربما تَخلَّت عنهُ الحياة، ورُبما عَبِسَت، ولكِنهُ أبدًا لن ينهَزِم..

* * *

غبار..

ذراتٌ منه تطير في السماء مضيئةً، ويبدو مظهرها المتألق على شعاع النور الوحيد المتسرب من بين قضبان النافذة الضيقة أشبه بصديق يحاول أن يُخففِ عنه وحدته، فلا يُفلح..

يجلس وحيدًا في ركنٍ قصي، دافنًا وجهه بين قدميه، يتذكر.. بلا إرادةٍ منه يستعيد كلَ شيء..

قد كان يتكلم عن تفويضه بالقتل كأنما هي طُرفة، لا خطأ فيها ولا ذنب.. سلبها منه، وسلب قدرته على العيش، وأورثه كابوسًا دائمًا يحياه، ولا يهتم أو يأبه..

يسكنه زنزانة ضيقة لا تتسع لصدى أفكاره، ويسمنه بخبزٍ لا يغنيه من جوع، حتى ينال نشوته السقيمة من تعذيبه..

كشاةٍ لا تقوى على مواجهة جازّيها، ولا يغنيها عويلها عن ألمها، ولا تقدر على أن تهرب.. لا تسيل منها دموع، فهي لا تملكها..

صمت..

صمتٌ يسود، ولا تعكر سكونه سوى عبرات متساقطة بلا شعور منه، يسمع صوت ارتطامها بالأرض، فيبدو دويه عاليًا، كموجٍ ينشق على صخور شاطئ بحرٍ ثائر.. ثم ينفتح الباب..

صريره، وهو ينزلق كاشفًا الردهة خلفه يشبه دوي القنبلة في وسط متناهي

السكون..

رفع عينه الدامعة إلى العدم خلفه.. لا شيء هنالك.. من فتحه إذًا؟..

يحدّق فيه لحظة، ثم ينهض واقفًا، ويحجل على قدم واحدة حتى عتبته، ويشرئب بعنقه خارجًا، يستكشف المحيط.. لا أحد يقف هناك.. قد فُتِحَ الباب من تلقاء نفسه !.. لا يوجد حتى جندي يقف حارسًا.. يخرج إلى الردهة الكئيبة.. عن يمينه زنازين، ويساره زنزانات.. خاليةٌ جميعها، ولا يحتل فراغ إحداها أحد..

يحجِل في الرُدهة، وحده تمامًا بلا رقيب.. ويتبدّى لعينه ذاك الواقف من بعيد، يغلفه الظلام، فلا يبدو منه سوى منظر تلك الحُلة الفاخرة التي يرتديها، وربطة العنق السوداء الداكنة، التي لا يرتسم عليها شيء سوى ذلك الشعار، والذي لا يميزه بسبب الظلام.. لحيته الطويلة المُشذبة يختلط سوادها بشيبها، فتعطي مظهره رونقًا لا يتناسب مع كآبة المكان حوله.. يتسمر في مكانه لحظة يحدق خلالها في ذاك الغامض، الذي يخرج صوته عميقًا يأتيه عبر الردهة، فيشعر به يتسرب لروحه مباشرة:

- مرحبًا بكَ يا عمر..

إنه يعرف اسمه !.. لا يدري كيف، ولكن لابد أنه أحد الضباط.. لا بد أنه جاء ليتابع تعذيبه.. تراجع بالفعل إلى الخلف خطوة، ليقف مستندًا على قدمه السليمة، بينما أضاف الغامض بصوته العميق:

- اسمي هو لويس.. ولكن بإمكانك أن تدعوني لو..

يتقدم إليه، فيغزو الضوء ملامحه، ويرسمها لتتمثل في خياله، فلا توصف، بينما صوته يتابع:

- قد رأينا ألمك بأعينِنا.. ووددنا لو نساعدك..

لا يفهم.. ولا يستوعب.. تتحرك شفتاه ليخرج صوته متحشرجًا، شأن من لم يتكلم منذ فترة:

- من أنتم؟!..

يتقدم منه أكثر، ليتضح الشعار المرسوم على ربطه عنقه أمامه.. يبدو أشبه بنجمة خماسية تسقط عليها صاعقة..

- ليس ذاك هو السؤال.. بل السؤال هو شيءٌ أكثر أهمية بالنسبة لك..

يتقدم أكثر.. ويصبغ كلماته نبرات تثير التوجس..

- ما الذي تتمناه حقًا؟..

يشرد عمر بتفكيره، وهو يتابع تقدمه الحثيث نحوه بعينيّن لا تريان.. هل هي الحُرية؟.. قد قبع في زنازين معذبيه لوقتٍ لا يقدر على حصره.. نسى شكل الشارع، وشكل البشر، لم يعد يداعب خياله كما كان.. رُبما هي الحُرية..

هل هو الانتقام؟.. قد قُتِلت أحلامه، ونزفت تلك التي كانت تُشكل حياته روحها دمًّا على قارعة الطريق، ولَم ينَل قاتلها سوى تقدير شَعبٍ يسير كخراف لا تعقل، خلف حُكام سلبوهم ثورتهم على مظالمهم، ويسلبونهم حقوقهم في حياةٍ عادلة كلٍ يوم، تحت راية الوطنية ومقاومة الإرهاب..

رُبما هو الانتقام.. رُبما هو مجرد أن يُترك وشأنه، فلا يطمح سوى للهروب من كل ذاك.. كأنما سمع هو أفكاره، يتقدم نحوه ليحيط كتفه بذراعه، فتفعم أنفه رائحته التي لا سبيل لوصفها، بينما تتردد نبرات صوته العميقة على أذنه، وكأنما هي أمواجٌ تتكسر على رمال شاطئ ناعم:

- يمكنك أن تنال كل ما فكرت فيه.. كل ما تسمو له في خيالاتك يمكن أن يتحقق.. يمكننا أن نهبُك إياه..

لا يرد، وهو يشعر بالراحة تغلف جسده، وتسري في أوصاله، بينما الصوت العميق يداعب أذنه:

- فقط أجبني.. هل تُريد الخروج من هنا؟..

يومئ برأسه إيجابًا بدون أن يشعر، فيشير له نحو بوابة السجن المفتوحة على مصراعيها بحركة مسرحية:

- فاخرج آمِنًا.. لا يمُسُكَ بشر..

نظر له عمر لحظة غير مصدق.. لا يفهم كيف يمكن أن يُخرجه بتلك السهولة، ولا يستوعب طريقة الكلام الشكسبيرية المسرحية، ولا يهمه ذاك.. كل ما يراه هو مشهد الليل الخارجي الذي يدغدغ مشاعره، ونسمات الهواء العليل التي تفعم أنفه وتتسرب إلى روحه لتداعبها.. تؤكد له أنه حُر.. حُر أخيرًا، ولا سيد لمصيره سواه هو..

يتجه نحو المخرج بخطواتٍ بطيئة، تحجل على عظامها المحطمة، ويتبعه ذاك الغامض، لا ينفك ينظر له مبتسمًا، بينما هما يخرجان إلى الشارع،

بدون أن يعترضهم مخلوق.. تلك السيارة الواقفة أمام بوابة السجن.. سوداء فاخرة، ذات نوافذ داكنة لا تكشف ما تحويه.. لا يمكنه تمييز ماركتها ولا بلاد صُنعها.. لم ير مثلها من قبل..

ينفتح بابها الخلفي كذراعي صديق، وهما يقتربان منها في تؤدة، ويقول له "لو":

- لا تخف.. فقط اصعد..

يدلف إلى الداخل بصعوبة.. منظر لحيته الثائرة، وشعره المشعث، والدماء التي تغطي كل شبر في جسده ووجهه ينعكس على الزجاج الداكن ويشي بما كان يعانيه.. يدلف إلى داخل السيارة، ويدلف "لو" بجواره، بينما ينغلق الباب من تلقاء نفسه، وتنطلق..

- أعرف أنك تتسائل عن ماهيتنا، وعمّا يحدث بالضبط..

ينظر له، وهو يتكلم..

- أعرف أنك لا تفهم.. كل ما يمكنني إخبارك به هو أننا بعض الأصدقاء الذين يساعدون بعضهم.. أنت بحاجة لمساعدة، ولهذا جئنا لك..

- من أنتم؟!.. وكيف عرفتموني في الأساس، ولماذا تساعدونني أنا بالذات؟..

ابتسم، وهو يقول:

- تلك أسئلةٌ كثيرة، لا يمكنني أن أعطيك إجابةً عليها في الوقت الحالي..

- إذًا دعوني أذهب..

نظر له "لو"، فتابع:

- لو كانت نواياكم حقًا سليمة كما تدّعي، أوقفْ السيارة ودعني أذهب الآن..

أشار بيده للسائق، عبر الحاجز الزجاجي الداكن الذي يفصل مكان جلوسهم عنه، فهدأت سرعة السيارة حتى توقفت تمامًا على جانب الطريق، وانفتح الباب..

- الضابط الذي تريده يدعي يوسف محمد محسن.. يسكن في مصر الجديدة.. العنوان بالضبط موجود في تلك الورقة..

ومد يده له بورقة صغيرة مطوية، حدق فيها عمر بعض الشيء قبل أن يلتقطها ليقرأ العنوان داخلها، بينما يضيف "لو":

- قلت لك، نحن مجموعة من الناس ذوي النفوذ، يساعدون المستضعفين.. لذاك وحده جئناك، وهببنا لنُصرتك.. ولنهبنَّ لكَ من جديد، لو أنك فقط طلبت..

مد يده له ببعض المال، ودسه في جيبه، وهو يتابع:

- تذكر أن الشرطة ستبحث عنك بالتأكيد، فسيكتشفون اختفاءك صباحًا.. سيتوزع وجهك على جميع الكمائن وأقسام الشرطة، وستصبح مطلوبًا.. المشي ذاته ف الشارع لن يكون ترفًا.. لذلك فأنا أقترح ألا تذهب إلى البيت..

نظر له عمر، بينما تابع هو:

- أعرف انك لا تملك مكانًا آخر، ولكن هذا هو غالبًا أول مكان سيبحثون عنكَ فيه.. هناك فيلا تابعة لنا يمكنك أن تمكُث فيها لبعض الوقت، ريثما تهدأ حِدّةُ البحث، وينسون شكلك بعض الشيء.. أعتقد أن ذاك حلٌ جيد ومنطقي..

لا يدري بِمَ يرُد.. يعرف في قرارة نفسه أنه محق، ولكنه لا يجد حروفًا يتلفظها، فيوفر عليه "لو" مشقة الكلام، ويشير بيده للسائق أن يتحرك، فتتحرك السيارة، وينغلق الباب من جديد بحركة ميكانيكية.. يربت على كتفه، ثم يدير عينيه إلى النافذة الداكنة، ليتطلع من خلالها إلى العدم، بينما تمضي السيارة.. يغلفها ظلام الليل، تسبح معها أفكار عمر في فضائها الشاسع.. لا يعرف ما سيفعل، ولا القرار الصائب.. تلك أرضٌ بِكر بالنسبة له، لا يقدر على اتخاذ قرار بشأنها، كما لم يقدر على اتخاذ قرار حقيقي طوال حياته.. فقط يشرد بخيالاته إلى ما كان، وما سيكون، وما يمكن أن يكون لو اتخذ قرارًا مختلفًا.. تائهٌ هو في زمنه، عالقٌ بين حاضره ومستقبله، يلتهمه التفكير فيهما حتى الأذنين، ويتسائل.. يتسائل، ولا يُجاب، فيصمت، ويشرد تفكيره أكثر، بينما تنطلق السيارة عبر الشوارع إلى مكانٍ لا يعرفه أحد، وتمضي معها أفكاره وذكرياته ليبتلعها الظلام..

ويغلف الليل كل شيء..

* * *

الجزء الثالث

"عصر التنظيم"

Age of the Order



نحن من صنعنا التاريخ ونصنعه، ونحن من خلقنا العالم الحالي.. نحن في كل الدول، نختفي في كل أجهزة الإستخبارات وندير كل المنظمات الحقوقية، والإعلامية، والبحثية، والترفيهية، في الحقيقة وعلى الإنترنت.. نحن بداخل كل الأبحاث الجامعية، وخلف كل العقول المتطورة، التي تنتج التكنولوجيا التي نستخدمها نحن، قبل أن يسمع عنها العالم بعقود.. نحن سادة الدول والحكومات والسياسات.. نحن الآلهة الحقيقية..

أنتَ هُوَ، وهُوَ أنتْ.. فكِلاكُما الآخر..

ولَكِنَما ليسَ لأحدكُما على الآخر سُلطان..

يرفع السكين..

يهوي بها..

تتناثر الدماء، فتغرق وجهه وشعره ومعطفه.. رائحة الموت تطغو على المكان، وتعلن انتصاره.. طعم الدماء الصدئ يملأ شفتيه، لكنه لا يتوقف.. لا يرضى.. يرفع السكين، ثم يهوي بها، فتتناثر الدماء أكثر.. يدفع الكرسي أرضًا فيسقط بما يحمل، وينكفيء هو عليه طعنًا..

صوت اختراق النصل للحم الجسد المسجى أمامه يتردد صداه في المكان، فلا يثير في قلبه وجلاً، وإنما يملأه طاقةً تتمثل في قوة ضرباته المتزايدة..

ثم ينهض أخيرًا.. يلتقط أنفاسه، وهو ينظر إلى صنيعه، والدماء المتناثرة في كل ركن.. ينظر إلى كفيه والنصل المستقر فيهما.. تتساقط منه الدماء، وتسيل على قدميه وحذائه.. بركة صغيرة من الدماء، تبدو كأنما فاضت على الحوائط، كأمواج محيطٍ تغلي متأججة..

يداه ترتجفان.. يشعر بالإثارة والرهبة تسري في عروقه، ولكنه لا يخاف.. ينتشي كمن قضى شهوته زانيًا في جسد عاهرة.. قد كفّ عن الخوف أخيرًا، وأصبحه.. أصبح هو الخوف.. هو الموت.. ينفتح الباب، ويدوي صوت خطوات الحذاء الفاخر على الأرض العارية، فيتردد صداها بين جنبات الغرفة.. يقول:

- قد نِلتَ ما أردته؟..

صمت، ثم صوتٌ ترتجف نبراته نشوةً..

- ليس بعد..

يرفع عينه له..

- ليست تِلك سوى بداية..

- قد نفذّنا لك ما طلبت، وحان وقت أن تفعل لنا المثل..

يتقدم منه..

- تُقدِم ولائك، وتنال نشوة انتقامك وسلامك..

يدوس بحذائه في بركة الدماء، فتسري عبرها موجة تتردد مع كلماته..

- أنت لنا ونحن لك..

يومئ برأسه إيجابًا..

- أنا لكم، وأنتم لي.. فماذا تطلبون؟..

- لا نرنو سوى لما تشتهيه أنت..

يضع يده على كتفه، ويتألق النصل الذي يمسك هو به، بينما القطرات القانية تتساقط منه..

- الدماء..

* * *

- 1 -

ملمس موسي الحلاقة على جلده.. صوت الاحتكاك المميز.. ينظر إلى وجهه الممزق في المرآة.. عينه المتورمة، وشفته الجريحة..

يتذكر..

"عندما وجهتُ القرار للقناصة بإطلاق النار، لم أكن أعرف أنها فائرة الجسد بذلك الشكل.."

يمرر النصل على ما تبقى من ذقنه وشاربه، ولا يلحظ خيط الدماء الصغير الذي سال من ذاك الجرح البسيط في جانب خده.. لا يشعر..

"القناص الأحمق يهوى المزاح، وأراهنك أنه كان يظن أن المزحة جيدة.."

طعم الدماء الصدئ من بين أسنانه يطغى على ما يحسه، فيبصقه في الحوض، ويجفف ما تبقى من وجهه في المنشفة الدامية بجواره..

"المزحة جيدة.."

يفرغ من وضع آخر شريط طبي لاصق على جروح وجهه، وينظر في المرآة إلى بقايا وجهه بعينيّن لا تريان.. تائهتيّن عن الحاضر في ماضٍ قاتم.. لا تذكران سوى ظلام..دمعة متلألئة تسيل على وجنته، فلا يلحظها.. قد جففت عينيه عبراتها، فلم تعد تسيل، ونسى هو شكلها.. ولذاك لم يشعر

بسيلانها إلا عندما تبدّت له في المرآة..

يتابع انزلاقها عبر تجاعيد وجهه.. كحياته الساقطة إلى قاعِ بئرٍ لا ينتهي، بلا قدرة منه على التحكم أو الهروب. يجففها بيده، ثم يستدير ويلتقط المنشفة ليجفف المياه على شعره الثائر، ثم يخرج إلى الردهة.. يتطلع إلى الفراغ الواسع أمامه.. فيلا واسعة في التجمع الخامس، تتكون من طابقين، كلٌّ منهما يفوق حجمه شقة كاملة.. من أين أتوا بأموال لازمة لشراء بيت كهذا، وتركه بهذا الشكل؟..

من هم في الأساس؟.. كيف عرفوه، وكيف أخرجوه من السجن بتلك البساطة؟.. قد كان في مقر الأمن الوطني، فليس الأمر مزاحًا.. ذاك النفوذ التي يتحدثون عنه هو حقيقيٌّ فعلاً، وهو أكبر من كل ما يمكن أن يتخيله في في ذهنه.. القوة اللازمة لفعل شيء كهذا هي قوةٌ لا تُستوعب.. لا بد أن لهم أناسًا بداخل مؤسسة الرئاسة نفسها.. لا يوجد تفسيرٌ آخر لكونهم قادرين على إخراجه من سجنٍ سري تابع للأمن الوطني بمثل تِلكَ السهولة.. يبدو أيضًا أن الأموال ليست مشكلة بالنسبة لهم.. يمكنه أن يستنتج هذا، وهو يحدّق في مظهر الأثاث الفاخر، ومقابض الأبواب المطلاة بالذهب..

ذاك الشعار المرتسم على الحوائط.. تلك النجمة الخماسية ذاتِ الصاعقة..

ما معناه؟.. يبدو مظهره شيطانيًا لا يثير الراحة.. ولا يفسّر أحدُهم شيئًا.. قد تركوه هنا وحيدًا لا يؤنسه سوى أفكاره وذكرياته الكابوسية.. مد يده

في جيبه ليخرج تلك الورقة الصغيرة التي تحوي عنوان الضابط.. يفتحها لينظر لحروفها في شرود..

يوسف محمد محسن.. ذاك هو الاسم الذي سلبه كل شيء.. اسم عادي جدًا لا يُتميز.. لا بد أنه الآن ينعم بحياته إلى أقصى مدى.. يجلس في سريره ليشاهد التلفاز ويضاجع امرأته لو كان متزوجًا، أو يضاجع عاهرته لو لم يكُن.. يأتمِر الجميع بأمره، فهو الذي يُحيي ويميت.. يعتبره الجميع إلهًا، لذلك فهو يسلبهم كل شيء.. ذاك هو الاسم الذي سلبه كُل شيء، ولم يأبه.. يشعر بدمائه، ومشاعره تموج بداخل عروقه ثائرة، فيكرمش الورقة بداخل قبضته، وهو ينظر عبر النافذه التي تحتل حائِطًا كاملاً إلى العدم..

الليل القاتم.. كما يشعر بالضبط.. يُعَبِّر الليل بستاره المظلم عن حالته تمامًا.. قد أعطوه ما يريد، ولَم يتبقَ سوى الفعل.. سوى أن ينفذ هو ما يصبو إليه.. يلتفت إلى المطبخ، ويحجل على قدمه السليمة صوبه.. يدلف إليه، ويلتقط السكين الطويلة من على منضدة الطعام.. ينظر إلى نصلها اللامع، ويملأ من مرآهُ أنظاره.. يدسها في جيبه الخلفي، فلا يستوعبها.. فيأخذها معه صاعدًا الدرج إلى الطابق العلوي.. يلتقط قميصًا وسروالاً من كومة الثياب المُلقاه، ثم يلتقط المعطف الطويل المعلق على المشجب.. يرتديه، ثم يدُس السكين بداخله، فلا يلفظها..

يدرك أنه لا يستطيع المشي، ولكن ذاك لا يشغل من فِكراته حيزًا، ولا يأبه له.. يجب أن ينال انتقامه.. لم يملك هدفًا في حياته يسعى إليه كما تملَّك الآن، وهو لن يدع إصبعيّن محطميّن يمنعانه من تحقيقه.. ليس بعد كل

ذاك.. يتجه صوب الباب.. لا يُفكِر في شيءٍ، ولا يرى سوى الدماء.. يضع يده على المقبض.. يُديره.. ينفتح الباب على مصراعيه.. يغمره الهواء، ويتخلل ملابسه باردًا كأفكاره.. كملمس النصل في جيبه..

يخرج..

* * *

يخطو في الشارع حثيثًا، ويحاول ألا يحجل، وهو يضع يديه في جيبي معطفه.. لا يوجد الكثير من المارة، فالوقت يقارب منتصف الليل.. السيارات تعبر من جواره، والأناس يمشون، فلا يملك أحدهم فكرة عن ما سيحدث.. يشعر بدوي نبضات قلبه يتعالى، فكأنما هو موسيقى تصويرية للمشهد..

يُخرج الورقة من جيبه، ويفضها لينظر فيها من جديد.. ينظر إلى أرقام البنايات من جواره.. هدفه على بُعد بنايتين بالضبط.. يضع الورقة في جيبه من جديد، ويتحرك في بطء..

سيارة الشرطة الواقفة أسفل المدخل، والبواب الذي يدخن سيجارُه، وهو يتسامر مع جُندي الحراسة ذي الملابس المدنية، يقفان في طريق ما يشتهي..

أمام الدماء..

يتوقف لحظة.. ينظر لهم خفية.. يحاول أن يرتب طريقة يمُر بها من خلالهم، فلا يجد..

هل تلكِ هي النهاية؟.. لن ينال ما يتمنى، ولن ينتشي بسبب جسدا كائنيّن حقيريّن، يوليان أنظارهما شطر مدخل حُلمه.. لا يستوعب أن تكون تلك نهاية ما يحلُم..

لا.. لن يوقفه ذاك..

يخرُج من مكانه في ثبات.. يتجه صوبهما..

يتوقف البواب عن الكلام، وهو ينتبه إليه، ويشعر بقلبه ينتفض، فلا يدري لِمَ.. يتراجع للخلف خطوة، بينما يحاول الحارس أن يستدير ليري ما يحدق فيه، فلا يفلح إلا في وضع عنقه بين ساعدي عمر..

عمر الذي يُخرِج السكين من جيبه، ويُمررها في ثبات على حنجرته، لتنفجر الدماء من عروقه متطايرة على ساعده وملابس البواب..

البواب الذي يتراجع إلى الخلف ذعرًا، ويسقط أرضًا بحركة هستيرية مع مرأى الدماء، بينما تبدأ صرخات المارة في الخروج من حلوقهم.. ولا يأبه لها عُمر..

عُمر الذي يلتقط الطبنجة الحكومية من حزام الحارس، ويمشي في ثبات نحو البواب، محاولاً ألا يحجل، ويمسك به من تلابيبه مُلصِقًا فوهة المسدس بمعدته، ثم يضغط الزناد.. يدوي صوت الطلقة مكتومًا، بينما تنفجر الدماء من معدة البواب، الذي يخُر صريعًا، وتسيل الدماء من فمه غزيرة، بينما يضغط عمر الزناد مرة أخرى..

طلقة أخرى..

دماء، ثم طلقة ثالثة..

لمعة الحياة تفارق عيون البواب وجسده يستكين، ويكتسب وزن الموت، فيترك عمر جثته تسقط على الأرض، فلا يتبين صوت ارتطامها بين أصوات صرخات المارة، الذين يركضون مبتعدين، لا يجرؤ أحدهم على اعتراض طريقه.. كالموت بعد قبضه روحًا ينهض..

ينظر إلى الجسديّن الساقطيّن تحت أقدامه.. لا يستوعب، فربما كان يحلُم، ولكن منظر الدماء على ملابسه وذراعيه وحذائه، ورائحتها الخانقة تفعم أنفه لتؤكد أن مُتيقظ.. أنه قد فعلها.. فعل ما كان لا يجرؤ على أن يتخيله من قبل.. لا يفكر، ويتجه إلى الباب في ثبات، وقدماه تبدآن في الارتجاف رهبةً.. يصعد عبر السلم.. هو يسكن في الطابق الثاني.. لا يفصله عنه سوى طابق.. صوت سرينة سيارة الشرطة يدوي مقتربًا، ولكنه لا يُبالي.. سينال انتقامه أخيرًا..

صوت باب الشقة ينفتح، ويخرج هو منه بمنامته، ومسدسه في يده.. ذاك هو وجهه الكريه، الذي ضحك مع فيض روحها.. تلك هي أصابعه التي عذبته، وأنهت وجود الكثيرين.. هذا هو لسانه الذي أعطى الأمر بسلبه حياته.. يقف أمامه أعلى الدرج مصوبًا له المسدس، فيحاول هو أن يبادره إطلاق النار.. وتدوي الرصاصتان.. يشعُر بالطلقة تخترق كتفه كعمودٍ من النار، ويري بعينيّن زائغتيّن رصاصته ترتطم بالحائط بجوار رأسه، قبل أن يسقط متدحرجًا على الدرج.. وكان آخر ما سمعه هو صوت الخطوات التي تمتطي الدرج هابطة، وصوت ابرات الأسلحة النارية القادمة من أسفل،

وهي تُجذَب إلى وضع الاستعداد..

قد فَشِل..

كانت تلك هي فُرصته الأخيرة، ولكنه فشل في اغتنامها.. يتحول العالم أمامه إلى ظلام، وهو يرى الضابط يقف أمامه، ويرفع إليه فوهة المسدس، فيحاول أن يُحرِك جسده ليتفادى، ولكنه لا يقوى.. لا يقدر.. فيولي نظره شطر مسدسه الساقط بجواره..

ولكن كُل شيء ينتهي..

* * *

نحن من نُحيِي، ونحنُ من نُميت.. نحنُ من نَري، ولا نُـرَي.. نحنُ في كُلِ مكان، ولا تُبصِرُنا عينٌ..

"مجهول"

* * *

يفتح عينيّه.. يتطلع السقف إليه معتمًا.. يكتنف السكون ما حوله، فلا يسمع سوى صوت أفكاره تدوي بداخل ذهنه.. هل هذا هو الموت؟.. هل ذاك كنهه، أم أن هذا شيءٌ آخر؟.. يدير عينيّه فيما حوله، فيلتقط على الأضواء الخافتة المتسربة من بين خصاص النوافذ ملامح الغرفة.. إنه في الفيلا.. فكيف؟.. هل كان ذاك كله حلمًا.. ربما..

يحاول النهوض، فيعيده الألم الصارخ إلى موضعه مرة أخرى.. سيوفٌ من

النار تمزق كتفه، فينظر إليه.. ضمادات على كتفه، وذاك الرباط الضاغط الذي يصبغه لون الدماء القاني.. ليس ذاك حلمًا إذا.. قد أُصيب فعلاً، وحدَّقَ في الموتِ بعينيه.. فكيف؟..

كيف جاء إلى هنا من جديد، ومن جاء به؟.. ينفتح النور في هذه اللحظة، فيعمي عينيه، بينما يلتقط من بين أهدابه التي واربها؛ إتقاءه مشهد ذاك الذي يقف على أعتاب الباب..

إنه هو.. "لو".. يتقدم إلى داخل الغرفة بحلته السوداء الفاخرة، ويقول:

– أحمقٌ أنت.. لم ألقَ في سنيني من هو أشد حمقًا منك..

يتطلع إليه، وهو يتابع:

– كِدتَ أن تموت، لولا تدخّلنا.. قُلتُ لكَ ألا ترتكب حماقةٍ كتلك، إلا بعدَ أن تهدأ الأمور..

لا يستوعب..

– كيف وجدتموني؟.. وماذا حدث؟..

– ليس ذاك مهمًا.. المهم هو أنت..

يجلس على المقعد الذي يجاور السرير..

– ما الذي تريدهُ أنت؟..

لا يرد، ولكن ملامح وجهه تشي بألف إجابة..

– الضابط، أليس كذلك؟..

لا يرد، فيضيف:

– تتطلع ليومٍ تجمعك به غُرفةٌ واحدة، لا تبصركم فيها عين..

يميل على سريره، يشعر بدنو أنفاسه اللاهبة تلفح وجهه..

– كُلُ ما عليك هو أن تطلب.. ونحن مُجيبون..

– لماذا تفعلون كل هذا؟..

– لأن هذا ما نفعله..

– ولماذا أنا؟..

– لأنك تحتاج.. ولأنك أنت..

يطمح لأن يفهم، فيسأل:

– ومن أنا؟..

– أنتَ هُوَ، وهُوَ أنتَ.. فكِلاكُما الآخر.. ولَكِنَما ليسَ لأحدكُما على الآخر سُلطان..

فلا تثير الإجابة في نفسه سوى المزيد من التساؤلات..

– ماذا تعني؟..

– ستفهم.. ليس الآن، ولكنك ستفهم..

تموج مشاعره بداخل أسوار عقله، بينما يقول هو:

- فقط اطلُبْ.. ونحنُ منفذون..

ينظر إليه.. إلى عينه، التي تطل منها نظرة لا يمكنه أن يصفها أو يفهمها..

- أريدُه.. أريدُه بشدة..

يتراجع إلى مقعده.. يجلس في هدوء..

- أنت تطلُب.. ولك ما شئت..

لا يقدر على المواصلة، ويشعر بخلايا عقله ترتج داخل جمجمته.. فيريح رأسه على الوسادة، وهو يغمض عينيه..

ويغادره الوعي..

* * *

يمد يده نحو المقبض المذهب.. يُديره، فينفتح.. ينظر إلى "لو" بجواره، فيغمض عينه بمعنى المتابعة.. يدفع الباب، فينفتح كاشفًا المشهد أمامه..

تلك الغرفة الخالية.. خالية من أي شيء سوى من جسد ذاك الضابط الجالس إلى الكرسي الخشبي غير المريح، وكل جزء في جسده مقيد بقيودٍ من حديد..

يدلف إلى الداخل، وينظر المقيد له بعيون زائغة.. يتبدّى الرعب على وجهه جليًا، فلا يستتر، ولا يطمئنه خطوات عمر البطيئة، وهو يحجل على قدمه السليمة حتى يقف أمامه في صمت..

ينغلق باب الغرفة خلفه.. يتركونه لخيالاته.. لهواجسه، وهو ينظر لعيون الضابط الوجلة.. يتذكر كل ما قال، وكل ما قيل.. كل ما يقوله وسيقوله، وكل ما يتقوّلون به.. يتذكر كل شيء.. يتذكر الدماء.. الجسد الهامد على الأسفلت.. يتذكر الرصاص.. يتذكر اللطمات والركلات.. يتذكر أشدهم وطـأة.. الكلمات.. يتذكر كل مـا لا تنساه ذكرياته، وينظر إلـى عينيه الزائغتين.. جالسٌ أمامه.. مقيدٌ ومكمم، ولا قدرة له على الحراك، أو الصراخ متوسلاً أو مستنجدًا.. لا يقوى على الخلاص، ولا مفر له..

ينظُر له.. لا يتحرك، ويقف ساكنًا، وهو يرقب حركات جسده العصبية وانتفاضاته التي تحاول الخلاص من القيود، فلا تفلح إلا في هز الكرسي الثقيل غير مزحزحه.. تبدأ الدموع في الفرار من عينه ذعرًا..

لا عذاب أقوى وأشد وطأة من عذاب انتظار العذاب.. يجلس كطائرٍ ينتظر ذبحه، يرمق ذابحه في عينيه، ولا يتحرك الأخيـر.. فقط ينظر له، ولا يتكلم.. يتذكر.. يتذكر جروحه وكدماته.. يتذكر الطعنات.. يتذكر قدمه المهشّمة، ودماء البواب والحارس التي غرقت كوابيسه فيها.. يتذكر تغيره.. تغير شخصيته ذاتها.. يتذكر اللحظة الدامية التي قتلت كل ما كان يجعله بشريًا يشعر ويحس..

تنهار الدموع مدرارًا من عيني الضابط، وهو ينظر له متوسلاً، بينما لا تنحدر على عينيه هو سوى دمعة تحمل كل مشاعره، التي فنت من داخله، فكأنما هي تحررت مع تلك العَبرة الساقطة.. لا تلفظ عيناه غيرها..

هواجس.. هواجس وخيالات وأصوات في عقله..

"لم أكُن أعرف أنها فائرة الجسد بذلك الشكل.."

أصواتٌ تدوي، فكأنما هي همساتٌ تُرددها جدران الغرفة.. ودموع الضابط تسيل متلألئة.. نظرة عينه المتضرعة تُغني عن أي كلام..

هل يعفو؟..

"هل كانت عشيقتك؟.."

لا يفهم معنى كلمة العفو.. لا يفهم الرحمة، أو السماحة، أو الحزن، أو الفرح.. لا يفهم معنى الشعور ذاته، ولا يحس.. فقط يضع يده على كتف الضابط، فيشعر بجسده المرتعد ينتفض ذعرًا، ولا يقوى على الحراك..

يربت على كتفه.. يربت على كتفه مهدئًا، وهو ينظر له نظرة خاوية من أي تعبير.. ثم يدس يده في جيب المعطف.. يقبض على نصل السكين.. يسحبه، فيتألق لامعًا تحت أنوار الغرفة..

يغرسه بهدوء وبطء في محجر عينه اليمنى.. ولا يقدر الضابط على الصراخ.. تنفجر الدماء من عينه المفقوءة، ويدس عمر السكين تحتها في هدوء، ويسحب العين إلى خارج الجمجمة، فتتدلى بلا حياة من الجسد، الذي ينتفض ألمًا لا يصف وطأته تعبير.. كجسدها بالضبط..

الدماء السائلة كالشلال من الفجوة السوداء، تبدو كدمائها المتسللة خارج فجوة حياته، التي خَلفَها رحيلها، وترك أثرها باقيًا كجرحٍ ماضٍ، لا يُشفى..

ثم يرفع السكين.. يهوي بها..

تتناثر الدماء، فتغرق وجهه وشعره ومعطفه.. رائحة الموت تطغو على المكان، وتعلن انتصاره.. طعم الدماء الصدئ يملأ شفتيه، لكنه لا يتوقف.. لا يرضى.. يرفع السكين، ثم يهوي بها، فتتناثر الدماء أكثر.. يدفع الكرسي أرضًا فيسقط بما يحمل، وينكفيء هو عليه طعنًا.. صوت اختراق النصل للحم الجسد المسجى أمامه يتردد صداه في المكان، فلا يثير في قلبه وجلاً، وإنما يملأه طاقةً تتمثل في قوة ضرباته المتزايدة..

ثم ينهض أخيرًا.. يلتقط أنفاسه، وهو ينظر إلى صنيعه، والدماء المتناثرة في كل ركن.. ينظر إلى كفيه والنصل المستقر فيهما.. تتساقط منه الدماء، وتسيل على قدميه وحذائه.. بركة صغيرة من الدماء، تبدو كأنما فاضت على الحوائط كأمواج محيطٍ تغلي متأججة..

يداه ترتجفان.. يشعر بالإثارة والرهبة تسري في عروقه، ولكنه لا يخاف.. ينتشي كمن قضى شهوته زانيًا في جسد عاهرة.. قد كفَّ عن الخوف أخيرًا، وأصبحه.. أصبح هو الخوف.. هو الموت.. ينفتح الباب، ويدوي صوت خطوات الحذاء الفاخر على الأرض العارية، فيتردد صداها بين جنبات الغرفة.. يقول:

– قد نِلتَ ما أردته؟..

صمت، ثم صوتٌ ترتجف نبراته نشوةً..

– ليس بعد..

يرفع عينه له..

– ليست تِلك سوى بداية..

– قد نفذنا لك ما طلبت، وحان وقت أن تفعل لنا المثل..

يتقدم منه..

– تقدم ولاءك، وتنال نشوة انتقامك وسلامك..

يدوس بحذائه في بركة الدماء، فتسري عبرها موجة تتردد مع كلماته..

– أنت لنا ونحن لك..

يومئ برأسه إيجابًا..

– أنا لكم، وأنتم لي.. فماذا تطلبون؟..

– لا نرنو سوى لما تشتهيه أنت..

يضع يده على كتفه، ويتألق النصل الذي يمسك هو به، بينما القطرات القانية تتساقط منه..

– الدماء..

* * *

- 2 -

تدعوني أمانة الكلمة وشجاعة الرأي، لأعلن عن عميق أسفي وحزني لما وقع في الأقصر، وسقوط هذا العدد الضخم من الضحايا الأبرياء.. مهما كانت الدوافع والمبررات، فإنه لا يوجد مبرر يدعو لهذا القتل العشوائي الذي يُعد سابقة لا مثيل لها، ويتناقض تمامًا مع الأدبيات الشرعية والسياسية للجماعة الإسلامية، التي كانت تستهدف صناعة السياحة وليس السياح الأجانب..

"أسامة رشدي – المتحدث الإعلامي للجماعة الإسلامية"

* * *

17 **نوفمبر** 1997

الأقصر

غبار..

تلك الرائحة الخانقة المقبضة، المختلطة بطعم الدماء الصدئة.. ذرات الغبار المتطايرة تُثير في نفسك الرغبة في السعال.. أشعة الشمس المتسللة إلى كل ركن.. وهو يقف هناك..

أمامه ست جثث ترقد على الأرض غارقة في دمائها.. تتسرب أرواحها إلى السماء متحررة، فلا يبقيها شيء..

دماء.. الكثير منها..

كفوفهم تقبض على الأسلحة الآلية والطبنجات الحكومية، وتختلط ملابسهم الأمنية التنكرية بالتراب والدماء، فتبدو كوحلٍ قانٍ.. أحدهم ينتفض.. يسعل.. تخرج الدماء من فمه، وتتسرب من ذلك الجرح الغائر في جانب صدره.. يحاول الحراك، فلا يقوى، بينما يقترب هو منه.. يقترب حتى يصير أمامه، فينحني عليه، وينظر إلى عينيه.. عينيه الدامعتيّن تنظران له نظرة لا توصف، ولا يمكن سبر أغوارها.. يبادله ذاك القادم نفس النظرة..

هل هي شفقة؟.. حزن؟.. هل هي قسوة وحزم؟.. لا تفهم.. ولا نستوعب..

تمتد يده إلى حزامه ليسحب سلاحه من غمده..

نفس النظرة تعلو وجه المحتضر، الذي تخرج من فمه الدماء غزيرة، فلا يقوى على النطق.. تسيل دمعة ألم على وجنته، يمسحها القادم بكفه.. يربت عليه.. لا تخفْ.. لا تخفْ، فأنت الآن معي.. قد انتهى دورك، ونِلتَ مصيرك.. فلا تحزن، ولا تفزع.. اطمئنْ..

يُريح رأسه التي بين يديه على تراب المغارة التي يفترشون أرضها، ويرسم بيده على الهواء فوق جسده شعارًا غريبًا.. يبدو كشعار الصليب الذي يرسمه المسيحيون، ولكنه ليس ذاك..

حركة أصابعه ترسم ما يبدو أشبه بشعار نجمة خماسية، تسقط عليها صاعقة.. يعرف في قرارة نفسه أنه لم يعُد يُصدِق كل تلك الشعارات، ولم تعُد تعني له شيئًا.. ولكنه يحاول أن يحافظ على ما تبقى في نفسه منها..

تتدفق الدماء من فم المحتضر وجرحه، بينما يلصق القادم فوهة المسدس بصدره، ويجذب الإبرة لوضع الاستعداد.. يربت عليه.. فيمسك كفه، ويضمه إلى صدره.. نظرة عينيهما تغني عن أية كلمات.. ثم تدوي الرصاصة.. صوتها المكتوم يتردد بين جدران المغارة، ثم يتلاشى، بينما جسده يستكين تمامًا، ويكف عن الارتجاف، أو الخوف.. يزفر.. تخرج أنفاسه حارة، كما يشعر به في قلبه.. وينهض.. ينظر إلى صنيعه.. ينظر إلى من هم حوله..

يتذكر قصته الطويلة معهم.. ألمُ فراقِهم يطعنه بنصالٍ من جمر، وهو

يتذكر أوقاتهم معًا.. يتذكر كل شيء أدى إلى ما يتطلع إليه أمامه..

نهر الدماء المتدفق، والغبار.. ثم يمد يده إلى جيب معطفه.. يُخرج تلك الصورة المتسخة.. صورة ذلك الطفل الصغير، الذي تحتضنه أمه، وتضمه لها.. أمه التي تبدو ملامحها مألوفة.. لا تفقه أين رأيتَها من قبل..

يُدير الصورة في قبضته، وينظر إلى المكتوب على الظهر..

"عمر إبراهيم سالم.. 28 / 9 / 1991"

يحدق في الصورة لحظة تفيض فيها مشاعره، ويبدو فيها الارتجاف واضحًا على حركة يده، ثم يدسها إلى حيث كانت.. يستدير، ويضع المسدس في جيب معطفه، ثم يتجه إلى المخرج..

خطواته الحثيثة تتعالى على الأرضية الترابية، ثم يخفت صوتها، حتى يختفي إلى الخلفية تمامًا، فلا تبقى إلا الرائحة المقبضة..

والدماء..

* * *

لا نرنو سوى لما تشتهيه أنت.. الدماء..

* * *

قامت مجموعة من مقاتلينا بتصفية المجرم عادل رجائي، أحد قادة ميليشيات السيسي صباح السبت 22 – 10 – 2016 بعدة طلقات في الرأس، واغتنام سلاحه..

"تصريح من جماعة لواء الثورة الإرهابية على موقع التواصل الاجتماعي تويتر"

* * *

22 أكتوبر 2016

العبور.. القاهرة

أشعة الشمس تشرق على استحياء، ولا تُفلح في إزالة البرد الخفيف، الذي حل على الشارع في ذلك الوقت المبكر..

وهو يقف هناك.. يتذكر ما قيل، وما قال.. يشعر أن عقله لا يحوي سوى الفراغ.. لا يهتم بأي شيء في العالم، ولا يصبو لشيءٍ سوى لتجربة ذلك الشعور من جديد.. شعور الدماء الثقيلة على ملابسه.. إحساس القوة الذي يعتريه كلما أخذ روحًا، وأرسلها إلى حيث أتت.. شعور أنه الموت ذاته، وقد جاء ليحصد غنائمه ممن تسببوا في كل ما عاناه من قبل.. قد جاء ليعلمهم أنه هنا.. أنه موجود.. يتذكر "لو" ويتذكر الضابط..

"أنت لنا ونحن لك.."

يشعر بأنه مدمن، وأن يديه ترتجفان تطلعًا لما سيفعله بعد قليل.. لا يعرف أي شيء عن هدفه سوى اسمه.. العميد عادل رجائي.. لا يعرف حتى منصبه، ولا سبب استهدافه، وعلاقة "لو" وأصدقائه به.. لا يبالي سوى باحتياجه.. شغفه الذي يستولي على كل ذرة في كيانه.. شغف القتل، ورائحة الدماء..

لا يفهم شيئًا في ألعاب السياسة، ولم يتطلع لذاك يومًا.. كل ما يهمه هو ملمس الدراجة البخارية الرخيصة بين فخذيه، وبرودة المسدس الكبير

في كفه.. يقف منتظرًا، وتغمره أشعة الشمس لتزيل بعضًا من برودة الشارع التي تحيطه، فيفرك كفيه ليزيل التوتر الذي يكتنفه.. و هناك، على الجهة المقابلة من الشارع، ينفتح باب البناية.. يخرج هو منها..

جسده القوي وشعره القصير، وشاربه الذي خالط الشيب سواده.. يرتدي ملابس الجيش المموهة.. يتجه إلى سيارته التي ينتظره حارسه الخاص عندها، بينما يحتل السائق مقعد القيادة.. ينظر إلى الناحية الأخرى خلفه، ليرمق رفيقيه الجالسين على دراجة بخارية مماثلة بنظرة طويلة.. نظرة تتساوى فيها مشاعر عدم الاكتراث والبرود.. نظرة قتلة..

ضربات قلبه تتعالى.. يتحسس السلاح، ويجذب ابرته إلى وضع الإطلاق، بينما ينطلق رفيقاه بالدراجة البخارية إلى العميد.. يقتربان في سرعة، ويصوب أحدهما فوهة المدفع الآلي إلى جسده، وتنفتح بوابات الجحيم..

صوت وابل الرصاص الذي ينطلق من المدفع يدوي في كل مكان، كانفجار قنابل متتالية تطيح بمن يعترضها بلا هوادة.. لا تفلح رصاصاتهم سوى في جرح سيارته والسائق، ودفع حارسه الشخصي إلى الهرب والاختباء خلفها، فينطلق عمر على دراجته.. يقترب منهم، ويخرج مسدسه من تحت المعطف.. يصوّبه إلى العميد، وينظر الأخير له نظرته الأخيرة.. نظرة لا خوف فيها، ولا رهبة.. لا ندم فيها، ولا مقت..

نظرة لا يمكنه سبر أغوارها، فلا يفكر قبل أن يجذب زناد المسدس لتنطلق الرصاصة..

تتفجر الدماء من رأسه، وتنطلق الرصاصة الأخرى لتنهي المهمة..

يسقط الجسد على الأرض، وتسيل دماءه نهرًا يغرق الطريق..

يقترب منه.. يلقي عليه نظرة بلا تعبير، ثم ينحني ليلتقط سلاحه الذي خضبته دماؤه، ويدسه في جيب معطفه، وهو يمتطي دراجته من جديد..

ينفتح باب شرفة منزله، وتخرج زوجته لتتطلع إلى جسده الهامد غير مستوعبة، بينما يزأر صوت الدراجة البخارية وهي تبتعد، حاملةً قاتله الذي لا يبالي ولا يفكر..

فقط يرتجف جسده نشوة..

فقد نال ما أراد..

الدماء..

* * *

17 **نوفمبر** 1997

الأقصر

كاميرات..

أضواء الفلاش تسطع في كل ركن، وتلتمع على ومضاتها الدماء، التي تخضب رمال الأرض الصخرية الترابية..

الجثث الستة تفترش الحصى، بينما يقف خبراء المعامل الجنائية والطب الشرعي في كل مكان يتصورون ما حدث، ويصورون الأدلة بالكاميرات المحمولة الصغيرة..

وعلى أحد الجثث، ينحني ذاك الضابط، يفتش في الجيوب حتى يعثر على تلك الورقة الصغيرة المطوية كيفما اتفق..

يفتحها.. ينظر بداخلها..

نعتذر لقيادتنا عن عدم تمكننا من تنفيذ المهمة الأولى..

يتطلع إلى الورقة لحظة، ثم يضعها في جيبه، وبهدوء ودون أن يراه أحد، يرسم علامة النجمة الخماسية والصاعقة فوق الجثة مبجلاً، ويقبل يده..

ثم ينهض، ويبتعد..

* * *

18 **نوفمبر** 1997

القاهرة

يسود الظلام الغرفة إلا من بضع شعيعات متناثرة هنا وهناك.. ذلك السرير الصغير الذي يرقد عليه ذاك الطفل، متدثرًا بأغطيته من ظلام الليل..

وهناك.. يقف هو.. ذلك الغامض الذي كان يحمل الصورة في الأقصر منذ يوم سابق.. ينظر إلى الطفل في حنين، ثم يقترب، ويتحسس شعيراته الناعمة المتسربة من تحت الغطاء، وينحني ليطبع قبلة على جبينه..

- لا تعرف، وربما لن تعرف، ولكن كل هذا كان من أجلك أنت.. فسامحني..

يستيقظ الطفل، ويفتح عينيْه لحظة ليحدق في وجهه، ثم لا يقوى على إبقاء جفنيه مفتوحيْن، ويغلبه النعاس، فينقلب على جانبه، وتمتد يده الصغيرة الدافئة لتمسك بكف ذاك الغامض الذي جلس بجواره على السرير، فيختلج قلبه، وتفيض مشاعره..

قد تخلى عن كُل شيءٍ في العالم من أجله.. وهو مستعدٌ للتخلي عن كل ما فعله من أجله أيضًا.. ينظر إلى خصلات شعره الناعمة التي تفترش الوسادة، وترتجف ملامحه..

يعرف أنه لن يراه من جديد.. وأنه سيكبر مؤمنًا بأن كل من في الدنيا تخلوا

عنه.. يعرف أنه سيكرهه للأبد، ولن يتذكر ملامحه حتى، ولكنه يوقن أنه سيفهم.. يومًا ما، سيفهم..

ينهض من على السرير، ويسحب الغطاء فوق جسد الطفل، ويعدّل من وضعه، ثم يلتفت متجهًا إلى باب الغرفة، ويفتحه ليخرج.. تحين منه التفاته عبر باب الغرفة المجاورة الموارب، ليتطلع إلى وجه زوجته النائمة مليًا، ثم يتابع طريقه متجهًا إلى الهاتف.. يلتقطه، ثم يضغط الأزرار طلبًا لرقم ما، ويستمع إلى صوت الرنين..

- ألو..

- هل أنتم مستعدون؟..

صمت استاتيكي يسود لحظة..

- أجل.. كلهم جاهزون..

يصمت لحظة، ويلتقط نفسًا عميقًا، ثم يجيب:

- ابدأ تنفيذ بروتوكول الفجر الذهبي..

صوت أزرار غامضة، وأزيز يأتي من الطرف الآخر، ثم:

- عُلِم..

يضع السماعة، وينهض ليلقي نظرة على صالة المنزل لمرة أخيرة..

تلك هي نهاية كل شيء، وبداية عصر جديد.. كل ما سيحدث بعدها، أيًا

كان، هو لأجلهم هم..

حتى وإن لم يعلموا..

يستدير ليفتح باب الشقة، ويخرج.. ثم يغلقه في هدوء خلفه..

يعرف أن القادم مريع.. ولكنه لا يبالي..

ذاك هو بداية عصر الفجر الذهبي..

وبداية نهاية التنظيم..

* * *

- هل هو جاهز؟..

- ليس بعد.. ينقصه اختبارٌ أخير..

- ما العملية؟..

- الكنيسة المرقسية..

- هل أنت متأكد أنه قادر على فعل شيءٍ كهذا؟.. تلك تحتاج إلى ثبات أعصاب غير طبيعي.. بالإضافة إلى أنها تختلف عمّا طلبته منه من قبل.. هذا ليس قتل ضباطٍ يحمل لهم ضغينة!..

- أعرف.. هو جاهز.. ما بداخله أعمق بكثير من مجرد شهوة انتقامية.. إنه معنا لأنه يحب ذلك.. ذاك الشعور الذي يجربه فيما نطلبه هو شيءٌ لم يحسه من قبل.. إنه خامة مثالية لنا، تمامًا كما كان والده..

- حقًا؟.. أنظر إلى أين أوصلنا ذاك!..

- هؤلاء لا شيء.. بوجود ابنه معنا، سنقدر أخيرًا على سحب قائدهم إلى الأضواء من جديد..

- قلت لي ما اسمه؟..

- عمر.. عمر إبراهيم سالم..

* * *



الأحد 11 **ديسمبر** 2016

AM 9:47

القاهرة – العباسية..

لا نرنو سوى لما تشتهيه أنت..

يرقبهم..

يرقب دخولهم وخروجهم..

لا تعتلي وجهه أي تعبيرات.. بارد كالثلج..

الدماء..

أعدادهم تشي بقرب موعد الصلاة.. وتعلن له أنه لم يعد يملك المزيد من الوقت، فيفتح باب السيارة الصغيرة ذات النوافذ الداكنة التي يركبها، ليخرج إلى الشارع..

تغمره أشعة الشمس، فيضيق جفنيه اتقاءها، وهو يفتح الباب الخلفي ليلتقط حقيبة الظهر الصغيرة من المقعد.. يدور بعينيّه في تفاصيل الكاتدرائية..

لا حراسة هنالك تقريبًا.. لا تلمح عينه سوى فرد أمن واحد، يغفو بداخل سيارة الشرطة الواقفة بجوار الرصيف.. يغلق باب السيارة، ثم يرتدي حقيبة الظهر، وهو يتجه نحو بوابة الكاتدرائية في ثبات..

قلبه يخفق في عنف.. ليس رعبًا أو رهبة.. بل نشوة..

الأدرينالين يسري في عروقه كالمخدر، فيكسبه قوة لم يعهدها من قبل، تترجمها خطواته الواثقة صوب المدخل.. يعبر بجوار ذاك الخارج الذي يحدق فيه لحظة، فلا يوليه اهتمامًا، وهو يتابع طريقه.. لا يعرف من هم وما هدفهم، ولا لماذا كلفوه بتلك المهمة، ولا يبالي.. هو يحتاج لذلك.. فلو كلفوه بإفناء ذريتهم جمعًا، وأعطوه وسيلة، لفعلها بلا تفكير..

لم يعد يشعر أو يبالي أو يحس، ولم يعد يملك قيمًا دينية أو مجتمعية، أو مبادئ من أي نوع.. قد تطورت نفسه، وترفّعت عن كل تلك الترهات.. لم يعد هناك ما يهم سوى الدماء.. رائحتها وملمسها اللزج، ولونها القاني..

تلك هي جنته المُثلى التي بحث عنها طويلاً.. يدلف إلى الكاتدرائية.. تدور عيناه بداخلها لحظة.. أين يضعها؟.. القرار له..

هو إله هؤلاء البشر.. هو من سيقرر من يموت منهم، ومن يعيش.. لا أحد غيره.. هو الموت.. هو من سيحصد أرواحهم، وهو من سيقرر من يبقى، ومن يذهب.. يخفق قلبه بعنف أكثر، ويبدأ كفه في الارتجاف ترقبًا، فيحكم قبضته على ذراع الحقيبة المتدلية من ظهره..

أعداد الرجال كثيرة فعلاً، فلن يقدر على الخروج لو دخل إلى وسطهم.. ينظر إلى الناحية الأخرى.. النساء..

بينهن الكثير من الفرجات.. بالإضافة إلى أنهن لن يلاحظنه؛ لأنه سيجيء من ظهورهن.. تتجه قدماه نحوهن في ثبات.. صوت القس يتعالى خلفه،

الصلاة تبدأ، وأعدادٌ غفيرة تتوافد على البوابات.. يجب أن ينتهي سريعًا، لم يعد هناك وقت.. يضع الحقيبة على الأرض في الركن، ثم يستدير ويدس يديه في جيبه، وهو يتجه إلى البوابة.. يحاول ألا يصطدم بالوافدين في طريقه للخارج، وهو ينظر إلى الأرض؛ كي لا يلحظه أحد.. هو في الشارع أخيرًا.. ومازالوا هم يدخلون ليلحقوا بالصلاة.. يعتقدون أن تدينهم هو الحل، وإجابة السؤال، ولا يعرفون.. لا يفقهون..

يفتح باب السيارة، وهو يتأكد من وجود جهاز التفجير الصغير في جيبه، ثم يدلف إلى الداخل، ويغلق الباب.. يتوافدون عابرين الطريق، وبعضهم يتدافع على البوابة.. هذه هي لحظته.. يمسك بجهاز التفجير في ثبات، وهو يلتقط نفسًا عميقًا.. حيواتهم جميعًا بين يديه.. كل شيء عاشوا من أجله.. كل ما حلموا به يومًا، وكل ما تمنوا، وكل أفكارهم، وذكرياتهم، وشخصياتهم، واختياراتهم بين يديه هو.. أي شعورٍ ذاك؟!..

شعورٌ لم يجرّب مثله قط.. يتحسس زر التفجير في شرود، وهو يتذكرها.. يتذكر وجهها.. سامحِّني..

تسيل دمعة وحيدة على وجنته، وقلبه يختلج، فيمسحها بكمه، ثم يضغط الزر في ثبات..يدوي صوت الانفجار، فيغطي على صوت أفكاره ذاتها.. وتهتز السيارة بعنف معلنة انتصاره مرة أخرى.. الأشلاء المتناثرة في كل مكان تُلقي في قلبه شعورًا عميقًا.. لا رهبة ولا ندم.. شعورٌ لا يوصف..

ينظر إلى الجدار الذي أصبح رمادًا، وإلى بقعة الدماء الكبيرة، التي تصبغ الحائط الذي يتبدّى من خلفها.. غبارٌ في كل مكان، وأجساد..

صراخ من فهموا ما حدث أخيرًا.. أناسٌ يركضون، وأناسٌ يخرجون مترنحين تغلفهم الأتربة.. قد انتهى كل شيء.. نال ما أراد، ونالوا ما يستحقون.. يستولي عليه شعور المقت، فيضغط الزر مرة أخرى.. وثانية وثالثة..

استحقوا كل شيء، وسيستحقون دومًا.. هم من صمتوا عن حقوقهم لأعوام طويلة، وهم من أوصلوا الكبار لما هم فيه.. هم من دمروا كل شيء بسلبيتهم وخنوعهم.. حقراء لم يتمنوا في حياتهم أكثر من شقٍ في حائط يضاجعون فيه زوجاتهم المترهلات، ليأتوا لعالمهم بمزيد من البؤس..

سكتوا عن دماءهم وأموالهم وحرماتهم طويلاً، وفقدوا أي حقٍ لهم في أن يشفق عليهم قلبه.. غضبته عليهم عاتية، لا تبقي ولا تذر، فلو امتلك قنبلة أخرى لوضعها في قبورهم.. يضغط زر النافذة الكهربائية، فتهبط، ويبصق عبرها صوبهم.. يبصق عليهم جميعًا..

ثم يرفع النافذة من جديد، وهو يشغل المحرك، وينطلق بالسيارة مبتعدًا عن ذاك كله..

منظر الدخان المتصاعد خلفه، والأحجار والأشلاء المتناثرة، ورائحة الدماء يستولي على المشهد..

ولا يبالي..

* * *

كنت متأخر على الصلاة وجيت جري، وأول ما دخلت سمعت صوت القنبلة.. الناس ماتت كلها.. واللي حاول يدخل القنبلة جوه الكنيسة ما لحقش يدخلها جوه، بس سابها على باب المقر اللي بنصلي فيه..

"كورلس مشير.. أحد الشهود"

* * *

وأنا واقف على الباب وقعت على ضهري من شدة الانفجار وما قدرتش أقاوم.. ولما دخلت، لقيت الناس كلها ميتة، وحاولنا نطلع اللي عايش بالعافية..

"مجدي ملاك.. أحد الشهود"

* * *

كنت بصلي وخرجت أجيب حاجة من بره، ولما جيت أدخل تاني القنبلة انفجرت، وأنا بعدي الطريق.. ودخلت أجري لقيت اخواتي ماتوا كلهم..

"مارك بطرس.. أحد الشهود"

* * *

في وقت دخولنا المقر، ما شفناش أي قوات أمن قدام البوابات.. ما كانش في غير فرد أمن واحد قدام الباب، وكان نايم في العربية..

"سامح اغناطيوس.. أحد الشهود"

* * *

- 3 -

المجد للشيطان معبود الرياح.. من قال لا في وجه من قالوا نعم.. من علّم الإنسان تمزيق العدم.. من قال لا فلم يمت، وظل روحًا أبدية الألم..

"كلمات سبارتاكوس الأخيرة– أمل دنقل"

* * *

يجلس شاردًا، يتابع شاشة التلفاز الكبيرة بعينيْن لا تعيان..

صوت ذاك الإعلامي الشهير يأتيه مُرددًا أشياءً لا يفقهها، بينما هو يسبح في خيالاته، مع ذكرياته الخاصة.. تطارده أصواتهم كل يوم.. تطارده، فلا يحظى سلامًا، ولا يرتاح.. تراوده وجوههم في نومه، ويقظته.. يميزهم جميعًا، ولا يفارقونه لحظة.. الغضب بداخله ما زال يتنامى.. يشعر بأنه لم ينلْ شيئًا بعد.. يريد أن يحترق كل شيءٍ حوله، وأن يشاهد..

لم يعد يهمه شيئًا.. لم يعد يفكر فيما عداه.. قد جرّب شعور الخوف والتفكير والخنوع كثيرًا، وأبقى رأسه منخفضًا طويلاً، فلم يورثه هذا إلا دمار كل ما تمناه.. وموت كل من أحبهم.. لم يبق سوى والدته.. والدته التي لم يرها منذ شهر تقريبًا.. ولكنه لا يعبأ بها.. لا يتذكر شكلها أصلاً..

يزفر زفرة حارة، وهو يدير عينيه فيما حوله، ويتطلع إلى شعار النجمة الخماسية ذات الصاعقة على الحائط..

ما معناه بالضبط؟.. من هم هؤلاء الذين قدّموا له كل شيء؟.. لا يهتم ولكن الفضول يكتنفه.. هل يمكن أن يكون هناك مجموعة أشخاص طبيعيين بمثل تلك القوة أو النفوذ؟.. لا بد أن هناك شيئًا ما خلفهم.. كيانٌ ما.. أكبر مما يستوعبه..

ربما ينتمون لجهاز استخبارات دولة أخرى.. ربما يسعون لتجنيده، وجعله جاسوسًا.. هو لا يمانع، بل يتطلع لذلك.. يريده بشدة.. يريد أي فرصة يمكنه بها أن يدمر ذاك الشعب الذي يحتقره ويزدريه.. ينهض من مكانه.. يتجه إلى المطبخ..

البار الكبير الذي في الركن يجتذب أنظاره.. كأنما هو يناديه.. يدعوه لأن يجرب.. يدنو منه، ويلتقط كأسًا صغيرًا من الكريستال ويضعه على المنضدة، ثم يتناول بيده الأخرى إحدى الزجاجات من على الرف.. يحاول فتحها بيده، فلا يقوى، فيلقمها أسنانه، ويجتذبها بعنف ليدوى صوت فتح السدادة المميز.. يصب السائل الرائق في الكأس، ويملأه، ثم يضع الزجاجة جانبًا، وهو يتناوله بيده الأخرى.. يرفعه إلى شفتيّه، ثم يشرب..

ذاك المذاق الحارق في حلقه وعلى لسانه يغطي مشاعره، فيبصق ويسعل في قوة..

"كل شيءٍ في بدايته مؤذٍ".. هكذا قال لنفسه وهو يرفع الكأس لشفتيه مرة أخرى.. يشعر بطعم الكحول الحارق، فيستسيغه.. يطلب منه مزيدًا..

لا يفكر فيما سيكون، ولا يريد.. فقط يريد عيش لحظته هنا والآن، وليذهب

كل شيء بعدها إلى حيث ألقت..

يرشف رشفة أخرى.. ويشعر بعقله يدور.. يتذكر لويس..

لا يُثير في نفسه شعورًا بالراحة، ولكنه يثق به.. لا يدري من هو ولا ماذا يريد، ولا يظن أنه سيعرف.. ليس الآن على الأقل..

- أرى أنك جربت الويسكي..

يلتفت خلفه بسرعة، ليطالعه وجه "لو" المبتسم..

- لا تشربه دفعة واحدة، وإلا ذهب عقلك، واحتجت أحشاؤك.. ذاك نوعٌ فاخر..

ابتسم، وهو يرفع الكأس إلى شفتيه مرة أخرى.. لا يعبأ بكلامه، ويتجرعه كله دفعة واحدة، ثم يبصق آخر رشفة، وهو يسعل، فيضحك "لو"..

- قد حذرتُك..

يقترب منه.. يجلس بجواره على الكرسي الطويل أمام الكاونتر.. ينظر إلى عينيه مباشرة..

- قد حان الوقت..

- حان الوقت لماذا؟..

يضع يده على كتفه، ويضغطه بقوة..

- لتفتح عينيك، وترى العالم الحقيقي..

ينظر له عمر بعينيّن حائرتيّن.. لا يفهم.. وينهض "لو" من مكانه، يشير له بسبابته..

- ارتدِ افضل ما لديك، فاليوم لن يكون كسابقيه..

ينهض عمر، وهو ينظر له..

- اليوم ترانا، وتشهد مجدنا..

تثير كلماته الرهبة في نفس عمر.. لا يدري لماذا، ولكن صوته العميق، وكلماته الغامضة المسرحية تلقي في نفسه وجلاً لم يعهده.. يشعر بأن كل شيء يتغير بسرعة، وبأن حياته لن تعود كما كانت..وهو يسمو لذاك..

يسمو له بشدة..

* * *

نحو مكانٍ بعيد تمضي السيارة الفاخرة..

لا يدري لأين، ولا يهتم.. المهمُ أنها تأخذه بعيدًا عن هنا.. بعيدًا عن كل شيء.. بعيدًا عن أفكاره، وعن خيالاته، وذكرياته الكابوسية، ونحو أفقٍ جديد.. تمضي في ظلام الشوارع، وهو يجلس بجواره صامتًا، يتطلع إلى العدم خارج النافذة الداكنة.. من هو حقًا؟..

قال إن اسمه لويس.. من أين جاء، وكيف أخرجه من السجن بتلك السهولة؟.. قد كان السجن خاويًا لا يحوي حراسًا ولا ضباط.. حتى البوابة كانت مفتوحة بلا حراسة كجسد عاهرة..

كيف يمكن هذا؟.. وكيف يمكن أن يعرف كل ما عرفه عن الضابط، وعن العميد الذي طلب منه قتله، وعن الكاتدرائية وتأمينها؟..

يوشك على السؤال، ثم يؤثر ابتلاع أسئلته والصمت.. لم يكُن يومًا من محبي الكلام، وعلى حد علمه، فقد أسدى له صنيعًا بإخراجه من هناك، قبل أن يُجَن تمامًا.. وربما هو جُنَ فعلاً.. لم يعد يفقه.. يشعر بالسيارة تتحرك وتدور في منحنيات وشوارع جانبية، إلا أنه لا يرى شيئًا بالخارج.. كأن الزجاج يحجب عنه الرؤية تمامًا.. يُدير عينيه إلى "لو"، فيجده صامتًا كما كان.. يتطلع إلى العدم عبر النافذة السوداء، ولا يتكلم.. ثم يُدير عينيه له فجأة، ويقول:

- النافذة تغير كثافتها ولونها.. لا يمكننا أن ندعك ترى طريق المكان الذي نذهب إليه..

يشعر بالتوجس، وبقلبه ينبض.. هل هو مُختطَف؟..

- وإلى أين نذهب؟..

يبتسم نفس الابتسامة الهادئة، ثم يدير عينيه إلى النافذة من جديد، ولا يتكلم.. كرر السؤال، فلم يجبه سوى الصمت، بينما السيارة تتوقف، ويتغير لون النافذة من جديد إلى الداكن الشفاف، ويفتح "لو" الباب، ويترجل..

يمُد يده إلى الباب، فينفتح قبل أن يلمسه، ويمسكه له ذلك الأنيق ذو البذلة السوداء، وهو يشير له بالنزول، بينما يقف "لو" جواره صامتًا، وهو يبتسم..

يترجل شاعرًا بالرهبة، وتتبدّى علاماتها على ملامحه وارتجافة أصابعه، ولكنما لا يبدو على أحدهما أنه يلحظها، بينما يدلفون إلى ذاك الرواق الواسع الطويل، المُضاء بذلك اللون الأبيض الساطع.. لا يدري من أين يأتي الضوء، فهو لا يرى مصابيحًا.. بل الأمر كأنما الضوء يسري من الجدران ذاتها.. لا يفهم، ولكنه يمشي حيث يقودونه في صمت، حتى نهاية الممر، حيث تلك البوابة الضخمة التي يحتلها نفس شعار النجمة الخماسية ذات الصاعقة.. يقفون أمامها صامتين للحظة، فتنزلق منفتحة، ليتبدّى من خلفها ذلك المشهد الأسطوري..

شاشات.. شاشات وكاميرات في كل مكان.. شاشات تحتل حوائطًا بأكملها، وحواسيب في كل ركن مصفوفة على مكتب، يجلس عليه واحد أو واحدة.. طائرات.. طائرات مروحية ونفاثة، وسيارات مدرعة أكثر من قدراته على العد، كلها ينطبع على جوانبها نفس الشعار الغريب.. ضجيجٌ، وأصواتٌ تصدر من اللامكان.. رجالٌ يركضون من كل اتجاه ذاهبين صوب غاياتهم، وآخرون يرتدون المعاطف البيضاء ويتهامسون..

ثمة شعار عملاق داكن اللون، منقوش على حائط ضخم بطول وعرض القاعة كلها.. نفس النجمة الخماسية التي تهوي عليها الصاعقة.. لا يستوعب ضخامة المشهد، فيتسمر للحظة، بينما يربت "لو" على كتفه، ويحيطه بذراعه جاذبًا إياه خلفه.. يتوقفون عن الكلام، وتحدق نظراتهم فيه بمشاعر متباينة.. الحيرة.. التأفف.. العدائية والحقد.. الانبهار.. لا يدري لمَ وعلامَ.. يتجهون صوب المصعد الضخم الزجاجي، ويدلفون

للداخل، ثم ينغلق عليهم الباب..

- أين نحن؟!.. ما هذا المكان؟!..

- ستعرف كل شيء..

يسأله في حيرة متوجسة، فيرد في هدوءٍ معتاد.. يصمت.. يصل المصعد لغايته، وينزلق الباب الزجاجي الفخم منفتحًا على المشهد البانورامي الفريد أمامه.. مشهد القاهرة كلها على ذاك الارتفاع الذي لا يستوعب.. كأنهم يناطحون السحاب.. تبدو المدينة كلها مضيئة أمامهم في ظلام الليل.. لا يمُكن أن توجد بناية في مصر كلها على ذلك الارتفاع الخيالي.. يخطو إلى المكتب الواسع خطوتين، ثم يتسمر مكانه.. لا يدري بمَ ينطق.. ثم يستدير له.. يقف صامتًا، يمسك بكأسٍ صغير، تسبح فيه زيتونة لا يفقه من أين أتى بها، ويستند إلى الباب الخشبي الفخم للمكتب العملاق، وهو ينظر له مبتسمًا..

- من أنتم بالضبط؟!..

يرشف رشفة من الكأس، ويتلذذ بها مليًا، ثم يبتسم ابتسامة أكثر وسعًا، ويقول، وعيناه تتألقان:

- نحن بداخل القاعدة 39 إم..

ينظر له بعدم فهم..

- يسمونها "القلعة"..

ما زال لا يستوعب، وتتعلق عيناه بشفتيه وهو يردف:

"هذا هو مركز التنظيم في مصر.."

* * *

يجلس أمامه على المكتب.. يصطلي بكوب القهوة الساخن بين كفيه، وينظر إليه بلا كلمة..

وهناك أمام الحائط الزجاجي، يقف "لو" واضعًا كفه بداخل جيبه، ممسكًا بكوب المارتيني بيده الأخرى، وهو يحدق إلى اللانهائية عبر الزجاج الشفاف..

- ما هو التنظيم بالضبط؟..

يسأل "عمر" حائرًا، فلا يجيبه.. يتطلع عبر النافذة لبرهة، ثم يلتفت له، ويقول مبتسمًا:

- ما هو ما تعرفه عن العالم؟..

لا يفهم..

- ما الذي تعنيه؟..

لا يجيبه، ويتطلع عبر الزجاج الشفاف كما كان.. ثم يستدير.. يقترب من الكرسي المقابل له، يجلس ويرفع ساقًا على ساق، ثم يقول:

- قصة منشأنا قديمة بعض الشيء.. وليست هي الأساس الآن.. فقط قُلْ

لي.. ما هي خططك؟..

ينظر له، ويتحسس كوب القهوة، وهو يقول:

– لا أعرف.. ولا أعرف كيف أخرجتني من السجن حتى، ولا كيف عرفت وتعرف كل ما تقوله وتفعله.. كل ما أعرفه هو أنني بحاجة إلى ما تقدمه لي، وأريده بشدة.. رشف "لو" رشفة من المارتيني، ثم قال:

– لستَ بحاجة للقلق بصدد السجن أو غيره.. لكن سؤالي هو؛ ما الذي كنت تنتوي فعله لو لم يكُن ذاك عائقًا، ولم يُقبض عليك في الأساس؟..

شرد "عمر" في ملامحه لحظة، فقال "لو":

– قد ماتت حبيبتك.. وانتهى كل ما كان يربطك بهذا العالم..

ينتفض قلبه.. يحدجه بنظرة داهشة غير مصدقة، بينما هو يتابع كأنما شيئًا لم يكن:

– فشلت ثورتك ورُكلتَ بأحذية مغتصبيها.. فقدتَ عملك ومصدر دخلك.. لا أعتقد أن لديك اختياراتٍ كثيرة..

لا يقوى على النطق، فيكتفي بالتحديق..

– قد نسيك الرب.. ولئن لم تُذَكّر العالم بذاتك، فلربما لا يتذكرك أحد..

– كيف عرفتَ ذاك كله؟!..

يميل نحوه..

- ليس هذا هو المهم.. نحن نعرف كل شيء عنك وعن والدك، الذي تركك منذ صغرك.. نعرف نبيل وموقعة الجمل والهراوة.. نعرف المستشفى الميداني ومي.. نعرف عملك وريك ميسون.. نعرف أمك ونعرف سكنك.. نعرف كل شيء عنك، ونعرف ما لا تعرفه أنت نفسك..

لا يستوعب، وتفيض الأسئلة بداخل ذهنه، فلا يدري ما يسأل.. فقط يرتفع حاجباه علامة دهشته الحائرة، ويهم بالسؤال، ولكنه لا يقدر على ترتيب الكلمات، فتخرج منه همهمة غير مفهومة، يضحك على إثرها "لو" ضحكة قصيرة، ويقول:

- ذاك المشهد لا يَقّدَم أبدًا..

- ماذا؟!..

يتراجع في مقعده..

- أنت الآن تتسائل.. كيف عرفنا كل هذا.. كيف نعرف شكل غرفتك، ونعرف ما تفتحه على شاشة هاتفك، ونعرف ما تبحث عنه على حاسبك.. نعرف كم مرة مارست العادة السرية، وكم مرة تخيلت الوسادة جسدًا دافئًا بجوارك تضاجعه شهوةً.. نعرف كل شيء عن خلوتك بمي، وعن تركها لك، ثم استغاثتها بك.. رأينا دماءها التي سالت على يديك، وأنت تُركَل بالأحذية.. نعرف حياتك الحقيرة بكُل تفاصيلها..

المشاعر بداخله تفيض كعاصفةٍ في محيط، وتنقبض عضلاته وتتسارع أنفاسه.. يشعر بكل ما يقوله.. بكل حرف.. ينهض من مكانه، وعيناه

تعلوهما نظرة الجنون، ولا يتحرك "لو" من مكانه.. فقط ينظُر له في ثبات، فيشعر أن قدميه تتخلي عنه، ويسقط كجوال مليء.. لا يقوى على الحراك، ويشعر بأن كل عضلة في جسده لا تطيعه.. لا يفهم ما يحدث، وشعوره بالغضب يُقاتل شعور العجز، أيهما يحتل مكانًا أكبر بداخل قلب لا تسَع حدوده أيهما.. وينهض "لو" من مكانه.. ينحني عليه في هدوء..

- تبًا لك، وتبًا لحقارتك.. تريد أن تُفرغ طاقتك على من يُصارحك بحقيقتك؟.. أنت قطعة روث لا معنى لها، ولا دور سوى أن يدهسها السائرون في شارعٍ زلق، فيتأففون.. أين كانت عروقك النافرة تلك ونبيل يُقتل، وماذا فعلتَ بعدها؟.. أين كانت، والبواب يوشك على تجريد مي من ملابسها بعينه؟.. أين كانت، وهم يقتلونها برصاصةٍ لا تساوي دماءها، التي سالت على طريقٍ تطأه أرجل العاهرات كل يوم؟..

ينحني عليه أكثر، وهو يقول هامسًا:

- أين كانت، ووالدتك تمتطي عشيقها متأوهةً، وأنت تعمل كالعبيد لتعود لها بما يسد جوعكما؟.. صحيح.. ربما لم تكُن تعرف أن لها احتياجات.. وأنها تنتظر نزولك للعمل في كل يوم.. ربما لا تعرف أنها تتمنى لو لم تَعُد أبدًا الآن، وأنها لفظتك كما تلفظ قذراتها في الحمام..

الدموع تجري على عين "عمر"، وهو لا يقدر على تحريك إصبعه حتى، ويزيد من وطأتها إحساسه العارم بالعجز الذي يستولي على روحه، ثم تهوي صفعة "لو" على وجهه لتلغي أي مقاومة يبذلها محاولاً كبح جماح

عبراته.. فيُنهنه ككلبٍ جريح، بينما الصفعة الثانية تهوي على وجهه..

- أنت حقير.. لا صوت ولا أهمية، ولا قدرة لك على أي شيء.. لا تفقه شيئًا بنظرك الضيق، وليست لك أهمية في العالم سوى تلقي الصفعات ممن يقدرون على توجيهها لك.. من كل من يقوى.. يعنى ذاك العالم كله..

صفعة أخرى تمتزج بالدموع والدماء السائلة من الجرح القطعي الصغير، التي صنعته في شفته السفلى..

- هل تعرف لماذا تركك والدك؟.. لأنه لا يهتم.. لأنه لا يريدك، وكان وجودك كله في هذه الدنيا غلطة صنعتها نشوته، التي لم يستطعْ تأخيرها للحظة، ريثما ينهض من فوق جسد أمك العاهرة.. لذاك السبب فقط أتيت أنت لهذا العالم، بدلاً من أن ينتهي وجودك كحيوانٍ منويٍ يسيل بداخل مرحاضٍ ما..

تبلغ الصدمات منتهاها أحيانًا وتتجاوزه، فلا يقدر المرء على الشعور بما يصيبه، ويفقد إحساسه تمامًا.. هكذا شعر، وهو يرقد على الأرض كخرقةٍ بالية، يتلقّى الصفعات، وهو يبكي كالنساء، ولا يقوى حتى على رفع عينه لمواجهه.. يريد أن يقتُل ويُقتَل.. يريد شيئًا ما.. يريده بشدة، ولكنه لا يفقهه، ولا يدري كنهه..

يقول "لو":

- حتى ذاك الرب الذي تؤمن به أو لا تؤمن، لا يعبأ بك.. لا يعبأ بوجودك، ولا يذكرك أصلاً.. لن يهتم لو حييت أو مُت.. فهو لا يهتم ولا يعبأ بشيء على

هذه الأرض منذ زمنٍ بعيد.. قد تخلى عن الجميع، ولم يعُد هناك ما يُثيره..

الدموع تجري أكثر..

- قد فقدتَ كل ما يمكن أن تهتم به منذ زمن بعيد.. في كل يوم كنت تحاول وتحارب في معركةٍ خاسرة.. ليست تلك معركتك، ولن يمكنك الفوز بها مهما حاولت.. أنت لهم، وهم عليك، فلا مفر.. أليس هذا ما كان يدور بخُلدك؟..

تتفجر دموعه أكثر، فيتركه "لو" ممدًا على الأرض، وينهض متجهًا إلى الجدار الزجاجي، ويحدق في العدم لبرهة.. لا يتكلم، ولا يقطع الصمت سوى صوت دموع عمر.. عمر الذي يشعر أن جسده يتحرر.. يقدر على الحركة أخيرًا، ولكنه لا يريد.. يشعُر أن كل ما بداخله قد قُهِرَ وبلي، ولم يعد يقدر على فعل شيء..

- ولكنك لا يجب أن تكون حقيرًا بعد الآن..

يستدير.. يمُد يده له..

- انضم لي.. ولنُغير العالم..

لا يفهم.. فقط يرفع عينه الدامعة له..

- تِلكَ هي غايتنا، ومهمتنا.. نحنُ حُكام العالم الحقيقيون، ونحن الآلهة التي تراقبك حقًا، وليس هو..

يشير بسبابته إلى أعلى، ويتابع:

- هو لا يرانا.. كما هو لا يراك..

لا يدري لِمَ، ولكنه يلتقط كفه، وينهض.. كأنما هو لم يكُن يتلقّى الصفعات منذ لحظاتٍ قليلة.. لا يقدر على التحكم في مشاعره، ولا يدري ماذا يريد فعلاً.. يريد من ينتشله من غياهب نفسه، وينقذه من الضياع.. يريد أي شيء وأي شخص.. يساعده هو على النهوض حتى يقف، ثم يمسك وجهه بين كفيه، ويقول، وهو ينظر إلى عينيه مباشرة:

- نحن في كُلِ مكان، وخلف كل حدث.. نحن الآلهة، ونحن من نُحيِّ ونُميت.. نحن كل شيء.. وان كنت لنا، سنكون لك..

ينظر له..

- إنه عصر التنظيم..

ويحرك يده إلى الحائط الضخم الشفاف، فيتحول إلى شاشة ثلاثية الأبعاد، تنقسم لشاشات صغيرة، تنقل أحداثًا لا يمكن استيعابها.. عبر العصور والأمكنة والمسافات.. البحر المنشق، الذي تحوم فوقه الطيور، ويعبر وسطه المُطارَدون والمُطارِدون.. القاهرة المشتعلة تنبعث منها الأدخنة.. لندن الفيكتورية التي تلتهمها ألسنة اللهيب.. سوريا وأطلالها المحطمة.. موكب كينيدي الدامي.. الجنود المصريون الغارقون في دماءهم في قاعدتهم بسيناء.. شواطئ نورماندي الغارقة في دماء الجنود الأمريكيين، وقطع أجسادهم الممزقة.. مناظر لا توصف، ولا يمكن استيعاب كيفية وجودها على تلك الشاشة..

- ذاك هو نحن.. في كل رُكنٍ من هذا العالم، وفي كل لحظة من تاريخه، نحن هناك.. نقبع منتظرين، ونحرك البيادق صوب غايتنا، وما نُريده..
يخرج الصوت من شفتي عمر مرتجفًا بنشوة الذهول ورهبته..

- كيف؟!.. من أنتم؟..

- نحن صانعو التاريخ، وخالقي العالم ومدمريه.. نحن الآلهة..

لا يقوى على النطق، وهو يتابع المشاهد التي تتغير على الشاشات.. حريق روما والصراخ والدماء.. الحروب الصليبية، وفُرسان الهيكل بملابسهم البيضاء ذات الصليب الأحمر.. النازيون، وهم يدخلون بولندا، والقنابل على مرمى البصر.. سفينة نوح، وسط الطوفان والصواعق.. راسبوتين الراهب ذو العيون العميقة، وثلوج روسيا الكئيبة.. مذبحة القلعة، ومحمد علي بلحيته الطويلة وسط أنهار الدماء.. لا يقدر عقله على استيعاب معظم ما يراه، ولا يدرك في أي زمن.. ولا يفهم كيف يمكنهم تصوير تلك الأحداث..

- نحن من نهتم حقًا، ونحن من نحارب، ونصنع فارقًا..

مازال يشير إلى الأعلى..

- تحاربون الله؟!!..

يبتسم في سخرية، ويلتقط كأس المارتيني ليرشف منه رشفة، ثم يقول:

- ليس كما تتصور..

يتغير المشهد على الشاشات لينقل مشهد اغتيال السادات على المنصة الشهير، ويتابع هو:

- عداوتنا مع من تسميه الله تمتدُ لأجلٍ طويل، ومن قبل التاريخ المسجل ذاته.. التاريخ الذي صنعناه نحن..

يطل عدم الفهم من عينيه سافرًا، وهو ينظر له في صمت.. لا يدري ماذا يسأل..

- دعني أحكي لكَ قصتنا..

* * *

يقول له "لو":

- بدايتُنا كانت قبل ما تعرفه أو تستوعبه أنت.. كانت مع من سكنوا الأرض قبل البشر.. الجن.. كانت لهم حضارة عظيمة، مازلنا نجد بعض آثارها الآن، ولكنها لا تظهر للعامة.. امتد زمنهم لعصور طويلة، حتى انتشرت بينهم الحروب والدمار، وكادوا أن يدمروا الكوكب بما عليه، حتى قرر هو أن يبعث لهم بجنده الأوفياء لغزوهم، وتدمير كل ما يمثلونه..

أشار بيده نحو الشاشة، فتغير المشهد عليها لينقل صورة السماء الحمراء، والأطلال المتناثرة على مرمي البصر، والغبار الذي تذروه الرياح، وتابع:

- وكانت النتيجة هي دمار حضارة الجن، وفَناؤهم عن بُكرة أبيهم.. إلا هو.. عزازيل الحارث..

تغير المشهد على الشاشة لينقل مظهر ذاك الطفل جميل المظهر، محمر البشرة، بينما تابع هو:

- كان مؤمنًا وصالحًا، ولذلك أخذوه معهم إلى عرشه، وتربى في وسطهم حتى كبر.. وأعطاه هو سُلطان السماء الدنيا.. كانت له أعظم مكانة أُعطيت لجنيٍ أو ملاك.. كان هو المُختار.. هو المُدلل.. حتى جاء..

ينُظر له عمر، وهو يتكلم.. يبدو التأثر واضحًا في نبرات صوته، ولكنه لا يظهر على ملامحه، وهو يتكلم كأنما يُحدّث نفسه:

- آدم.. صنعه بيده من تربة الأرض وطينها، وحين شَكَّلُه، طالب الملائكة جميعًا بأن يسجدوا له.. فسجدوا جميعًا إلا عزازيل.. لم يَقبل، ولم يستوعب أن يُرغَم على السجود لمخلوقٍ حقيرٍ كهذا، لا تتوافر له قدراته أو منزلته.. عزازيل لا يسجُد لأحد، ومعه كل الحق..

يراقبه عمر بطرف عينه، وهو يتابع:

- ولذلك نفاه من جُندِه، وأخرجه من عرشه ورحمته.. أقسم عزازيل أن ينتَصِر لفكرته، لو أنه يمنحه الخلود ليوم يُنفذ ما صبا له، فأذن له، ومن هُنا بدأ كل شيء..

تغير ما يدور على الشاشة ليرسم بضع مناظر تُنقل من زاوية ضيقة، لا تكفي للاستيعاب..

- شكله في صورته، وخلقه ليُسكنه الجنة كملك.. لم يستحق ما فيه، ولم يتعب لأجله.. أعطاه كل شيء منذ وجوده، ولم يهتم بسواه.. حتى نال

منه عزازيل، وأثبت أنه مخلوقٌ مذنب.. يتنامى الشر في داخله ويختفي، ولا يحتاج إلا لدفعة فقط.. فِكرة صغيرة تُزرَع في عقله، وتتشعب وتنتشر كالسرطان لتدمر بداخله كل شيء.. حَرّم اللّه عليهم الشجرة لسببٍ غير معلوم، فأكلوا من تُفاحها برغم كل شيء، بعد أن أغريتهم بالمجد والملك.. انجذبوا نحو أهوائهم، برغم كلامه لهم وتحذيره، وبرغم ضيق أفقهم وعدم استيعابهم حتى لما تعنيه الكلمتان..

أغريتهم؟.. هل قال أغريتهم؟!..

– وعندها طردهم من الجنة التي أسكنهم إياها، وأعلن لهم أنه في الواقع قد خلقهم ليعمّروا الأرض، وليس الجنة !.. أي عبثٍ هذا؟.. هل كان يلهو إذاً؟.. لماذا أسكنهم الجنة منذ البداية، لو كانت تلك هي غايته التي ينتوي صنيعها؟.. تلك هي أول كذبة صدقّها البشر.. نسيتموها يا سلالة آدم، وما زلتم تتناسونها..

من يُكلِم بالضبط؟.. من يقصد بسلالة آدم؟!..

– أسكنهم الأرض عقابًا لهم كما قال، وطرده معهم إليها.. وبدأت العداوة، والحرب الأزلية بينهم منذُ ذلك الوقت.. عزازيل، الذي أطلقوا عليه اسم إبليس كناية عن التمرُد؛ وهو منهُ براء، قد ظن أن اللّه عفا عنه برحمته الواسعة، ولكن اتضح له أنه قد تركه لهدفٍ آخر.. هدف أن يكون البيدق الأسود في لعبة الشطرنج التي أُعِد لها.. وذاك هو ما حدث بالفعل.. ولكن بشروطه هو.. قد أقسم أن يثبت للجميع خطأ ذلك القدير، الذين يتغنون

برحمته عندما خلق البشر ليعمروا الأرض كما قال.. أقسم أن يُخرج أسوأ ما في بني البشر، ليثبت لهم وللجميع أنهم مُفسدون فاسدون تمامًا، كما كان من قبلهم، وأنهم لا يستحقون تكريمًا أو ثناءً.. أقسم أن تكون تلكَ حربه الخاصة، وهدفه الأوحد..

تغيرت الصور على الشاشة لتنقل مشهد ذلك العملاق، الذي يهوي على رأس ذلك الراقد بتلك العصا الثقيلة، بينما هو يتابع:

- بدأت حربه بإفساد من تراه أمامك.. قابيل.. مع كلمة بسيطة منطقية همس بها في عقله، دفعه لارتكاب الذنب الأول، الذي بُنيت عليه ذنوب البشر كلها.. قَتَل أخاه بلا رحمة، ثم دفنه هاربًا من ذنبه.. وعندها بدأت بذرة الشر في نفوس البشر.. نضجت، وظهرت للسطح.. كما قلتُ لك، كُل ما كانت تحتاجه، هو دفعة..

ابتسم قليلاً، ثم أضاف:

- بعدها قرر الله إرسال الأنبياء؛ ليرشدوا البشر لطريق الصلاح الذين ضلوا عنه، فحاول عزازيل إفسادهم كما فعل من قبل، ولكنه لم يقدر.. كانوا محفوظين، ومحصنين ضده، فلم تُفلِح محاولاته معهم، ولذلك انتقل إلى وسيلة أُخرى.. قومهم..

تمثلت السفينة هائلة الحجم على الشاشة، وسط الأمواج العاتية، بينما تابع هو كلامه:

- بدأ مع نوح، وأفسد قومه حتى أرسل الله لهم بالطوفان بعد أن سأم

منهم.. ففنوا عن بُكرة أبيهم سوى ذرية نـوح.. التي جاء منها البشر الحاليين جميعًا.. الذرية المُحصّنة.. كانت ذرية أفضل، وأكثر قوة.. لذلك فقد أدرك عزازيل أن ما كان يفعله من قبل ليس الطريقة المثلى.. يجب أن يدمرهم ببطء.. بدون أن يشعروا.. ولذلك بدأ الخطة الجديدة..

تحول المشهد إلى البحر المنشق، والعابرين فيه يتعثرون في ركضهم، وجواره مشهد الصليب وجسد المسيح المُعلَق عليه، ومشهد آخر لا يدري كنهه..

- قرر ألا يُفسد البشر فقط.. بل يفسد دعوة الأنبياء لهم، ويحرّفها من باطنها.. يجعلهم يتبعون هداية زائفة تدمرهم من الداخل.. وهذا هو ما فعله مع قوم موسى ويسوع، ومحمد.. حَرّف كل ما استطاع، واستغل منهم من استغل.. ليس يهوذا والسامري أولهم، وليسوا الخوارج ومن قاموا بالفتنة الكبرى في عصر الإسلام آخرهم..

المشهد يتغير ليظهر جاك دو مولاي بلحيته الرمادية وسط النيران، وجسد الملك فيليب الرابع يتبدّى في الخلفية..

- لكن ذاك لم يعُد كافيًا.. كان البشر، وعلى الرغم من كل هذا التحريف وذلك الكره والبغض الذي يكِنّوهُ بعضهم لبعضٍ، مازالوا نمطيين.. مازال تفكيرهم ينقسم إلى الإيمان أو الكفر أو اللامبالاة.. كان هو يريد أن يطورهم عن ذلك.. أن يجعلهم يستحقون مكانهم معه.. كان يريد أن يجعل تفكيرهم مماثلاً لتفكيره، وأن يجعل فلسفته تصل لأذهانهم، ويفهموها..

ومن هنا بدأ كياننا نحن.. كيان التنظيم..

نظر له عمر في تلك اللحظة ليرقب الانفعال على وجهه، وهو يتابع:

- تنظيمٌ بدأ بمجهودٍ فردي في بدايات القرن الحادي عشر.. ولم يتّخذ طابعًا رسميًا إلا مع انهيار فرسان الهيكل، بعد حرق قائدهم الأخير على يد فيليب الرابع ملك فرنسا، وكليمينت الخامس بابا الفاتيكان.. كان هؤلاء هم اللبِنة الأولى التي وضعت الأساسيات لذلك الكيان الحالي.. فبعد أن انتقلت أموالهم لحيازة فرسان الأسبتارية، تم استغلالها في الخفاء لصنع الكيان البدائي له، وبدأ في الانتشار تحت الأرض.. في كل مكان.. كانت نهاية فرسان الهيكل هي بداية عصر السرية للتنظيم، الذي لا يحمل اسمًا واضحًا ومحددًا حتى الآن.. ليس الماسونية لو كنت تُفكِر فيها، فما الأخيرة إلا واحدة من الكيانات التي تفرعت منه لتسير نحو منحنى آخر، كجزءٍ من هدفه النهائي.. ما أتكلم عنه هو شيءٌ أكبر وأكثر عمقًا من ذاك..

تتباين المشاهد على الشاشة، وتتغير على حسب كلامه، وهو يردف:

- كان الهدف الرئيسي هو إثبات الفلسفة التي حكيتُ لكَ عنها.. أن اللّه قد أخطأ، وأن أحدًا لا يُريد الاعتراف بهذا؛ لأنهم لا يتصورونه.. لذلك فقد بدأت الخطة الكبرى، التي تناوب فرسان التنظيم على تنفيذها عبر العصور.. خَلْق الشر وتمويله، وخَلْق قوى الخير التي تحاربه وتمويلها أيضًا، ليكون الناتج هو حربٌ فوضوية دائمة لا تنتهي أبـدًا.. لم تكُن الحروب الصليبية والغزوات الإسلامية والعثمانية، والحروب العالمية، والأسلحة الماحقة، التي تستخدم في كل منها أكثر من مجرد أمثلة على ذلك.. كل

الحروب التي خُلقت منذ بدء التاريخ كان التنظيم يختفي خلفها.. تمامًا على مرمى البصر.. لا يدرك أحدٌ وجوده، ولا يستوعب حجم الكيان الهائل المتشابك، الذي يغطي العالم بشبكة من نسجه وتخطيطه.. دائمًا نحنُ هناك، نخلق الحدث، ونخلق رد فعله.. كنا هناك في الفاتيكان عند قرار بدء الحروب الصليبية.. كنا هناك في أمريكا عند بدء حرب الثلاثين عامًا والحرب الأهلية.. كنا هناك خلف الثورة الفرنسية، والأمريكية، والبلشيفية، والإيرانية، والتونسية، والسورية، والمصرية ذاتها التي شاركتَ أنت فيها.. كنا هناك نختبئ خلف هتلر، وهو يصدر أوامره بغزو بولندا، وبدء الحرب العالمية الثانية، ومن الإهانة لذكائك، أن أذكرك أن الأولى كانت بتدبيرنا أيضًا.. ليس هناك حدث تاريخي واحد في التاريخ المكتوب والمسجل، وحتى من قبله، لم نكُن نحن طرفًا فيه..

لا يقدر على استيعاب كلامه.. الرهبة تستولي عليه، ويشعر بضربات قلبه تتسارع، والدم يهرب من عروقه..

- نحن من صنعنا التاريخ ونصنعه، ونحن من خلقنا العالم الحالي.. نحن في كل الدول، نختفي في كل أجهزة الإستخبارات، وندير كل المنظمات الحقوقية، والإعلامية، والبحثية، والترفيهية، في الحقيقة وعلى الإنترنت.. نحن بداخل كل الأبحاث الجامعية، وخلف كل العقول المتطورة التي تنتج التكنولوجيا التي نستخدمها نحن قبل أن يسمع عنها العالم بعقود.. نحن سادة الدول والحكومات والسياسات.. نحن الآلهة الحقيقية..

يبتلع عمر لعابه، ويحاول الكلام، ولكن كل ما يخرج منه هو همهمة لا تتشكل منها عبارة واضحة.. ينظر له "لو" مبتسمًا، وهو يراقب وقع الصدمات عليه، ثم يقول:

- لم يخطُر كل ذاك ببالك من قبل.. يمكنني أن أراهـن.. كنتَ تعتقد أن العالم هو مجرد مكان فوضوي، لا مكان فيه للضعفاء.. والحقيقة أن هذا هو الواقع فعلاً.. ولكننا نحن من نعطيه صفة الفوضوية.. لن أقول أن الفوضى في العالم سببها الوحيد هو نحن، ولكننا نلعب دورًا رئيسيًا فيها..

يصمُت عمر تمامًا، وهو يتطلع إليه.. لا يفهم كيف يمكن أن يتكلم معه في شيءٍ كهذا، ويكشف له سرًا مثل ذاك بمثل تلك البساطة.. ولماذا هو بالذات؟..

يجتذب نظره الشعار المرسوم على رابطة عنق "لو"، والمنقوش على خشب المكتب الضخم، وفي كل مكان وقعت عليه عيناه منذ دخل إلى القاعدة..

- وما معنى هذا الشعار؟

يشير بسبابته نحو الشعار المتبدي على رابطة العنق، فيبتسم "لو" ابتسامة خفيفة، ثم يجلس على مقعد المكتب وهو يقول:

- شعار النجمة الخماسية هو في الواقع شعار شديد الشهرة.. كانت بداية معرفتكم به من خلال كنيسة الشيطان لمؤسسها "د. أنتون لافي"..

التقط نفسًا عميقًا، ثم أعقب:

- البداية كانت في سنة 1970 عند بداية تعريف الشعار في الجريدة الرسمية لكنيسة الشيطان والتي يطلقون عليها"The Cloven Hoof" بمعنى "الحافر"، والتي نشرت في شهر مارس من سنة 1970 ، وبعدها تم تصنيعها كشعار حقيقي، فصنعت النجمة الخماسية من الفضة البلاتينية، والصاعقة من الذهب، وكان إستعمالها ينحصر في أعلى درجات كنيسة الشيطان على الإطلاق، وهو الذي كان يعتبر من التنظيم الخامسFifth Order ، ويطلق عليه اسم "The High Priest" بمعنى "الكاهن الأعظم"..

في ذلك الوقت، كان أعضاء التنظيم الرابع يطلق عليهم لقب "السحرة Sorcerers"، وتم تعديل اللقب بعدها لما يسمي بالـ"Magisters"، والذي يضفي في مجمله صفة السحر أيضًا.. بينما التنظيمات الثلاثة الأولية كان لهم ما يسمى بـ "شعار بافوميت"Baphomet's Sigil..

بعد ذلك، وفي إصدار رسمي آخر من "الحافر" في مارس من سنة 1972 ، تم تحديد الرموز الرسمية لدرجات كنيسة الشيطان، وكان شعار النجمة الخماسية ذات الصاعقةLightning Bolt Pentagram هو الشعار الرسمي لمن يصلون للدرجة الخامسة في الكنيسة Fifth Degree، وكان يتم إعطاءهم صفة الدكتوراه، ويطلق عليهم لقب دكتور Doctor..

تغيرت الشاشة لتنقل مشهدًا ثلاثي الأبعاد لشعار النجمة ذات الصاعقة،

بينما تابع "لو":

- بعد ذلك، ولفترة طويلة جدًا أوقف أنتون لافي إعطاء الدرجات الرسمية، وكان يستخدم النجمة ذات الصاعقة كشعاره الخاص، وتم تسمية ذلك الشعار على إسمه، فأصبح يطلق عليها "شعار أنتون لافي Anton Lavey's Sigil".. ثم في أواخر الثمانينات، سمح لافي للمقربين منه وأصحاب الحظية عنده بحمل نفس الشعار ، كوسيلة لإعلان الولاء الشامل له..

ثم ابتسم وهو ينظر إلى عيني عمر مباشرةً، معقبًا:

- طبعًا هذا ما تعرفه كتب التاريخ المسجل.. ومن الإهانة لذكائك أن أقول إن أنتون لافي كان أحد قادة التنظيم في الولايات المتحدة الأمريكية، وتسلم منصبه منذ بداية الثمانينات، وكان يستعمل شعار التنظيم الخفي رمزًا لمنظمته المتفرعة منّا، قبل أن يبدأ التنظيم ذاته في استعماله رسميًا كما ترى أمامك هنا.. كان لافي مسئولاً عن العديد من العمليات التي أثرت في تشكيل المجتمع الأمريكي لصالحنا في تلك الفترة.. لا مجال لأن أشرحها لك الآن.. ستعرف التاريخ المفصل للتنظيم لاحقًا..

ابتلع عمر لعابه، وهو يسأل:

- وما معنى الشعار؟..

أجابه وهو يرفع ساقًا على ساق:

– فلسفة الشعار ذاتها تقوم على عوامل شديدة الأهمية.. فشعارات النجمة الخماسية كلها تُفسر غالبًا على أنها ترمز للبشر، بمعنى الرأس والذراعين والقدمين.. وقلب النجمة وتدويرها بحيث يصبح الرأس للأسفل والقدمين للأعلى يرمز إما لإستعبادهم من قبل قوى عليا، أو يرمز لسقوطهم من الجنة.. هناك تفسيرات أخرى تقول أنها تمثل الحواس الخمس عند الإنسان، أو تمثل العناصر الخمسFive Elements ، ولكن رموزها الحقيقية تتعلق به هو.. القائد الأعظم.. نجمة الصباح الساقطةFalling Morningstar، وحامل الضياءThe Light Carrier.. لوسيفر..

تألقت عيناه قليلاً في ظفرٍ مُقبِض، ثم أردف:

– أمّا شعار النجمة الخماسية ذات الصاعقة، فيرمز للنفي الأبدي من الجنة والسقوط منها إلى الأرض.. يتمثل هذا هنا في شعار الصاعقة الساقطة من السماء على الأرض، وترمز النجمة ذاتها للإنسان..

ثم أشار نحو شعار النجمة على الشاشة بسبابته، مضيفًا:

– لاحظ أن النجمة مقلوبة رمزًا للصليب المقلوب، ورمزًا لسقوط الإنسان– متمثلًا في آدم– من الملأ الأعلى، عقابًا له على عصيانه وارتكابه خطيئة الأكل من التفاحة المحرمة..

أما عن سبب وضع الصاعقة فوق النجمة المقلوبة، فيمكن تفسيره في رمز النجمة الخماسية المقلوبة ذاته.. والذي يرمز لوجه الماعز، أو وجه

بافوميت Baphomet، الذي يرمز للوسيفر..

توقف لحظة يرقب فيها النظرة على وجه عمر، ثم أردف:

- الصاعقة هنا تعطي رمزًا لريشة الخيلاء والتكبر والكرامة، والتي كانت سببًا في قصته مع آدم ورفضه السجود مما أدى للنفي الأبدي.. رمزها الآخير هو تاج الحكم.. بمعنى سيطرته على عقول البشر واِتِّباعهم- التنظيم- له، هذا ما لو اعتبرنا النجمة المقلوبة في هذه الحالة ترمز للبشر..

أشاح بيده وهو يضيف:

- تم تعميم إستعمال هذا الرمز فيما بعد بين فرسان التنظيم، وأصبحوا يستعملونه كرمز ديني لمعتقداتهم وفلسفتهم، وأصبح شعارهم الرسمي بدايةً من منتصف التسعينيات.. يرسمونه على الهواء فوق أجسادهم، كمثل إستخدام المسيحيون الكريستيانيون لرمز الصليب..

لا يستوعب عمر، وتساؤلاته تتزايد، يتقدمها السؤال الأكبر، ذو الوقع المقبض..

- كيف تتوقعون حقًا أن تهزموا الله ذاته؟..

يطلق "لو" ضحكة عالية، ثم يقول وسط رنينها:

- لا أمل لنا أبدًا في الفوز بحربٍ مع الله يا عزيزي.. يجب أن تفهم أنه ببساطة من غير الممكن أن نتحدث عن هزيمته.. ذلك شيءٌ مستحيل التحقيق حتى

بمعاييرنا نحن، ومهما كان الحقد الذي يملأ قلوبنا تجاهه.. الفكرة هي في إهدار صورته.. في إثبات خطأه.. إثبات أنه يخطئ كما يخطئ الجميع، وأنه ليس كاملاً كما يُتصَور لنا.. برؤيتك لما يدور حولك في العالم الآن، هل لديك أدنى شك في أن هذا صحيح؟.. انظر إلى الحروب والدمار، الذي خلفه البشر على مدار مرورهم القصير على الكوكب، وقل لي، هل هؤلاء هُم من خُلِقوا ليعمروا الأرض التي أفسدها مَنْ قبلهم؟.. دعني أخبرك بأنه حتى الجن لم يصنعوا ما صنعه البشر.. قارن بين أخبار العرب المؤمنين بالله، وأخبار الغرب الذي يعتبرونه كافرًا، وانظر بنفسك.. هل تظُن حقًا أن تقدمهم واستقرارهم هو صُدفة؟.. هل تعتقد أن تاريخ الإنسان، وتاريخ وجوده هو فقط ما كُتب بين صفحات التاريخ المُسجل؟.. لا يا صديقي.. تاريخ الإنسان، وبدايته الحقيقية أقدم من ذاك بكثير، ولكننا لسنا بصدد الحديث عن ذلك..

يرقب النظرة التي تتشكل على وجه عمر، وهو يتابع ناهضًا من مكانه:

- الهدف الأساسي لنا يتمثل في مبدأ الخطأ ذاته.. إثبات أن الله يُخطئ كما يُخطئ الجميع هو شيءٌ قاتلٌ بالنسبة لفكرة وفلسفة الإله القدير الذي يأمر بالعبادة المطلقة، ولا يرضى عنها بديلاً.. عزازيل أشرف من آدم، ولذلك رفض السجود له.. عزازيل ليس إبليسًا متمردًا، بل هو الروح أبدية الألم، التي حكم عليها كبريائها أن تأبى الاستسلام لعبث وجودها وخلقها.. البشر ليسوا عبيدًا، ولا يجب أن يكونوا.. بل هُم آلهة أنفسهم، وحاكمو

أمرهم ومستقبلهم.. نحنُ لا ندعوك للإلحاد أو الكُفر، بل بالعكس.. نحن أكثر البشر إيمانًا بوجود الله على وجه الأرض.. ما ندعوك له هو معاداة ذاك الذي تؤمن ونؤمن نحن بوجوده.. ندعوك للتمرد عليه.. لإثبات أنه مخطئ.. يقترب من عمر.. يضع كفه على كتفه، وينظر إلي عينيه اللتين تطل منهما نظرة الرهبة..

- ندعوك لأن تكون سيد مصيرك.. فهل تقبل؟..

يومئ برأسه إيجابًا.. لأول مرة في حياته يشعُر بأنه يفهم أخيرًا.. يفهم ويريدُ ذاك.. يريده بشدة..

- نعم.. نعم أقبل..

يبتسم "لو" تلك الابتسامة الدافئة، ويُخرج من جيب حُلتِه قنينة صغيرة كريستالية مزخرفة، تحوي سائلاً أسودًا قاتم اللون.. يفتحها، ويرفعها على شفتي عمر، فيتجرعها.. يتمتم ببعض الحروف التي لا يفقه معناها، ثم يقول بصوت قوي رخيم، شبه جنائزي:

- لو لم يكُن بإمكانك أن تهزم الرب، فلتصِر مثله.. كُن أنت الرب..

يحرّك يده على الهواء فوق جسد عمر راسمًا علامة النجمة الخماسية، وهو يقول:

- مرحبًا بك واحدًا منا.. وأهلاً بك بيننا.. تتغنى بأفكارنا وتتحدث بلساننا.. فليكن لك شعارنا، فأنت لنا، ونحن لك..

ثم يرسم الصاعقة، وتنطفي الأنـوار كلها إلا من ضوء بعض المشاعل المتوزعة حولهم تلقي بظلالها المتراقصة على النساء العاريات اللاتي يتقدمْن صوبه في ثبات..

يلتصقن بجسده مُقَبِّلين من كُلِ الجوانب، وتهتز صدورهن، وهُنَّ ينتزعْن ملابسه تمامًا..

- مرحبًا بك في التنظيم..

....

تلك هي نهاية البداية..

وذاك هو عصر التنظيم..



تشكراتٍ أخيرة

للكاتب الرائع إسلام عبد اللّه الذي لم تكن الرواية لتكتمل بدونه.. شكر خاص للكتاب المتميزين أحمد ناصر ومصطفى الملواني وأحمد الزيني على مساعدتهم الرائعة وتشجيعهم المتميز.. شكر خاص لصديقي العمر محمد أسامة ونذير زين على وقوفهم الرائع وتشجيعهم طوال فترة كتابة الرواية، التي وُلِدت كفكرة على أيديهم.. شكر خالص لعائلتي الرائعة..

شكر خاص لجروب ساحر الكتب الرائع، وكل القائمين عليه، الذين أصبحوا جزءًا لا يتجزأ من عائلة كل كاتب..

شكرًا جزيلاً لكل من ساعدني وكل من أعطاني رأيًا غير مُجامِل، ساهم في خروج العمل واكتماله على تلك الصورة..


إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة



التنظيم
THE ORDER

"نحن في كُلِ مكان، وخلف كل حدث.. نحن صانعو التاريخ، وخالقي العالم ومُدمِّريه.. نحن الآلهة، ونحن من نُحيي ونُميت.. وإن كنت لنا، سنكون لك.. إنه عصر التنظيم.."

أن تؤمن بوجود الله.. ثم تقف ضده.. هذا هو التنظيم.. أن تحرك أصابعك هكذا فتتحرك الدول كعرائس الماريونيت.. هذا هو التنظيم.. أن ترى و لا تُرى.. أن تكون شيطانًا مريدًا مبتسمًا جميل المنظر.. أن تكون حيوانا.. لكنك تمتطي الناس.. ولا يمتطيك أحد.. هذا هو التنظيم..

د. احمد خالد مصطفى

تنظيمٌ سريٌّ خطير، بجُعبته العديد من صانعي القرار، يضم الأشخاص الأخطر حول العالم.. يكتبون لنا التاريخ كي نقرأ فقط ما يُريدوننا أن نقرأ، يتحكمون في مصائر الشعوب والعوالم كما يريدون و بكُل بساطة.. وكاتب شابٌ بقلم قوي و خيال واسع، يقصّ علينا قصة التنظيم كي يسْبر لنا أغوار هذا التنظيم السري..
استمتعت جدًا بهذه الرواية، واستمتعت أكثر بنضوج قلم محمود علام .. هلمُّوا معي لنكتشف أسرار هذا التنظيم، ولكن حذارِ أن يخدعوكم..
محمد عصمت

تصميم الغلاف كريم آدم

